

(من العصر الجاهلي حتى العصر العباسي والأندلسي)

دكتور

محمد بدر معبدي

الأستاذ المساعد بقسم الأدب والنقد

جامعة الأزهر - فرع البنات

١٩٨٦

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

المرأة ومكانتهـا الاجتماعية والأدبية لم تطو صـفحة التاريخ على امرأة بلغ من الضن بها والايثار لها ، وبذل المهج رخاصا فى سبيلها ما بلغ بالمرأة العربية فى تلك الحقب المتطاولة المترامية فقد نشأت المرأة العربية فى قوم غلبت عليهم دقة الحس ، وسورة النفس ، وخوض مناهل الدم خوف انثلام الشرف ، واستباحة الحى فكانت هى أدق أوتار الحس من قلوبهم ، وأوضح مواطن الشرف فى نفوسهم ، ولولا المرأة ما كان بالرجل نزوع الى حمى ، ولا رعى على وطن (١) .

ولقد كان دور المرأة ظاهرا فى الحياة الجاهلية وهاما جدا ، ولهذا كنا نسمع فى كل مناسـبة اعترافاً شـعرياً من الرجل لها بفضـلها وبمنزلتها السامية ، اذ كانت هى أهم ما فى حياته مما يستحق العناية ، ويستوجب التضحية فهى التى حارب من أجلها ، وشجع ليرضيها وتوجه اليها بكريم الصفات وجليل الفعال (٢) .

وللمنزلة العظيمة للمرأة لم يجد الأشراف والملوك بأسا من التكنى بها والانتساب اليها فقد نسب المناذرة الى أمهم ماء السماء وهى مادية بنت عوف ملكة العراق التى قيل عنها ان جلال الجمال وجمال الخلال قد انتهيا اليها وان ابناءها المناذرة قد ورثوا عنها سـناء الشرف ومضـاء الذكاء وهكذا نسب عمرو بن هند الى أمه من غير أن يرى فى ذلك عيبا أو منقصة

وقد بالغ العربى فى الافتخار بأمه وتمدح بها يقول القتال الكلابى فى فخره بأمه عمرة بنت حرقة من ربيعة .

---

(١) المرأة العربية جـ ١ ص ١٧ .

(٢) المرأة فى الشعر ، الدكتور على الهاشمى ص ٥٥ .

لقد ولدتنى حرة ربعية
من اللاء لم يحضرن فى القيظ دندنا [٢]

كما يفخر بأنه ابن ماء السماء وهى من عشيرته وأعمامه وقد رضع ثديها حرة وزوجة لحر ماجد :

أنا ابن أسماء أعمامى لها وأبى .:. اذا ترامى بنو الأموان بالعار [٣]

وقد جمع المقدام بن زيد سيد بنى حى بن خولان فخره بأمه الى فخره بأبيه فى قوله :

نمتنا الى عمرو عروق كريمة
وخولان معقود المكارم والحمد
وأمى ذات الخير بنت ربيعة
ضرية من عيص السماحة والمجد [٤]

كما كان الفخر بحرية الأم وشرفها عاما يشيد به العلية والعامة فالشنفرى وهو من غير العلية يقول :

أنا ابن خيار الحجر بيتا ومنصبا
وأمى ابنة الاحرار لو تعرفينها

ويكفى أن سيد الأشراف محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام يقول فى يوم حنين « أنا ابن العواتك من سليم » [٥] .

ومن الدلائل على قدرها فى النفوس أنها كانت تجير الهارب وتحميه فقد روى أن خماعة بنت عوف بن محلم الشيبانى أجارت مروان ابن زنباع العبسى ، وكذلك فكيهة بنت قتادة بن مشنوء أحد بنى قيس ابن ثعلبة أجارت السليك بن السلكة السعدى ، وأم جميل الدوسية أجارت

---

(٢) الأغانى ١٥٩/٢٠ ودندن : ما اسود من نبات أو شجر والمراد انها لا تحتطب كما يفعل الاماء بل هى سيدة مصونة .
(٣) اموان جمع امة انظر تهذيب الكامل ٣١٣/٢ .
(٤) معجم البلدان ٤٣٢/٥ ضرية : بنت ربيعة بن نزار وهى أم خولان .
(٥) العاتكة : الطاهرة الشريفة .

ضرار بن الخطاب الفهرى ، وروى عن ابن مسعود ابن مالك أنه جعل خباء زوجته سبيعة بنت عبد شمس حرما فى حرب الفجار بحيث يأمن فيه من يدخله من اعدائه ويصبح سالما ويعتقد ان هذه القبة ترجع فى أصلها الى تقليد دينى ، اذ كانوا يرفعون لصنم القبيلة قبة يسمونها باسمه وتسمى قبة الاعاذة ، يضربها الأشراف ويحتفظون لها بالصفة الدينية(٦).

ولقد كان العرب رواد غارات ، وطلاب ثارات وكان الرجل منهم يغتمر الموقعة لا يدرى أوقع على الموت أم الموت وقع عليه غير أن خيال ابنته وما عسى ان يصيبها بعده من حاجة وهوان كان يتغلغل فى نفسه فيهيج بها حب الحياة فمثله فى ذلك مثل اسحاق بن خلف حيث يقول :

لولا أميمة لم أجزع من العدم
ولم أجب فى الليالى حندس الظلم
وزادنى رغبة فى العيش معرفتى
ذل اليتيمة يجفوها ذو الرحم
تهوى بقائى وأهوى موتها شفقا
والموت اكرم نزال على الحرم
أحاذر الفقر يوما أن يلم بها
فيكشف الستر عن لحم على وضم (٧)
اذا تذكرت بنتى حين تندبنى
فاضت لرحمة بنتى عبرتى بدم

وفى سبيل ذلك يقول حطان بن المعلى :

لولا بنيات كزغب القطا
رددن من بعض الى بعض
لكان لى مضطرب واسع
فى الأرض ذات الطول والعرض

---

(٦) المراة فى الشعر الجاهلى د. الهاشمى ص ٥٦ .
(٧) الوضم : الخوان يوضع عليه اللحم ليشوى ولحم على وضم مثل يضرب لكل ذليل لا يعتصم من مكروه .

وانمـــا أولادنا بيننـــــــــــا
أكبـــــــــادنا تمشى على الأرض

لو هبت الريح على بعضــــــــــهم
لامتنعت عينى مــــــــــن الغمض

ومن أهـم الآثار الدالة على سـمو منزلتها أن حـروباً قد حدثت بسببها ــ فقد كانت المرأة تهتف بالرجل أو تلم به تحت ظلال السيوف وقد ملك الروع القلوب ، وعقد الهول الألسنة وانثغرت الأفواه ، وحارت النواظر فى المحاجر فيستمد عزما نبا ، ويسترد قوة عزبت ومثل ذلك ما فعل ابنتا الفند الزمانى يوم « تحلاق اللمم » وهو يوم انتصاف بكر من تغلب فقد اشتجرت الأسنة ، واعتنقت الأبطال ، ونفذت السيوف الى أعماق القلوب ، وظهرت تغلب كالجذوة المضطرمة وبدأت بكر تتكشف وترتد ، وهنالك حسر الفتاتان البكريتان خماريهما ونفذتا بين صـــفوف قومهما وأخذتا تثيران بما تنشدان نفوسهم وتذكيان نار الحفيظة فيهم وكان مطلع قولهما :

وغــى وغــى وغــى وغــى   حــر الحـــرار والتظى [٨]
وملئت منـــــــــه الربى   يا حبـذا المحلقون بالضـــحى

وأقبلت من ورائهما كرمة بن ضـلع أم مالك بن زيد فارس بكر وواحدها فتغنت بما يحيل الجبان المستطار شهابا ثاقبا وسعيرا مستطيرا وكانت مما تغنت به قولها :

نحن بنـــات طـــارق [٩]   نمشى على النمـــارق [١٠]
مشى القطى البــــــارق   المســـك فى المفـــارق [١١]

---

(٨) حرحرار الشىء اشتد حـره والتظى : التهب فقد اشتد حرها والتهبت نارها .
(٩) طارق : كوكب من الكواكب وهو المعنى بقوله تعالى « والسماء والطارق » تقول نحن بنات المجد والسمو .
(١٠) النمارق : الوسائد واحدتها نمرقة تريد أنهن يطأن بأقدامهن مواطن الوجوه من الناس .
(١١) القطى : صغار القطا ومن دأب القطا اذا مشى تثاقـل حتى ضرب به المثل فقيل أذل من قطـاة والبارق : الحائر أو الفزع ــ والمفارق جمع مفرق وهو وسط الرأس .

والدر فى المخـــــانق ان تقبـلوا نعـــانق [١٢]
أو تدبروا نفـــــارق فراق غـــير وامــق [١٣]
عرس المولى طـــــالق والعـار منه لاحـق [١٤]

فلم يلبث القوم أن تدافعـوا وراءهن على أعدائهـم واقتحمـوا صفوفهم ، وأعملوا السيوف فى رؤوسهم وأنهلوا الأسنة من صدورهم فلم ينكشف الهول حتى كانت تغلب بين قتيل وأسير وشريد وطريد ولم يقتصر دور المرأة العربية على التحميس للحرب فقط بل عملت محاربة وقائدة ومن هؤلاء القائدات (١) رقاش ، كانت فى طيىء ، وكانت تغزو بقومها ، ويتيمنون برأيها وكانت كاهنة لها حزم وعزم — وقد أغارت طيىء على أياد بن نزار ، فظفرت بهم وغنمت وسبت ثم بعد ذلك حملت وتراخت عن الغزو فقال شاعرهم :

نبت أن رقاش بعد شـــماسها حملت وقد ولدت غـلاماً أكحـلا
فالله يحظيهـا ويرفع بضـــعها والله يلقحهـا كشـــافاً مقبـلا
كانت رقاش تقود جيشـا جحفلا فصبت وأحر بمن صبا أن يحبلا [١٥]

يقول الدكتور الحوفى معلقا على ذلك • ويظهر لى من حنق الشاعر عليها أنه كان يظنها قد انسلخت من أنوثتها أو انسلخت منها أنوثتها فلما حملت ووضـعت اسـتبان له أن القائدة الحازمة الأريبة مازالت أنثى تتزوج وتحمل وتلد فخيبت ظنه — ولعله سخط أيضا لأنه خشى ألا يكون فى رجـال القبيلة من يخلفها فى القيادة وبث الحماسـة ويمن الزعامة فيعجزون عن الغارة واكتساب الغنائم •

ولا ننسى قائدة أخرى من القائدات العربيات تلك هى أم قرفة

---

(١٢) المخانق جمع مخنقة : القلائد •
(١٣) الواسق : المحب •
(١٤) العرس : الزوجة ، والمولى : المدبر الفار انظر المراة العربية جـ ١ ص ٢٠ •

(١٥) جهرة الأمثال لأبى هلال ٣١٣ ومجمـع الامثال ٢٦٣/١ وراجع المراة فى **الشعر الجاهلى ص ٤٣٥** •

التى كانت تناوىء النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان قومها يأتمرون بأمرها ويترسمون خطاها ولو أسلمت لكان لها شأن أى شأن وقد ضرب المثل بعزتها فقالوا أمنع من أم قرفة وكان يعلق فى بيتها خمسون سيفا لخمسين رجلا كلهم لها محرم (١٦) ٠

وكانت تجاهر بعدائها للاسلام حتى لقد بعثت الى النبى صلى الله عليه وسلم أربعين رجلا من بطنها ليغزوه فى المدينة ولكن الله مكنه منها فهزمت أم قرفة وقتلت ، وغير هذين كثيرات من القائدات العربيات يضيق بهن صفحات هذه المقدمة — وقد نجحت المرأة فى كل المجالات فقد نجحت أما وزوجة وبنتا وأختا وكاتبة وناقدة لنشعر وروايته ٠

واذا عدت سمات الحسن ، وصفات الجمال فحسن المنطق أروعها وأبدعها وأملكها للنفس وآخذها بالقلوب ، لأن معالم الجمال تستمد روعتها من البدن وحده ، فأما جمال الكلام فوسط عدل بين الروح والبدن ٠

واذا عرفت المرأة فى مختلف أطوارها بالاكثار من فضول القول والارسال من حواشيه لتبلغ من نفوس جلسائها ، فان المرأة العربية قد بلغت ذلك وتجاوزته بما ملك أسلوبها من دقة وبراعة وسماحة رأى ، وحسن بيان ، ولعل ذلك خير ما مكن لها من نفوس الرجال ومهد من أسماعهم ، ووطأ من قلوبهم فلقد كانت المرأة العربية وما تكاد تسامى فى ارتياد شعاب القول ، وعجم أعواده ، وكشف فنونه وشئونه ودرك مواطن القوة والضعف فيه — فاغتمرت حومة البيان قائلة ناقدة فان نقدت فنقد القائل الحكيم ، أو قالت فقول القائد العليم ولشد ما أخذت على فحول مواطن الزلل فيما ابتدعوه وتأنقوا فيه ، ولها من دقة النقد ولطف المأخذ ونفاذ الادراك وحسن البديهة ما جعل لها فى حلبات الأدب الرأى القاطع ، والكلمة الفاصلة وقد حدثوا أن امرأ القيس وعلقمة الفحل تنازعا الشعر ، فقال علقمة لصاحبه لقد حكمت بينى وبينك امرأتك أم

---

(١٦) تاريخ الطبرى ٣/٨٤ ٠

جندب قال قد رضيت فقالت لهما • قولا شعرا على روى واحد وقافية واحدة تصفان فيه الخيل فقال امرؤ القيس قصيدة أولها (١٧) :

مواطن خليلى مرابى على أم جندب   لنقضى حاجات الفؤاد المعذب

وعارضها علقمة بمثلها ومطلعها : —

ذهبت من الهجران فى كل مذهب   ولم يك حقا كل هذا التجنب

وأنشدها فحكمت لعلقمة فقال لها زوجها بأى شىء غلبته قالت لأنك قلت :

فللسوط ألهوب وللساق درة   وللزجر منه دفع أخرج مهذب (١٨)

فجهدت فرسك بسوطك ، ومريته بساقك ، وأتعبته بجهدك وقال علقمة :

فولى على آثارهن بحاصب   وغيبة شؤبوب من الشد ملهب

فأدركهن ثانيا من عنانه   يمر كمر الرائح المتحلب (١٩)

فلم يضرب فرسه بسوط ، ولم يمره بساق ولم يتعبه بزجر ، فلم يكن لامرىء القيس من رد الا أنه طلقها وتلك آية العجز عن مقارعة الحجة بالحجة ، أما هى فقد خلفته على صاحبه (٢٠)

وحديث الخنساء بنت عمرو بن الشريد جد مشهور ذلك أن النابغة الذبيانى كان حكما يحتكم اليه الشعراء فى عكاظ فكان فيمن تقدم بين يديه الخنساء ، وحسان بن ثابت فلما أنشدته الخنساء قصيدتها التى تقول فيها :

وان صخرا لمولانا وسيدنا   وان صخرا اذا نشتو لنحار

وان صخر لتأتم الهداة به   كأنه علم فى رأسه نار

---

(١٧) المرأة العربية ١٧٢ .

(١٨) الألهوب : اجهاد الفرس فى عدوه حتى يثير الغبار ، والدرة شبيهة بالسوط والأخرج من الطيور المكاء ، والمهذب : المسرع فى طيرانه أو عدوه .

(١٩) الحاصب : الريح الشديدة ، وعيبة الماء مجاوزته السدود والشطوط ، والشوائب : الدفعة من المطر وتحلب المطر اذا سال .

(٢٠) الأغانى ج ٧ ص ١٢١ .

قال لها لولا أن أبا بصير (الأعشى) أنشدنى قبلك لقلت انك أشعر أهل الأرض ، فهاج ذلك جمرة الغضب فى صدر حسان وقال للنابغة أنا أشعر منك ومنها ومن أبيك قال النابغة بماذا فقال بقولى :

لنا الجفنات الغر يلمعن فى الضحى
وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

فيروون أن النابغة قال للخنساء خاطبيه يا خناس فقالت له أضعفت افتخارك وأنزرته فى ثمانية مواضع قال : وكيف ؟ قالت : قلت الجفنات والجفنات ما دون العشر ، ولو قلت البيض لكان اكثر اتساعا وقلت يلمعن واللمع شىء يأتى بعد شىء ولو قلت يشرقن لكان اكثر لان الاشراق أدوم من اللمعان وقلت بالضحى ولو قلت بالدجى لكان اكثر طراقا ، وقلت أسيافنا والأسياف ما دون العشرة ولو قلت سيوفنا لكان اكثر ، وقلت يقطرن ، ولو قلت يسلن لكان أكثر وقلت من نجدة ، والنجدات اكثر من نجدة وقلت دما والدماء اكثر من الدم فلم يحر حسان جوابا وانصرف عند ذلك مستحييا [٢١] .

وكانت عمرة الجمحية صاحبة وهب بن زمعة الجمحى امرأة جزلة يجتمع اليها الرجال للمحادثة وانشاد الشعر والأخبار ، وكان أبو دهبل لا يفارق مجلسها مع كل من يجتمع اليها وكان يحبها وتحبه فلما قيل لها ان امرهما ذاع احتجبت عن جلاسها وعن أبى دهبل فقال :

تطاول هذا الليل ما يتبلج　　وأعيت غواشى عبرتى ما تفرج
وبت كئيبا ما أنام كأنما　　خلال ضلوعى جمرة تتوهج
فطورا أمنى النفس من عمرة المنى　　وطورا اذا مالج بى الحزن أنشج
لقد قطع الواشون ما كان بيننا
ونحن الى أن يوصل الحبل أحوج[٢٢]

وكانت المرأة فى الاسلام تجيز الشعر كما أجازته سابقتها فى الجاهلية ومن ذلك أن عقيل بن علفة كان فى سفر ومعه ابناه علفة وجثامه وابنته الجرباء فقال عقيل :

---

(٢١) شرح شواهد المغنى ص ٩١ .
(٢٢) الأغانى ٦/١٥٠ .

قضت وطرا من دير سـعد وطالما
على عرض ناطحنـه بالجمـاجم
اذا هبطت أرضـا يموت غرابهـا
بهـا عطشـا اعطينهم بالخـزائم

ثم قال : أنفذ يا علفة فقال علفة :

فأصـبحن بالموماة يحمـان فتيـة
نشـاوى من الادلاج ميل العمائم
اذا عـلم غـادرنه بتنوفة
تذارعن الأيدى لآخـر طاسـم

ثم قال أنفذى يا جرباء فقالت :

كأن الكرى سـقاهم صرخدية
عقـارا تمشى فى المطا والقـوائم

فغضب عقيل وهاج وقال والله ماوصفتها هذه الصفة الا وقد شربتها ثم أحال عليها يضربها فصده عنها أخوها (٢٣) .

وكانت عائشة بنت طلحة أديبة ناقدة ينشدها الشعراء وقد أنشدها أبو عمرو قصـيدة قيس بن الحدادية التى مطلعها :

أجدك ان نعـم نأت أنت جازع   قد اقتربت لو أن ذلك نافـع

فاستحسنتها ، وكان بحضرتها جماعة من الشعراء فقالت لهم من قدر منكم أن يزيد فيها بيتا واحدا يشبهها ويدخل فى معناها فله حلتى هذه فلم يقدر أحد منهم على ذلك (٢٤) وقد أسمعها الغريض قصيدة للحارث ابن خالد فاستحسنتها وأمرت له بخمسـة آلاف درهم وأثواب ثم استزادته وأمرت له بخمسة آلاف أخرى وطلبت منه أن يغنيها فى شعر غيره ، فغناها لعمر بن ابى ربيعة فضحكت وأعطته خمسة آلاف أخرى .

وكانت سكينة بنت الحسين ذات صيت طائر فى حب للشعر وتذوقه

---

(٢٣) الأشرية لابن قتيبة ٥٩ مخطوط نقـلا عن المـرأة فى الشـعر الجاهلى د. الحوفى ص ٦٠٠ .

(٢٤) الأغانى ١٣/٧ .

ونقده حتى ليصح أن نقول بلغة العصر الحاضر انها كانت صاحبة ندوة أدبية يهفو اليها الشعراء ، فيسمعونها ويستمعون رأيها ونقدها ولها فى ذلك أخبار شتى منها أنها أنشدت قول الحارث بن خالد :

ففرغن من سبع وقد جهدت   أحشاؤهن موثل الخمر

فقالت حسن عندكم ما قال ؟ قالوا نعم فقالت : وما حسنه ؟ فوالله لو طافت الابل سبعا لجهدت أحشاؤها ، ولما أنشدها الغريض قصيدة عمر بن أبى ربيعة :

ألمم بزينب ان البين قد أفدا
قل الثواء لئن كان الرحيل غدا

طلبت أن يغنيها لها فلما غناها قالت : أحسنت والله وأحسن ابن ابى ربيعة ، وأمرت له بكل بيت الف درهم وقالت لو زادنا عمر لزدناك [٢٥] وقد زارها بالمدينة الفرزدق فقالت له من أشعر الناس قال : أنا قالت : كذبت أشعر منك جرير الذى يقول :

بنفسى من تجنبه عزيز
على ومن زيارته لمام
ومن أمسى وأصبح لا أراه
ويطرقنى اذا هجع النيام

فقال لها والله لو أذنت لى لأسمعتك أحسن منه ثم عاد اليها من الغد فسألته فأجاب كاليوم السابق فقالت جرير أشعر منك وذكرت له بعض شعره .

وكذلك نقدت كلثم بنت سعد المخزومية شعراً وكانت خرقاء مجبوبة ذى الرمة تحفظ شعره وتنقده ومن قولها فيه : — كان رقيق البشرة عذب المنطق ، حسن الوصف ، فقارب الرصف .

وروت قطام صاحبة ابن ملجم لكثير بعض شعره ونقدته وفضلت

---

(٢٥) الأغانى ٣٧٦/٢ والمرأة فى الشعر الجاهلى ٦٠١ .

عليه امرأ القيس ، أما الموالى فكانت لهن ثقافة خاصة تكفل غلاء ثمنهن ، وتدفع الأثرياء الى التنافس فى اقتنائهن فكان منهن المغنيات والأديبات الشاعرات اللاتى بلغن المنزلة العليا والمكانة السامية المرموقة ولم تكن مجالس الموانى والجوارى كلها شرب وغناء أو عبث وتهتك كما يظن بعض علماء الشعر ، بل اننا نجد أنهن كن على قدره ن الفهم والوعى والثقافة ما جعل أعيان الأدب وأرباب الشعر يهرعون اليهن لأغراض عدة ، فمنهم من يريد أن يسـأل عن بيت من الشـعر خانته ذاكرته به أو جهل صـاحبه أو مناسـبة قوله ومنهم من قال بيتا وأرتج عليه فلجأ لاحداهن علها تشفى غليله وتبل أوامه ، وتيسر عليه أمره بما اشتهرت به من مهارة فى الشعر وطلاقة فى القول ، ومنهم من جاء متحديا راغبا فى المشـاكسة والمقارعة وقد اشـتهر هؤلاء الجوارى والموالى باجازة الشعر ، وذلك أن يقال بيت من الشعر ويطلب الى الشاعر أن يتم القول ببيت آخر مكملا المعنى على نفس الوزن والقافية والروى وهى عملية مبارزة شعرية ، واختبار لسرعة البديهـة وتعبير عن الطلاقة وسرعة الخاطر وعمق الثقافة ، ومع علو منصـبهن وشرف مقامهن فى الشـعر واجازته الا أنهن كن يعاملن معاملة قاسية من المقينين فقد كانوا غلاظا قساة فى معاملتهن كما سيأتى فى حديثها بعد • وهذا هو الناطفى صاحب عنان الشاعرة وقد تميزت علاقته بها بالفجاج والمجوج لا يتورع عن اهانتها وضربها بالسوط ، روى ابو بكر بن حماد الباهلى حين حضر مع سيدها لمجالسـتها فخاطبها الناطفى قائلا هذا بكر شـاعر باهلة يريد مجالستك اليوم فقالت لا والله انى كسلانه فحمل عليها بالسوط ثم قال لى ادخل فدخلت ودمعها ينحدر كالجمان فى خدها فأنشدت قائلا :

هذى عنان أسـبلت دمعهـا ... كالدر اذ ينسـل من خيطـه

ثم قلت لها اجيزى فقالت :

فليت من يضربهـا ظالمـا ... تجف يمنـاه على سـوطه

وسيأتى الحديث عن عنان بافاضـة فى موضـعه •

وهذا يبين الحالة النفسـية التى كانت تحياها تلك الجوارى فى بيـوت أصـحابهن — ويدل على ما كان يلاقينه من قهر وذل وتحقير

بفقدهن احساسهن بأنهن مخلوقات يشعرن ، ويسلبن حقهن فى الحياة مقهورات بما اختاره لهن الزمان ، وعنان هذه شخصية متكاملة محنكة علمتها التجارب وصقلتها المعاناة فنراها تتلاعب بالألفاظ والمعانى بكل ثقة ومهـارة فتثبت فى ميـادين الحلبات وتخرج من كل حلبة فائزة منتصرة •

وقد كانت فضل شاعرة مجيدة مجيزة للشعر وبلغت منزلتها فى الأدب منزلة سامية وأصبحت مقصد الشـعراء والأدباء وأضفت على مجلسها جواً من البهجة والأنس بما تلقيه بين الشعراء من ملح أدبية ونكات شعرية وكانت لا تدع شاردة ولا واردة تمر دون علمها والاطلاع عليها وغيرهما من الجـوارى كثيرات ممن بلغن أوج الكمال وتسـنمن ذروة الشعر والأدب كما سيأتى بعد واذا فقد برعت المرأة فى صـدر الاسلام وفيما بعده واشتهرت بمعارف شتى حتى فاقت الرجال أحيانا وليس من المعقول أن تكون خـاملة جاهلة وتبرع هذه البراعة فجاءة وانما الطبيعى أن الاسلام قد استهل على العرب والنساء يسهمن فى المعرفة ، ويسرن كالرجال نحو الكمال فكان الاسلام مشجعا على حث الخطا وكان نورا الى الهدف الذى يأتمه الرجال والنساء جميعاً [٢٦] •

هذا وقد قسمت البحث الى مقدمة وثلاثة أبواب ، وكل باب مكون من فصول يتحدث كل فصل عن الأغراض التى طرقتها المرأة العربية •

فالباب الأول يتحدث عن شعر النسـاء فى العصر الجاهلى ، والباب الثانى يتحدث عن شعر النساء فى صـدر الاسـلام وبنى أميـة ، والباب الثالث يتحدث عن شعر النسـاء فى العصر العباسى والأندلسى ، والله أسـأل أن ينفع به الشادين والشاديات فى رياض الأدب •

والله من وراء القصـد ؟

دكتور محمد بدر معبدى

---

(٢٦) المرأة فى الشعر الجاهلى ٢ ٦٠ •

المقدمة

قدمنا فى القسم الأول من هذا الكتاب نساء أدبيات ضربن بسهم وافر فى الأدب وكن نمـاذج رفيعة للأدبيات الناثرات فى قوة البيـان وفصاحة اللسان •

ونقدم فى هذا القسم نماذج للشواعر فى الجاهلية والاسلام حتى عصر (المولدين والمحدثين) فقد كان للنساء الشواعر ميدان واسع حيث نبغن فى هذه الحقبة من الزمن وقدمن أمثلة تحتذى فى الشعر البليغ الرصين وربما فقن الرجال فى بعض الأغراض كالرثاء مثلا لما تميزت به المرأة من عاطفة صادقة ، ويظهر ذلك جليا واضحاً فى الرثاء والغزل كما سنلمس ذلك فى ثنايا الكتاب ، فهناك شـاعرات فاضت عواطفهن ، فدبجت أقلامهن شعراً ساحراً بديعاً وبخاصة فى الفنين السابقين فالرثاء والحزن ينبعث عن النفوس الحساسة • والغزل كذلك يصدر من العاطفة الجياشـة والقلب المفعم المرهف ، والرجل لا يستطيع أن ينافس المرأة فى هذين الميدانين فهما مجالها الطبيعى والمرأة فيهما اقوى احساساً ، وأشد عاطفة وشعوراً من الرجل وقد طرق الشواعر كل ابواب الشعر المشهورة من مدح ورثاء وغزل ووصـف وهجاء ، وحكمة ومثل ممن امتزن بجودة الشـعر ومنافسة فحول الشعراء كالخنسـاء ، وجنوب الهذلية ، وخرنق بنت هفان ، وقتيلة بنت الحارث الذى بلغ من قوة شعرها وتأثيرها أن شهد لها رسول الله ﷺ حينما سمع قصيدتها فى رثاء أخيها النضر بن الحارث وقال (ﷺ من شـدة تأثره بالقصـيدة) « لو أنى سـمعتها قبل قتله ما قتلته » ، ومن شاعرات الاسلام النابغات « ليلى الأخيلية » ومن أجود شعرها ما قالته فى رثاء توبة بن الحمير حين توفى فى احدى ساعات القتال وكان قد أحبها وبادلته نفس العاطفة وترى فى هذه القصـيدة البلاغة ناطقة والحكمة ماثلة كقولها :

لعمرى ما بالموت عـار على الفتى اذا لم تصـبه فى الحيـاة المعاير

ولا تقل عنها شهرة فى قول الشعر السيدة حميدة بنت النعمان فقد شبت فى بيت والدها فى بحبوحة من العيش كريمة النفس ذات شمم واباء معتزة بنفسها حتى انها لم تجد زوجاً مناسباً لها وماتت فى خلافة عبد الملك بن مروان . كما كانت الفارعة بنت طريف شاعرة مجيدة وتجلى شعرها الجزل فى رثائها لأخيها الوليد بن طريف الشارى الشيبانى بعد قتله ، فان الوليد رمى الخليفة هارون الرشيد بالجور والظلم وشق عليه عصا الطاعة ، وحين برز لقتال جند يزيد قائد الرشيد ارتجز : —

أنا الوليد بن طريف الشارى   قسورة لا يصطلى بنار
جوركم أخرجنى من دارى

ولكنه هزم وقتل على يد يزيد فرثته الفارعة قائلة :

أيا شجر الخابور مالك مورقاً
كأنك لم تجزع على ابن طريف
فتى لا يحب المال الا من التقى
ولا المال الا من لقاء سيوف

وما أبلغ قولها : —

حليف الندى ما عاش يرضى به الندى
فان مات لا يرضى الندى بحليف
فقدناك فقدان الربيع وليتنا
فديناك من فتياننا بألوف
عليك سلام الله وقفا فاننى
أرى الموت وقافا بكل شريف

ومنهن لبانة بنت ريطة زوج محمد الأمين ، وعلية المهدى التى اشتهرت بضرب المثل والحكمة فى شعرها كقولها :

انى كثرت عليه فى زيارته
فمل والشىء مجموج اذا كثرا

وقولها : —

اذا لم يكن فى الحب سخط ولا رضى
فاين حلاوات الرســـائل والكتب

وقولها : —

لا ينظـــر الله الى المبتـــلى
وانمـــا الناس مع العـــافيه

ثم أختها العباسة بنت المهدى فقد بلغت الغاية وأربت على النهاية فى الأدب والشعر ثم ولادة بنت المستكفى ، وخنساء المغرب حمدونة بنت زياد ، وغيرهن ممن حفلت بهن منتديات الشعر ، وكان فناؤهن ملعباً لجياد الأدب والشعر وقد اتسم شعرهن بالأصالة والرقة وسلاسة الاسلوب واحكـــام بنـــائه ، مما يتفق وذوقهن المرهف وطبعهن الرقيق ، وحياتهن الرافهة الناعمة وأخلاقهن المرهفة الوادعة ، والأدب أو الشعر كما قال علماء الادب « ابن بيئته ، وترجمان لصاحبه » •

وانى اذ اقدم كتابى هذا لأرجو أن يحقق الغرض الذى أقصده من ورائه ، وهو احياء المكتبة الادبية النســائية ، وبعثها من سباتها ، حتى تسد فراغاً هائلاً فى المكتبة العربية والاسلامية والله من وراء القصد ؟

د / محمد بدر معبدى

الباب الأول

فى العصر الجاهلى

الفصل الأول

الرثـــاء

عرف العرب الرثاء منذ العصر الجاهلى ، اذ كان النســـاء والرجال جميعاً يندبون الموتى ، كما كانوا يقفون على قبـــورهم مؤبنين لهم مثنين على خصـــالهم ، وقد يخلطون ذلك بالتفكير فى مأســـاة الحياة وبيان عجز الانسان وضعفه أمام الموت ، وأن ذلك مصير محتوم •

والصور التى بين أيدينا من هذا الرثاء صور راقية ، اذ نراها تعبر عن شعور عميق بالحزن والألم ، ومثل هذا التعبير تسبقه مراتب كثيرة من تعبيرات ساذجة عن الموت والموتى • ولكن هذه التعبيرات لا نجدها فى الشعر الجاهلى ، لأنه كان قد فارق المراحل الأولى ، وانتهى الى مرحلة فنية راقية •

ولا نرتاب فى أن الرثاء بدأ عند العرب كما بدأ عند كثير من الأمم الأخرى بصـــورة تشبه أن تكون ســـحرا حتى يطمئن الميت فى مرقده ، ولا تصيب روحه الأحياء من ورائه بشر ، ثم أخذ يفقد هذه الغاية مع الزمن ، ومازال حتى انتهى الى الصور الجاهلية من الافصاح عن احساس الناس العميق بالحزن قبل الموتى ، ومحاولة ذكراهم بتمجيدهم وبيان فضائلهم التى ماتت بموتهم ، مع التفكير فى القدر وقصور الناس أمامه ، وعبثه بهم ولعبه بحياتهم وموتهم •

وقد يكون من أقدم صور الرثاء عندهم ما نقش على قبور الأقيال والأذواء فى اليمن والأمراء فى الحيرة وعند الغساسنة فى الشام ، فعلى قبورهم كانوا يكتبون أســـماءهم وألقابهم تخليداً لذكـــراهم وتمجيداً لأعمالهم ، وكأن هذه هى الصورة الأولى للتأبين والاشادة بفضائل الميت ، على أنها صورة ساذجة • أما الصورة الجاهلية للتأبين فصورة معقدة ،

لا بما فيها من طول فحسب [١] ، بل بما فيها أيضاً من وسائل فنية كثيرة ، اذ نرى شعراء الرثاء يهتمون بقوالب رثائهم وصيغه وينوعونها تنويعاً واسعاً ، كما نجدهم يهتمون بصورهم واستعاراتهم وتشبيهاتهم ، مع العناية التامة بموسيقاهم وأوزانهم والملاءمة بين أنغامهم وشعور الحزن الذى يتعمق قلوبهم وأفئدتهم •

وكان يساهم فى هذا الفن النساء والرجال ، بل ربما كان للنساء الحظ الأوفر من القيام عليه ، اذ كن هن اللائى يقمن على ندب الميت أياماً ، بل ربما امتد قيامهن عليه سنوات ، وكن يحلقن شعورهن ويلطمن خدودهن بأيديهن وبالنعال والجلود وأحياناً • وقد يقمن بذلك فى مجالس القبيلة وعلى القبور وفى المواسم العظام كموسم عكاظ •

وطبيعى أن يتفوق النساء على الرجال فى ندب الموتى والنواح عليهم ، لأن المرأة أدق حسا وأرق شعورا ، وأيضا فان حياة الرجال فى العصر الجاهلى كانت تقوم على القتل وسفك الدماء والتفاخر بالشجاعة والبطولة ، فكانوا يأنفون أن يقعدوا للبكاء وذرف الدموع كالنساء ، بل ذهبوا يظهرون التجلد والصبر على من يموت منهم ، يقول عمرو بن معديكرب •

كم من أخ لى حازم   بوأته بيدى لحدا

أعرضت عن تذكاره   وخلقت يوم خلقت جلدا

على أن الرجال لم يكونوا جميعاً مثل ابن معد يكرب ، فوراءه كثيرون كانوا يندبون وينوحون ، وخاصة على أبنائهم وأفلاذ أكبادهم [١] •

وندب الموتى والنواح عليهم هو الصورة الأولى فى الرثاء الجاهلى • ونجد بجانب هذه الصورة صورة ثانية من تأبين الميت وعد فضائله والثناء على خصاله والاشادة بصفاته • وتكثر هذه الصورة فى تأبين الأصدقاء

---

(١) أنظر الرثاء د/ شوقى ضيف ، دار المعارف .

والأشراف ، بل نجدها فى رثاء الاخوة • وربما كان السبب فى ظهورها ثم شيوعها أن كثيراً ممن كانوا يرثونهم كانوا يقتلون فى حروبهم الدائرة ، فأرادوا أن يبينوا عظم المصيبة والخسارة بفقدهم • وترافق هاتين الصورتين صورة ثالثة من العزاء والصبر على نوائب الدهر وحدثانه ، فالدنيا دار فراق لا دار خلود وبقاء ، وكل نفس فيها ذائقة الموت ، فالموت حوض يرده الجميع ، وليس أمام الناس الا الاستسلام للأقدار وما يأتى به القضاء •

ولما انتهت دولة المناذرة فى الحيرة رثوها ، واستخرجوا منها العبر والعظات على أن كل ما فى الدنيا زائل وأن البكاء لا يرد هالكا هلك ولا ميتا مات • فالأقدار بيدها كنانتها وقوسها ، ولا تزال ترمى بالسهام الأفراد والجماعات والقبائل والدولات •

وهذه الصور الجاهلية للرثاء استمرت فى أدبنا العربى مع عصوره المختلفة ، تارة تنمو وتارة تتطور ، تحت تأثير نمو العقل العربى من جهة ، وتطور حياة العرب واختلاف الأحداث عليها من جهة ثانية ، ولكنها فى جملتها ترتد الى هذه الصور الجاهلية ، وتشتق منها كما يشتق الفرع من أصوله •

والرثاء والنواح وما يتصل بهما هو فن النساء الشعرى لأنهما يصدران عن الحزن والمرأة اكثر مطاوعة للأحزان وأشد انصياعاً لتأثير العواطف واستجابة لها وهى فى رثائها انما تترجم فى الواقع عن عواطفها وذوقها وأمانيها وآمالها وخيالاتها فتترجم كل هذا بما ترسمه من صور أدبية فنية — فيدرك القارىء أسلوبها الفنى من أشعارها ويعرف رغباتها وذوقها من اختيارها للمعانى التى توردها ، وبهذا يتسنى للباحث أن يتصورها من وراء هذه العناصر الفنية لأن الشعر فى ذاته انما هو ظاهرة نفسية فاذا صدر من قلب المرأة حمل الينا عواطفها ونشر أحاسيسها فصور لنا ذوقها وتفكيرها وما يكمن فى صدورها من أمان وآمال وما يجول فى مخيلتها من صور[٢] •

---

(٢) المرأة فى الشعر الجاهلى للدكتور على الهاشمى ا ص ٢٨٦ بغداد ١٩٦٠ • وانظر المرأة فى الشعر الجاهلى للدكتور الحوفى : ٦١٢ •

والرثاء هو المجال الفسيح الذى انطلقت فيه عواطف المرأة لأنه نوع من النوح والبكاء وان المرأة لتلجأ الى دموعها أول ما تلجأ اذا حزبها أمر أو كر بها القضـــاء وانها لتــلذ الحزن وتســـتديمه ، وتوالى البكاء وتستطيله ، وفاء وحسرة أو ضعفا ورقة ثم تنفس عن نفسها بمقطوعات تسكب فيها لوعتها وحرقتها •

ومن الأمور الفطرية والقواعد الطبعية ألا يكون لشواعر النساء مجال بين الأدباء فى غير هذا الميدان العاطفى (الرثاء) فغير معقول أن تشبب المرأة وتتغزل ، وغير معقول أن تمدح لتمتح ، أو تقدح لتربح وغير سائغ أن يتحرك لسانها بالبذاء ، أو جنانها بالسفاه ، فهى مخلوق رقيق ذو شكل أنيق ورسم دقيق يتأبى على الزمن أن ينداح فى غير مواطن الجمال ، أو ينســـاح فى بطاح الكمال والمفروض ألا يصدر منها الا كل جميل ، ولا يشم منها الا العبير المنعش والشذى الفواح ، ولهذا لا تعرف قيثارتهـــا الا ذلك النغم العاطفى الحزين ، على أليف مفقود ، أو حبيب قد لا يعود أو أخ فارق الوجود • واذا كان بعض العناصر النسائية قد تجاوزن هذا المجـــال الفطرى الى دارات أخرى فى الفلك الشـــعرى كالمديح والهجاء فى شعر ليلى الأخيلية التى هاضـــت النابغة الجعدى وهجته الهجـــاء المدمر واضـــطرت ان تمدح بعض الأمراء فى عصرها • لتنال بغيتها ، وتحقق صلتها فى عالم الوجود اذا كان الأمر كذلك ، ووجدت مخالفات هناك فان ذلك قد يكون من الندرى بمكان وليس دستورا عاديا بأية حال •

وفى شعر النساء معان غير الرثاء أو الوصف لأحزانهن فهناك وصف للأسيرات والسبايا ــ كما نجد فى شعرهن كذلك حضاً على الأخذ بالثأر ووصفا للمعوزات والأرامل كيف يصعب عليهن القيام بأود أولادهن ، وهذا عندما كانت الشواعر تتعرض للقتيل وتمتدح كرمه واحسانه كما صورت النساء أنفسهن عند اظهار رغباتهن فى طلب الحماية والكفاية من الرجل •

ولا ترى النساء فى رثائهن أنزل طبقة من أئمة الشعر ، لا بل تجدهن يستنبطن فى هذا الباب أساليب بديعة لم يتنبه لها الفحول ، لما طبعن

عليه من رقة الطباع وشدة الجزع فى المصائب وصدق الحس فيبرزن عواطفهن بشـــعر ســـلس وكلام لين قريب المأخذ يكاد يســـيل رقة وانسجاماً [٣] .

والخنساء أميرة هذا الفن (الرثاء) فهى من أقدر الشاعرات وصفاً وتعبيراً عن عميق أحزانها وهى الشاعرة الوحيدة التى ذكرها ابن سلام فى طبقاته فى الشعراء الجاهليين .

وقال الشريشى فى شرح المقـــامات الحريرية عنها ، أجمع علمـــاء الشعر أنه لم تك امرأة قبل الخنساء ولا بعدها أشعر منها [٤] ذلك لأن الخنساء وفقت الى الترجمة عن عميق أحزانها وبالغ تأثرها فى قصـــائد مشهورة وخاصة ما قالته فى اخيها صخر . وقد شهد لها النابغة الذبيانى بالسبق حينما تقدمت بين يديه وأنشـــدته بحضرة (حســـان بن ثابت) قولها : —

وان صـــخراً لتـــأتم الهـــداة به   وان صـــخرا اذا نشـــتو لنحار

أغـــر أبلج تأتـــم الهـــداة به   كأنه عـــلم فى رأســـــه نار

وقال لها كما قدمنا : لولا أن أبا بصـــير « الأعشى » أنشدنى قبلك لقلت انك أشعر من بالســـوق .

والبيتان الســـابقان من قصيدة طويلة ترثى بها أخاها صـــــخرا وأولها : —

قذى بعينـــك أم بالعـــين عـــوار
أم ذرفت اذ خلت من اهلهـــا الدار

تبكى خناس على صـــخر وحق لهـــا
اذ رابها الدهـــر ان الدهـــر ضرار

تبكى لصخر هى العبرى وقد ذرفت
ودونه من جـــديد الترب أســـــتار

---

(٣) مقدمة رياض الأدب فى مراثى شواعر العرب لويسى شيخو بيروت ١٨٩٧م .

(٤) طبقات ابن سلام ص ٤٨ راجع شرح المقامات جـ ٢ ص ١٥٢

لابد من مـوتة فى صرفهـا غـير
والدهر فى صرفه حـول وأطـوار

الى أن تقول مسـبغة الأوصـاف النبيلة والأخلاق الحميدة على أخيها صخر :

أغـر أبلج تأتـم الهـداة به كأنه عـلم فى رأسـه نار [٦]
جلد جميـل المحيـا كامل ورع وللحروب غداة الروع مسعار [٧]
حمـال ألوية هبـاط أودية شـهاد أندية للجيش جرار [٨]
لم تره جـارة يمشى لجارتهـا لريبـة حين يخلى بيته الجـار
وما تراه ومـا فى البيت يأكـله لكنه بارز بالصـحن مهمار [٩]

وفى هذه القصيدة تجيد الخنساء التعبير عما يجول فى نفسها من الحزن العميق على أخيها هذا الحزن الذى أسلمها الى الضنى ونال من نور عينيها وما أبدع تصويرها حينما ضربت لذلك مثلا بالناقة التى مات ولدها صغيراً فهى ما تزال تتذكره وتبكى عليه بكاء مراً وتنشج نشـيجاً محزنا وقد يعرض لهذه الناقة ما ينسيها هـذا البكاء حينا ولكنها تعـود فتذكر ولدها الذى مات فتعود الى البكاء من جديد : —

فما عجـول على بو تطيف به لها حنينان اصـغار واكبار [١٠]
ترتع ما رتعت حتى اذا ادكـرت فانمـا هى اقبـال وادبار [١١]
يوماً بأوجـد منى يوم فارقنى صخر وللدهر احلاء وامرار [١٢]

---

(٦) اغر : ابيض ، ابلج : طلق الوجه تأتم الهداة به : تقتدى الهداة به ، علم : جبل كناية عن شهرته الذائعة .
(٧) جلد : صبور ، المحيـا : الوجه ، الروع : الخوف (الحرب) مسعار : موقد أو مشعل اى يخوض الحروب بثبات وشدة .
(٨) حمال الوية : قائد يحمل الراية ، هباط ؤودية : ينزل الأودية ويختار الاماكن لقومه جرار : يقود جيوشا كثيرة .
(٩) مهمار : اى يصب طعامه فى اوعية المحتاجين ولا يجلس وحيدا يأكل طعامه بعيدا عن أعين الناس مخافة المشاركة .
(١٠) العجول (النـاقة التى يموت ولدها صغيرا ، البو : جلد ابن الناقة يحشى تبنا أوورقا ويوضع قريبا منها حتى تظن أنه حى فيدر لبنها ، حنينان : نوع من البكاء ، اصغار (صوت منخفض) اكبار : صوت مرتفع .
(١١) ادكرت : تذكرت ولدها الصغير ، اقبال وادبار ، تأتى وتروح كناية عن الحيرة .
(١٢) بأوجد : بأشد حزنا منى ، للدهر احلاء وامرار (ايام حلوة وايام مرة) .

وكذلك أجادت الخنساء تصوير (مصابها صخر) كما كان فى أيام الحياة — والرثاء ليس شيئا اكثر من المديح يخلعه على الميت • فكل صفة تصلح أن ترد فى المديح تصلح أن ترد فى الرثاء أيضاً • وقل ما كان الراثى يفرق بين الصفات التى كانت تجرى فى المديح وبين الصفات التى كانت تجرى فى الرثاء وهى السيادة ، وشرف النسب ، والشجاعة والكرم واذا نحن تأملنا الصفات التى تخلعها الخنساء على أخيها صخر فى تشبيهات وكنايات مختلفة لا نكاد نراها تخرج عن الصفات الاربع المذكورة (١٣) •

وتشعر بصدق العاطفة المتأججة حين تسمع قولها :

لا تخالى أنى لقيت رواحا — بعد صخر حتى أبين نواحا
من ضميرى بلوعة الحزن حتى — نكأ الحزن فى فؤادى فقاحا
لا تخالى أنى نسيت ولا بل — فؤادى ولا شربت القراحا
ذكر صخر اذا ذكرت نداء — عيل صبرى برزئه ثم باحا

---

(١٣) ارجع للقصيدة فى الأغانى جـ ١٣ : ص ١٣٢ : ١٣٣ (ساسى) واخبار صخر مبسوطة هناك ويحكى الاغانى سبب قتله فيقول : أكتسح صخر اموال بنى أسد وسبى نساءهم فأتاهم الصريخ فتبعوه فتلاحقوا بذات (الأثل) فاقتتلوا اقتتالا شديدا فطعن ربيعة بن ثور الأسدى صخرا فى جنبه وفات القوم فلم يقعص وجوى منهما ومرض قريبا من حول حتى مله أهله قال فسمع صخر امرأة وهى تسأل سلمى امرأة صخر كيف بعلك فقالت سلمى « لا حى يرجى ولا ميت فينعى لقينا منه الأمرين » وقيل أن التى قالت هذا (بديلة الأسدية) التى كان سباها من بنى أسد فاتخذها لنفسه فانشد هذا البيت

الا تلكم عرسى بديلة أوحشت
فراقى وملت مضجعى ومكانى

فلما طال عليه البلاء وقد نتأت قطعة مثل الكبد فى جنبه فى موضع الطعنة قالوا له لو قطعتها لرجوت أن تبرأ فقال شأنكم فأشفق عليه بعضهم فنهاهم فأبى وقال الموت أهون على مما أنا فيه فأحموا له شفرة ثم قطعوها من نفسه قال وسمع صخر أخته الخنساء تقول كيف كان صبره فقال صخر فى ذلك

اجارتنا ان الخطوب تنوب — على الناس كل المخطئين تصيب
فان تسالينى هل صبرت فاننى — صبور على ريب الزمان صليب
كأنى وقد أدنوا الى شفارهم — من الصبر دامى الصفحتين ركوب
اجارتنا لست الغداة بظاعن — ولكن مقيم ما أقام عسيب

عن أبى عبيدة : عسيب جبل بأرض سلم الى جنب المدينة فقبره هناك معلم وقال أبو عبيدة فمات فدفن هناك فقبره قريب من عسيب أ هـ ١٣١ جـ ١٣ الأغانى ط ساسى • •

انها تصـــور جرحاً عميقا نكأ فى قلبهـــا حتى تقيح فما أعنف هول المأساة وما أقساها على قلبها الجريح الموجع .

وقد تفننت الخنساء فى وصف أحزانها على أخويها صخر ومعاوية ، وأظهرت قدرة فائقة على تصوير عواطفها النفسية العميقة حتى استطاعت بصدق عاطفتها ورقة شـــعورها أن تجعل الســـامع يشركها فى أحزانها ويشاطرها أوجاعها وآلامها فيتألم لألمها ويحزن لحزنها فهى أبعد غورا فيما تصل اليه من التعبير عن الشعور النفسى ، وهى تمتاز كذلك بالقدرة على الاطالة فى وصف خلجات نفســـها فتظهر ما فيها من المعانى الدقيقة وتصور آثارها فى عقلها وجسمها .

قال « كرنكوف » ما نصه :

« ومن العسير أن نقطع برأى فيما اذا كانت الخنساء قد أضافت سمات الى المرثية العربية أو لم تضف ، ولو أننا نكاد نقطع بأن قصائدها ألهمت عدداً كبيراً من شعراء المراثى المتأخرين ومنهم ابنتها عمرة . أما اذا وازنا بين شعرها وشعر غيرها من أصحاب المراثى من معاصريها — وحسبى أن أذكر منهم متمماً وأبا ذؤيب — فقد حق لنا أن نعترف بأن قصـــائدها يعوزها ما عنـــدهم من الجمال الشـــعرى . ولكنا نجد فيها على قصرها بالنسبة لقصائدهم حزناً أبلغ صدقاً وان كنـــا نجـــد فيها تكراراً لنفس الأفكار والألفاظ يبعث السآمة فى النفس »[١٣] .

والتقط الدارسون الشرقيون هذه الملاحظ النقدية الموجزة ، فرددوها هنا فى مصر وهناك فى لبنان . لكن بعد أن أوسعوها شداً ومطاً !

فالسيد فؤاد أفرام البستانى يقول ما نصه :

« فهى شـــاعرة أكثر منها ناظمة ، وهو ما يروقنـــا فيها .. وان كان للبعض ممن عاصرها أو تأخر عنهـــا من الثائيين . قـــوة ســـبك وجمال شاعرية لا نراهما فى شعر الخنساء ... أما ما أدخلته من صفات جديدة فى المرثية ، فمن الصعب أن نحدده ... ولكن ما لا شك فيه أن من تبعها من شعراء الرثاء وشواعره اغترفوا جميعهم من بحرها الفياض بفيض العاطفة البشرية »[١٤] .

---

(١٣) « دائرة المعارف الاسلامية » مادة الخنساء .
(١٤) « الروائع » العدد ٢٨ المقدمة .

ولم يشر البستانى الى (دائرة المعارف الاسلامية) بكلمة ، مع أن كلامه هنا كما ترى ، ترديد لنص عبارة « كرنكوف » فى الدائرة ، مع شىء من التقديم والتأخير ، وقدر من هلهلة الفكرة والغلو •

والمعلم « بطرس البستانى » يردد كذلك ما لمحه « كرنكوف » من قصر قصائدها بصدق تفجعها وحزنها ، وحصر معانيها فى صور محدودة المعانى والتعابير على أنه أضاف الى ذلك كله : غلوها المسرف ، وضعف مخيلتها ، وخلو معانيها من المعانى الحكمية السامية • قال :

« سائر ديوانها يجرى على هذا النمط من البكاء والتفجع والمغالاة فى مدح أخيها ، ولعل الغلو أظهر خاصة فى الخنساء ••• ورثاؤها عاطفى بحت • لا يشوبه تكلف ، ولا يرتفع بها الفكر الى المعانى الحكمية السامية التى نجدها فى رثاء لبيد لأخيه ••• وشعرها خال من القصائد الطوال التى عرفناها فى الشعراء الجاهليين ، فأطول قصيدة لها : ■ قذى بعينك أم بالعين عوار ■ لا تتجاوز الخمسة والثلاثين بيتاً • وأكثر شعرها أبيات ومقطعات ، ولعل ذلك ناتج بعضه عن ضعف المخيلة فى المرأة ، وبعضه الآخر عن وحدة الموضوع ، فهى لم تطرق غير الرثاء بما فيه من تفجع ومدح • همها الرثاء على صخر واطراء شمائله ، مما جعل أفكارها محصورة فى صور محدودة المعانى والتعابير »[١٥] •

و « الدكتور الحوفى » يردد هذه الأحكام النقدية بعينها ، مع اطلاقها على مراثى النساء بعامة • قال :[١٦]

« ويمتاز رثاؤهن بندرة الحكمة فيه • ولم أجد فى مراثيهن من الحكمة الا قليلا جداً » كما « تمتاز قصائدهن بوحدة الموضوع » « وقصائدهن مقطعات فليست لاحداهن مطولة ، وأطول قصائد الخنساء — وهى زعيمتهن فى طول القصائد — أبياتها خمسة وثلاثون ، على حين تكثر المطولات فى شعر الرجال • وربما كان مبعث هذا القصر تعاطى

---

(١٥) « أدباء العرب » ١٩٠ الطبعة الخامسة ، بيروت .

(١٦) « المرأة فى الشعر الجاهلى » : صفحات ٤٩٣ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨ .

الموضوع الواحـد ، وأن دموعهن وصياحهن وأناتهن ينفس عن حزنهن تنفيساً أقوى وأبرز من الشعر » •

والدكتور فى هذا كله لا يخرج عن رأى المعلم بطرس البستانى ، وان توسع فى تعميم هذه السمات العامة لشعر الاناث ، والتمس لها أسباباً من طبيعة الأنثى وبيئة المجتمع العربى •

* * *

وهذه المآخذ النقدية موضع نظر :

فالقول بأن مراثى الخنساء — والنساء العامة — خالية أو تكاد من شعر الحكمة ، لم يؤيد باستقراء دقيق ولا باحصاء رقمى ، فالمعلم بطرس البستانى اكتفى بالاشارة الى لبيد ، والدكتور الحوفى ، نقل أربعة أبيـات لأبى ذؤيب ، وبيتاً لكل من : أبى زبيد والغنـوى فى رثاء اخوتهم ، مقابلة بأبيات سبعة لثـلاث شواعر ، فى رثـاء اخوتهن[١٧] ، ومنها بيت واحد للخنساء •

ولا أرد عليه هنا بأن ما استشهد به من أبيات الحكمة فى المراثى ، لا يسند رأيه بحال ، كما لا أرد عليه بعرض حكم الخنساء ، وليست قليلة ، بل يكفينى أن أقول ان « الحكمة » ليسـت شرطاً فى الشـاعرية بعامة ، ولا هى من مقومات المرثية بخاصة • وقد ضاق شيوخ النقاد — فيما ذكر ابن خلدون — بشـعر المتنبى وأبى العـلاء وابن خفـاجة لازدحامه بالمعانى والحكم ، كما ضاق النقاد من قبل بأبى تمام لمثل هذا

---

(١٧) مما يلفت نظر الدارس هنا ، ان مراثى متمم ، ولبيد ، وأبى ذؤيب ، فى الأخوة وليس فى أب او ام او زوجة او ولد ، وكذلك الشأن فى اكثر مراثى الشواعر التى جمعت فى « انيس الخنساء » وانها لظاهرة تحتاج الى من يفرغ لها فى بحث متخصص ، يستقرىء شعر الرثاء ليحصى نصيب الاخوة فيه ، ثم يستبين فيها ما يفسر هذه الظـاهرة على ضوء ما نعرف من بيئة القوم ومجتمع القبيلة •

أو ما يشبهه[١٨] وفى عصرنا هـذا سمعنا من يأخـذ على « شوقى » أنه اذا رثا ترك الميت وتحدث عن الموت ، وأرانا هنـا أمام نقاد يعيبون على الخنساء افتقار مراثيها الى الحكم والتحدث عن الميت • لا عن الموت !

ولم نسمع عن علماء الشعر المتقدمين أنهم أدخلوا الحكمة فى وزن المرثية ، بل الذى قاله المبرد ، وقدامة بن جعفر : ان أجود الرثاء ما جمع الى التفجع على المرثى تعداد مناقبه ومدح مآثره •

وطول القصيدة ، وان دخل فى حسـاب كثير من النقاد ، وأولهم « ابن سلام » الذى وضع الكثرة وطول النفس موضع التقدير فى وزن الشعراء[١٩] الا أننا نراهم — فى الغالب الأعم — يقدمون شـاعراً على آخر ببيت واحد قاله ، بل جاوزوا ذلك فحكموا بأن فلاناً أشعر الناس لأنه قال كذا ، وهذا شاهد على أنهم لم يروا فى الحكمة مقياس الجودة ، وانما قاسوا « بالكيف » •

والشـاعرات اللاتى برزن فى وصف أحزانهن كثيرات الآ أنهن فى الغالب لا يبلغن ما بلغته الخنساء كما أنهن لا يطلن فى وصف مشاعرهن اطالتها ولعـل ممن برزن ، وأشـهرهن فى العصر الجاهلى صـفية بنت عمرو الباهلية التى بكت اخاها طويلا ، وعاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل وناجية بنت ضمضم وقـد رثت أخـاها هرما ، وأم تأبط شراً ووجيهة بنت أوس الضبية ، وأم قيس الضبية وهند بنت عتبه وغيرهن •

(*) « رسالة الغفران » ص ٣١٦ ط ثانية ذخائر ، وانظر « الموازنة » للآمدى .

وانظر طبقات الشعراء ، فى مواضع متفرقة .

(**) شرح ديوان الحماسة جـ ٢ ص ٩١٤ .

وانظر شرح ديوان الحماسة جـ ٤ ص ١٠٥٩ .

سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٥٣٧ .

تقول **صفية الباهلية** (*) : —

كنـــا كغصـــنين فى جرثومة ســمقا
حينا بأحسن ما تســمو له الشــجر

حتى اذا قيــل قد طــالت فروعهما
فطــاب فيئاهمــا واســتنظر الثمر

أخنى على واحــد ريب الزمان وما
يبقى الزمـــان على شىء ومــا يذر

كنــا كأنجم ليــل بينهــا قمـــر
يجــلو الدجى فهوى من بيننــا القمر

فهى تتحدث عن هذه الشجرة الوارفة ذات الأغصان الفينانة التى حطمتها الأيام وفرقت أغصـــانها المحن تقول كنا كفننين خرجا من أصـــل

(*) شرح ديوان الحماسة جـ ٢ ص ٩١٤ .

(**) شرح ديوان الحماسة جـ ١٤٠٦٤ الحماسة للمرزوقى جـ ٤ .

(**أ) ١٠٥٩ جـ ٤ .

(**ب) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٥٣٧ .

(*) هى احدى الأعرابيات وذكر ابن عبد ربه فى العقد جـ ٣ ص ٢٧٧ ان الأبيـــات رثاء لزوجها وذلك فى باب من رثت زوجها وقـــال ابن قتيبة فى عيون الأخبـــار جـ ٣ ص ٦٧ انها رثاء لأختها .

وقال الامام التبريزى تعليقا على الترجمة (صفية الباهلية) « يقال ناقة صفى اى غزيرة اللبن قـــال » : —

عقر الصفى فما اشتوى من لحمها   فلذا ومثل لحومهـــا لا يشتوى

وفـــلان صفى فـــلان وصـــفوته وفـــلانة صفى فـــلان وصفيتـــه ويقال رجل بأهل اذا كان مترددا بلا عمل كالراعى بلا عصا قال : —

* كالآبق العريان يدعو باهلا * ومنه الناقة الباهل التى ليست بمصرورة وكذلك المراة الباهـــل فأما قولهم فى التسمية (باهلة بن أعصر) فهو من قولهم بهله الله أى لعنه وعليه بهلة الله اى لعنته وهذا مما تدخله الهاء على المعتاد من تغيير الاعلام راجع شرح الحماسة للتبريزى جـ ٣ ص ٦ .

واحد فنميا وطالا واستكملا زمانا وبقيا يزدادان على أحسن ما تزداد له الأشجار حتى اذا فرعا وآتت أغصانهما وبرعا وكثر ورقهما واستطيب ظلهما وصار ينتظر ثمرهما وقف الأمر بهما دون الغاية المرجوة فيهما :

أخنى على واحدى ريب الزمان وما

يبقى الزمـــان على شيء ومـــا يذر

لما بلغ الأمر بنا ذلك المبلغ أناخ على أحدنا حدثان الزمان وريب المنون ، والزمان هذا دأبه وديدنه لا يســـلم عليه شيء بل يرتجع كمـــا يعطى ويسلب كما يهب وما أروع هذه التشبيهات التى ضمنتها الشاعرة النص فقد شبهت نفسها وصاحبها بغصنين وفى الثانى شبهت العشيرة كلها والمتوفى فيها بنجوم ليل أحدقت بقمر استضاء ظلام الليل بنوره ، فسقط ذلك القمر من وسطها فعاد الليل ظلاماً دامساً كما كان ومما قالته **جنوب** [١٨] أخت ذى الكلب النهدى ترثيه حين قتله بنو كاهل : —

ســـألت بعمرو أخى صـــــحبه	فأفظعنى حين ردوا السؤالا [١٩]
فقـــــالوا أتيح له نائمـــــــاً	أغر الســـلاح عليه أجـــالا [٢٠]
أتيـــــح له نمـــــرا أجبـــــل	فنـــالا لعمـــرك منه ونالا [٢١]
فأقســـم يا عمرو لو نبهـــــاك	اذن نبهـــا منـــك داءً عضـــالا
اذن نبهـــــا ليث عريســـــــة	مبيداً مفيتا نفوســــــاً ومالا [٢٢]
اذن نبهـــــا غـــير رعـــــديدة	ولا طائشا دهشاً حين صالا [٢٣]

(١٨) هى جنوب بنت عجـــلان الهذلية . قالت هذه القصيدة ترثى أخاها وذلك أن عمرا كان يغـــزو (فهما) فيصيب منهم فوضعوا له رصدا على المـــاء فأخذوه وقتلوه . اعـــلام النساء ج ١ ص ٢١٨ .

(١٩) بعمرو أى عن عمرو فالباء بمعنى عن على حد قوله تعـــالى فاسأل به خبيرا ، افظعنى الشيء : اشتدت شناعته وجاوز المقدار .

(٢٠) اغر السلاح : ابيض السلاح ، اجـــال : طـــاف ومر وتحرك

(٢١) نمرا مثنى نمر وهو الحيوان المفترس أو تعنى رجلين من الرجال الاقوياء « واجبل » « كجبال واجبال » جمع جبل ونالا منه : اصابا فقتلا .

(٢٢) العريسة : مأوى الأسد ودار اقامته ، مبيـــدا مفيتا : مذهبا من اباد وافات أى اذهب .

(٢٣) الرعديدة : الجبان ، والطائش اسم فاعل من الطيش ، حين صالا : حين زحفا .

همـــا مع تصرف ريب المنـــون ... من الدهر ركنـــا شـــديداً أمالا
وقـــالوا قتلنـــاه فى غـارة ... بآية أن قد ورثنـــا النبـــالا
فهلا اذن قيـل ريب المنـــون ... فقد كان فذا وكنتم رجالا [٢٤]
وقد علمت (فهم) عند اللقـاء ... بأنهم لك كانوا .. نفـالا [٢٥]
كأنهـــم لم يحســـوا به ... فيخلوا نســاءهم والحجالا [٢٦]
ولم ينزلوا بمحـول السـنين ... به فيكـونوا عليه ، عيـالا [٢٧]
وقد عـلم الضـيف والمرملون ... اذا اغبر افق وهبت شمالا [٢٨]
وخلت عن اولادها المرضـعات ... ولـــم ترعين لمزن بلالا [٢٩]
بأنك كنت الربيـــع المغيث ... لمن يعتفيك وكنت الثمـالا [٣٠]
وخرق تجـاوزت مجهـــولة ... بوجناء حرف تشكى الكلالا [٣١]
فكنت النهـار به شـمسـه ... وكنت دجى الليل فيه هلالا [٣٢]

فصورت جنوب أخاها تصويراً رائعاً وأسبغت عليه صفات الشجاعة والاقدام وانه بطل لا نظير له وأن بنى (فهم) كانوا دائماً غنائم وأنفالا له اذ كان يسـوقهم سـوق النعام وأنهم كانوا يفزعون منه وترتعـد

---

(٢٤) ريب المنون : اى انه مات قضـاء وقدرا ، والمنون : الموت ، فذا : وحيدا .

(٢٥) فهم : المراد بها قبيلة فهم ، نفالا : غنائما .

(٢٦) يحسوا مضـارع حسست بمعنى ايقنت ، والحجـال جمـع حجلة وهى شبه قبة تضرب فوق موضع يزين بالثياب والستور للعروس

(٢٧) المحول : الجدب والشدة .

(٢٨) والمرملون جمع مرمل وهو الذى نفذ زاده ، الافق ما ظهر من نواحى الفلك ، والشمال بفتح الراء وكسرها الريح التى تهب ما بين مطلع الشمس وبنـات نعش .

(٢٩) وخلت الشىء وعنـه كأخلت منه وعنـه ، المزن : جمع مزنة وهى السحابة البيضـاء ، والبلال : المطر .

(٣٠) الربيع : المطر ، يعتفيك : يطلب فضلك .

(٣١) الخرق : كالخرقاء : القفر والأرض الواسعة تنخرق فيهـا الرياح والوجنـاء : النـاقة الشديدة القوية والحرف : الناقة الضـامرة والكلال : التعب والاعيـاء .

(٣٢) دجى : جمع دجية وهى الظلمة وهلالا : اى قمرا .

فرائصهم ، وتصطك أسنانهم عندما يحسون به أو يسمعون صوته من بعيد وسرعان ما يبتعدون بنسائهم وربات بيوتهم عن طريقه خوفاً من ان يقعن فى يده أسيرات ثم تذكرهم بأنه طالما مد لهم يد الاحسان أيام الجدب والأزمات الاقتصادية وبأن الأرامل والضـيفان يعرفون قيمته ويقدرون مكانته لأنه كان موئلهم فى الخطوب وثمالهم فى الكروب [٣٣] • فصورت اخاها ربيعا وغيثا يروى عند الحاجة والمحن حتى فى اشد أيام ضيقهم فكيف به اذا حين السعة والخير وهل هناك صورة خير من هذه الصورة التى تسحر لب المرأة ، ربيع وخيرات عميمة فى كل وقت وحين فقد وصفته فى الأبيات الأخيرة بالمخاطرة فى المفاوز المخوفة وسبهته وهو يسير فيها بالشـمس نهاراً والقمر ليلا ثم وصـفته بأنه يرد الحروب ويسد الثغور وانه يقهر الخصوم الشـداد كما ذكرت فيـه القدرة على الحصول على المال وقوة الجانب والكرم الواسـع فهذه الصـفات كلها كانت المرأة فى العصر الجاهلى ترغب فيها لأنها تؤمن لها الحماية والكفاية وهى من الأمور التى تنشدها فى الرجل الجاهلى •

وقالت جنوب بنت عجلان أيضاً : —

كل امرىء بطـوال العيش مكذوب
وكل من غـالب الأيام مغـلوب [٣٤]

وكل من حج بيت الله من رجـل
مود فمدركه الشـبان والشـيب

وكل حى وان طالت سـلامتهم
يوماً طريقهـم فى الشر دعبوب [٣٥]

---

(٣٣) راجع مختارات الدكتور عبد السلام ٤٣٢ •

(٣٤) القصيدة فى « ديـوان الهذليين » ٥٧٨ ، وبعض أبياتهـا فى « الأغـانى » : ٣٩/٢٢ وقولهـا « مكذوب » أى يكذب بأن ينـال طول العيش ، تكذبه نفسه بالأمانى •

(٣٥) طريق دعبوب : مسلوك موطود مذلل ، دعبته الابل وركبته ووطئته •

بينـــا الفتى ناعــم راض بعيشـــته
سيق له من نوادى الشر شؤبوب [٣٦]

يلـــــوى به كل عام ليـــــة قصراً
فالمنســـمان معـــاً دام ومنكوب [٣٧]

أبلـــغ بنى كاهـــــل عنى مغلغـــلة
والقوم من دونهم سعيا ومركوب [٣٨]

والقـــوم من دونهم أين ومســـغبة
وذات ريد بها رضع وأســـلوب [٣٩]

أبلـــغ هذيلا وأبلـــغ من يبلغهـــــا
عنى حديثـــاً وبعض القـــول تكذيب

بأن ذا الكلب عمراً خيرهـــم حســـباً
ببطن شريان يعـــوى عنـــده الذيب

الطـــاعن الطعنة النجـــلاء يتبعهـــا
مثعنجر من دماء الجوف أثعوب [٤٠]

والتـــارك القرن مصـــفراً أناملـــه
كأنه من نقيع الجـــوف مخضـــوب

---

(٣٦) نوادى الشر : أوائله ، وشؤبوب : سحابة ، وانما ضربتـــه مثلا ، أى : نفحة من شر وبلاء .

(٣٧) قصر : ارادت قصرا بتســـكين الصـــاد ، اى : تقصر الأيام خطوه ، فكانه بعير مقيـــد ، والمنسمان : يعنى رجليـــه . دام : يدمى ، ومنكوب : أصابته نكبة : ضربته مثلا من البعير ، لأن البعير اذا كبر صار هكذا .

(٣٨) بنو كاهل : من هذيل ، ومغلغلة : يتغلغل بها اليهم ، وسعيا : ماشيا ، ومركوب : راكب .

(٣٩) الأين : الاعياء ، والمسغبة : الجوع ، وذات ريد : تريد الجبل ، فجعلته هضبة شامخة لها حروف نادرة ، والرضع : شجر ، وصغار النحل ، والأسلوب : أرادت شجر السلب الذى يكون فيه الليف الأبيض ، الواحدة : ســـلبة .

(٤٠) نجلاء : واسعة ، مثعنجر : سائل ينصب ، واثعوب : ينثعب . اى يسيل .

تمشى النســـور اليه وهى لاهيـــة
مشى العذارى عليهن الجلابيب [٤١]

المخرج الكاعب الحســـناء مذعنـــة
فى السبى ينفح من أردانها الطيب[٤٢]

فلن تروا مثـــل عمرو ما خطت قـــدم
وما اســـتحنت الى أوطانها النيب

وقالت أيضاً :

يا ليت عمـــراً وما ليت بنافعـــة
لم يغز فهمـــاً ولم يهبط بواديها [٤٣]

شـــبت هذيـــل وفهم بينهـــا ارة
ما ان تبوخ وما يرتد صـــاليها [٤٤]

ولا ننسى فى هذا الميـــدان الشـــاعرة الرقيقـــة **ام تابط شراً** حيث تقول : ـــ*

طـــاف يبغى نجـــوة	من هـــلاك فهـــلك
ليت شـــعرى ضـــلة	أى شىء قتـــــلك
أمريض لم تعـــــد	أم عـــدو ختـــلك
كل شىء قاتـــــل	حين تلقى أجـــــاك
والمنـــايا رصـــد	للفتى حيث ســـلك
أى شىء حســـن	لفتى لـــم يك لك
ســـأعزى النفس اذ	لم تجب من ســـألك

(٤١) لاهية : آمنـــة لا يذعرها شىء .

(٤٢) اردانها : اكمامها ، ومذعنة : مطيعـــة ، والكاعب : التى قد كعب ثدبها وتفلك .

(٤٣) شرح « اشعار الهذليين » : ٥٨٢ .

(٤٤) الارة : موقد النار ، تريد نارا ، وارادت بالارة الحـــرب ، واصل الارة حفرة يدقد فيها . ما تبوخ : ما تسكن ، وما يرتد صاليها ، اى : ما ينزع عنهـــا .

(*) اشرح ديوان الحماسة للمرزوقى ج ٢ ص ٩١٤ .

طـــالما قد نئت فى عن جوابى شـــغلك
ان أمـــرا فادحـــاً غـــير كـــد أمـــلك

فهى تتحدث عن مصابها فى حسرة ولوعة ، وأظهرت قدرة فائقة على تصوير عواطفها فى أبيات سهلة سلسلة سارت مسرى المثل والحكمة ، وتصـــوره وكأنه قد اســـتشعر خوفاً من الموت فأخذ يتنقـــل فى البلاد والبقاع ، ويتطلب موضعاً يبعده عن الآفات ، فبقى يتردد فى ذلك ويتحير فاذا الهـــلاك قد فاجأه من حيث لا يحتســـب ولا يرتقب ، كما تصـــور الشاعرة ضلالها وعدم علمها بسبب هلاكه فتوفق غاية التوفيق .

ليت شـــعرى ضـــلة أى شىء قتـــــلك ! ؟

ثم تستفهم اســـتفهام الموجعة الثكلى ، والحائرة الوالهة فتقول « أمريض كنت فى غربة ووطن وحشة فمت حتف أنفك ، لا يعودك مشفق ولا يتفقدك ممرض أو اغتالك عدو فتوصل الى الغيلة فى بابك باعمال الختل والحيلة ثم استرسلت الشاعرة الحكيمة تخفف عن مصابها فى بيت حكيم فتتحدث عن استواء أسباب الموت فى الأخذ والظفر اذا دنا الأجل ، وأن كل سبب ينوب مناب الآخر (٤٥) اذا انتهت المدة وهو يذكرنى بقول القائل :

ومن لم يمت بالســـيف مات بغـــيره
تنوعت الأســـــباب والموت واحـــد

ثم تسبغ الشاعرة على مصابها صفات الرئاسة فكأنه لا يستحسن من الفتيان شيئا خلقاً ولا خلقاً الا وقد حصـــل له واجتمع فيه ثم أخذت تعزى نفسها وتسليها ، حيث نال المفقود آماله واحلامه من الدنيا وساعدته

---

(٤٥) راجع المراة فى العصر الجاهلى ٢٩٢ وليس صحيحا انها تنشد الحماية فى الرجل الجاهلى فقط بل المراة من طبيعتها انها تنشد الحماية فى الرجـــل مطلقا جاهليا أو غيره . د/ محمد بدر .

(*) ورجح التبريزى ان الشعر لأم السليك بن السلكه وفى العقد الفريد ٣ : ٢٦١ خرج اعرابى هاربا من الطاعون فبينما هو ســـائر اذ لدغته حية فمات فقـــال أبوه يرثيه وانا أرجح هـــذا الراى لأن معـــانى القصيدة تشير اليه .

أيامه وحالاته وأنه كان يتحصل له المباغى بلا كد لاقبال الدنيا عليه وفى ذلك بعض التسلى للجازعين والمتوجعين لفنائه (٤٦) .

وتقول **فاطمة بنت الأحجم الخزاعية** : (*)

كان والدها الأحجم — ابن دندنة — ويقال « الأجحم أيضا » أحد سادات العرب وزوجته هى خالدة بنت هاشم بن عبد مناف :

يا عين بكى عند كل صباح	جودى بأربعة على الجراح
قد كنت لى جبلا ألوذ بظله	فتركتنى أضحى بأجرد ضاح
قد كنت ذات حمية ما عشت لى	أمشى البراز وكنت انت جناحى
فاليوم أخضع للذليل وأتقى	منه وأدفع ظالمى — بالراح
واذا دعت قمرية شجنا لها	يوماً على فنن دعوت صباحى
وأغض من بصرى وأعلم أنه	قد بان حد فوارسى ورماحى

تنادى عينها — فى حرقة ولوعة — ان تفيض بالدمع الهتون على مصابها عند كل صباح اذ ان هذا الوقت يذكر الشاعرة الحزينة بوقت نكايته فى الاعداء وشن الغارات على المنابذين وأرادت بالأربعة قبائل الرأس وكأنها تريد ان تجود بدمعها كله ولا تدخر منه شيئا ثم تسترسل فى بكائها على مصابها فتقول « كنت لى جبلا عزآوى اليه فى الشدائد ، وأعول على حسن دفاعك فى النوائب ، واستكن بظلك وأتحصن بتمنعك فغادرتنى معرضة للآفات ، والحوادث والنكبات لا معقل لى عندما يدهم ولا ملاذ عندما يهجم . ثم تخاطبه حزينة متوجعة والهة : « كنت فى حياتك آنف مما أسام من الضيم فأتسخطه ، وتتسع المقدرة لدفعه والاباء منه والآن صار بدل ذلك السخط الرضا وبازاء ذلك

---

(٤٦) راجع شرح الحماسة لأبى تمام المرزوقى — لجنة التأليف جـ ٢ : ص ٩١٦ .

(*) وقال السكرى الشعر لليلى بنت يزيد بن الصعق ترثى ابنها قيس بن زياد بن أبى سفيان بن عوف بن كعب وقال الأخفش انه لامرأة من كنده ترثى زوجها الجراح وقد ذكر صاحب كتاب الأمالى أن السيدة عائشة رضى الله عنها تمثلت بهذه الأبيات بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، انظر الحماسة جـ ٢ ص ٩٠٩ .

الانتقام الاستسلام ، وأنه اذا ناحت حمامة على غصن وهى تدعو حزنها ليهتاج بكاؤها ويمتد صياحها ، فانى أشاركها همومها وأحزانها وأشجى لصوتها وأجاوبها داعية صياحى ثم تختتم قصــيدتها فى حرقة دامية فتقول انى عارفة بمقدارى بعدك ومتيقنة نكوصى وســقوط حشــمتى بذهابك ، وفلة حدى وحد أصحابى لفقدانك فأغمض عينى فى كثير مما يجرى وألابســه مخافة أن أرى ما هو اكبر منه وأعلم أن الأمر انفلال فرسانى ، وتفلل سنة رماحى يقول صاحب شرح كتا بالحماسة الامام المرزوقى ، وهذا مثل لسقوط القوى وتراجع العدة (٤٨) .

انها قطعة موســيقية حزينة تعبر عن قلب مكلوم ونفس حيرى ، فتنساب عواطفها أنات وتترجم أحزانها آهات . تثير الآلام ، فى نغم يقطع الأكباد ، ويستثير الجماد .

وتقول **الفارعة بنت شداد** ترثى اخاها أبا زرارة مسعود (*) :

يا عينى ابكى لمســعود بن شــداد
بكــاء ذى عبرات شــــجوه بادى

يا من رأى بارقا قد بت أرمقـــــه
جوداً على الحرة الســوداء بالوادى

اسقى به قبر مســـعود وحب به
قبرا الى ولو لم يفـــــده فادى

من لا يذاب له شحم السـديف ولا
يجفــو العيـــال اذا ماضــن بالزاد

ولا يحـــل اذا ما حـــل منفردا
يخشى الرزية بين المـــال والنادى

---

(٤٨) نفس المصدر . ج ٢ ص ٣٠٩ .

(*) روى اسمها فى الحماسة البصرية ١ : ١٨٤ الفارغة بالغين ولعله تصحيف وقد دعاها فى خزانة الأدب (٤ : ٥٠٥) عمرة بنت شداد الكلبية ونظن الصواب انهـا من بنى مرة واخوها هو ابو زرارة مسعود ابن شداد العذرى أحد فرسان قومه المعدودين ورد له ذكر فى يوم الزريب من ايام الجاهلية ثم ظفرت به بنو جرم فقتلته وهو عطشان أ ، هـ .

شـــــهاد أنـدية رفاع أبنيـــة
شـــداد الوية — فتاح اســداد
نحـــار راغيـــة قتـال طاغيـة
حـلال رابيـــة فكاك — أقيـــاد
قـــوال محكمــــة نقاض مبرمة
قراج مبهمة حبـــــــاس أوراد
حــــلال ممرعــة حمــال معضــلة
فــراج مبهمــة حبــــــاس أوراد

تقـول ابكى عليه بكاء من يفيض العبرات الســخينة ويبدو حزنه عيانا بيانا للناس ثم تتمنى ان ترى سحابة ذات برق لا تزال تترصــدها لعلها تكون جودة أى كثيرة فتهطل على الحرة الســوداء التى قتل فيها اخوها وتسقى أعز قبر وأحبه الى قلبها ، وتتأسف على أن أخاها قتل دون أن يفديه فاد ويمنع عنه المنون مانع ثم أخـذت كعـادة الباكيـات تعدد خلائق المفقود فتذكر أنه كان مسماحاً جواداً — لا يذيب شحم الجزور لنفسه ، ولا يرد المحتاجين فى وقت يبخل الناس فيه بمالهم ، ثم اخذت تضفى عليه صفات الســيادة • فهو سيد قومه يتبعه الناس حيثما ســار وأينما حل ثم استرسلت تعلى من مكانته الاجتماعية اذ هو يشهد الأندية ويعالج فيها مشــكلات المحتاجين ، ويفرج الكربات ويفتح ما ضــاق من الأمور، ويقيم الصروح العــالية ويرفع الوية النصر خفاقة عاليــة وأنه مسماح كريم ينحر الأبل لضيفانه واذا ما تعرض له طاغية قتله وتخلص من طغيانه ، وأن داره مشهورة يقصـــده ذو الحاجة والفاقة فطالما فك قيودهم وفرج ضوائقهم يقول القول الحكيم ويحل المعضلات المستعصية ويحل الوادى الخصيب وتقول فى بقية قصيدتها : —

جماع كل خصــــال الخير قد علموا
زين القرى ونكال الظالم العادى [٤٩]

---

(٤٩) القرى : الكرم ، نكال الظــالم : اى ينكل بمن يعتدى ويرده عن ظلمــه .

أبا زرارة لا تبعـــد فكـــل فتى
يوما رهين صـــفيحات وأعــواد (٥٠)

هلا ســقيتم بنى جرم أســـيركم
نفسى فداؤك من ذى غلة صادى (٥١)

نعـــم الفتى ويمين الله قد علمــوا
يحلو به الحى أو يغدو به الغادى (٥٢)

هو الفتى تحمد الجيران مشــــهده
عند الشــتاء وقد هموا باخمــاد (٥٣)

الطــاعن الطعنة النجـــلاء يتبعها
مثعنجر بعــد ما يغــلى بازباد (٥٤)

ويترك القــرن مصــفرا أنامـــله
كأن أثوابه مجت — بفرصــــاد (٥٥)

والسابىء الزق للأضـــياف ان نزلوا
الى ذراه وغيث المحوج الغادى (٥٦)

وعادت فى آخر القصيدة تؤكد مرة أخرى حبه للخير بل تقول ان خصال الخير كلها مجتمعة فيه ، ونعت على بنى جرم قسوتهم ، معددة مظاهر جفوتهم وتجردهم من انسانيتهم حين قتلوه دون أن يسقوه قطرة ماء وهو جرم عظيم وجنــاية كبيرة ثم اخذت تعدد مآثره ومكــارمه فى بطولته وشجاعته وطعنه وضربه ، وضيافته وقراه ، مؤكدة أنها لن تنساه

(٥٠) الصفيحات : حجارة القبر — والأعواد : نعش الميت .
(٥١) الغلة : العطش ، والصادى : العطشان .
(٥٢) روى هذا البيت والذى قبله فى زهر الآداب فقط .
(٥٣) اذا أطفأ الناس النيران بات هو يشعلها استجلابا للضيفان ، أو تريد انه يطعم الجيران وقتما تفرغ مؤونتهم ويكفون عن اشعال النار .
(٥٤) الطعنـــة النجــلاء : هى الواسعة ، المثعنجر اكثر موضع فى البحر ويسمى به الرجــل الشجاع الفائق .
(٥٥) الفرصاد : صبغ أحمر كالتوت أو هو التوت نفسه .
(٥٦) السبء ان ينبــاع الخمر ليشرب تريد انه يشتريهــا ليســقى اصحابه .

حتى يعود الناس من قبـــورهم أو تجد عوضـــا او بديلا عنه وهيهات هيهات !!

ولقد حاول الأستاذ الدكتور عبد الســـلام سرحان أن يدافع عن فارعة بنت شداد وأثبت أحقيتها فى هذه القصيدة يقول (٥٧) :

حاول الزمن جاهدا ان ينزع ذلك التاج المرصع باللآلىء الناصـــعة من رأس فارعة بنت شداد التى ازدانت به ، وازينت بوجوده وابست معه ومن أجله برود التيه والخيلاء والخلود وكأنما استكثرت الأحداث تلك القصـــيدة الفارعة على مثـــل فارعة فأخذت تقذف بها ذات اليمين وذات الشمال ، لتغرب تلك النسبة فى عين حمئة ، وتبدو الشاعرة بدونها قزمة قمئة ، وتغوص الأرض تحت أقدامها لتضعها فى الحضيض ، ولعل بعض الرواة شـــق عليهم أن تكون تلك البدعة الشـــعرية ذات نبعـــة نســـائية فهاضوا جناحها ، وتحيفوا ريشها وقلموا أظفارها ، وأوضعوا فيها أســـلحة المحو والاثبات ، ليخرج بعضـــــهم بأنها لعمرو بن مالك ابن يثربى ، وبعضهم بأنها لأبى الطمحان القينى ثم يشـــك فينســـبها لعمرو بن مالك ثانية وفريق ثالث يدعى أنها لامرأة من جرم مع أن البيت رقم ١٠ ينقض هذا الادعـــاء ، أو يدفع هذا الادعاء بالتكذيب ، غير أن أبا على القالى قال : « وقرأتها على أبى عمرو المطرز عن أبى العباس عن ابن الاعرابى لفارعة بنت شداد ترثى أخاها مسعود بن شداد ، ثم يعلق الاستاذ الدكتور عبد السلام سرحان على ذلك قائلا انه « بذلك أخرجنا من دائرة الحيرة ووقفنا على ســـيف الوضوح وأدخلنا الى افق الفجر الصادق بعد وادى الدجنات (٥٨) .

واذا استعرضـــنا رثاءهن رأينـــاه لا يقتصر على وصف أحزانهن فحسب بل نجد فيه صورا للقيم التى وضعنها لصفات الرجال وخلائهم التى كن يعجن بها فالشجاعة والكرم والشرف كانت من أهم الصفات التى امتدحتها وتليها صفات أخرى منها العفة والتدبير والكفاية وحسن

---

(٥٧) راجع مختارات من روائع الأدب ، ص ٤٧٨ .

(٥٨) نفس المصدر : (مختارات من الادب) ، ص ٤٧٩ .

المنطق والتعقل فى تصريف الأمور ففى رثائهن نجد تصويراً لأحزانهن وتصويراً لشمائل الرجال وصـــفاتهم الكريمة وتكاد هذه الصـــفات ان تكـــون هى الصـــفات التى كن يرغبن أن تتوفر فى الأزواج عندما كان الرجال يتقدمون اليهن للزواج ، اما عن أوصـــاف أحزانهن وآثارهن فى عقـــولهن وأبدانهن فقد اطالت وابدعت (٥٩) كثيرات منهن فى وصـــفها وتصـويرها .

ومن هؤلاء **ليلى العفيفة** (*) بنت لكيز بن مرة الربعى التى رثت ابن عم لها يقال له غرثان وهو أخو زوجها البراق ومنه قولها : —

لما ذكـــرت غريثـــا زاد بى كمدى ... حتى هممت من البـــلوى باعلان

تربع الحزن فى قلبى فذبت كمـــا ... ذاب الرصاص اذا أصلى بنيران

فلو ترانى والاشـــــجان تقلقنى ... عجبت براق من صبرى وكتمانى

ثم انتقلت الى ذكـــر قومه الذين لم ينـــاصروه وعادت بعد ذلك فوصفته وذكرت خلقه وطباعه .

لادر در كليب يـــــوم راح ولا ... أبى لكيز ولا خلى وفرســـانى

عن ابن روحان راحت وابل كثبا ... عن حـــامل كل أثقـــال وأوزان

واسلموا المال والأهلين واغتنموا ... أرداحهم فكبـــا زند بن روحان

فتى ربيعـــة طواف اماكنهـــــا ... وفارس الخيـــل فى روع وميدان

يا عين فابكى وجودى بالدموع ولا ... تمل يا قلب ان تبلى بأشـــجان

فذكر غرثان مولى الحى من أسد ... أنسى حياتى بلا شك وأنسانى (٦١)

---

(٥٩) المراة فى الشعر الجاهلى للدكتور على الهاشمى .

(*) هى ليـــلى بنت لكيز بن مـــرة أحـــد فرســـان بنى ربيعـــة وكانت أصغر أولاده سنا تزوجها البراق بن روحان بن اسد بن بكر بن مرة وكان يدين بالنصرانية وقد اشتهر بشجاعته فى حروب استمرت نيرانها بين بنى ربيعة وبين أياد ولخم مدة طويلة سنة ٤٦٠م وبها قتل أخوه غرثان ويروى غرســـان فقـــال فيه المراثى الحسنة — منها قصيدته التى مطلعها .

ليس الغـــــداة تحيـــــة وســـــلاما

لفتى ثوى ما قـــد يـــرد ســـــــلاما

(٦١) رياض الأدب ٢ : ٣ والمراة فى الشعر الجاهلى د/ الهاشمى : ص ٢٩١ .

تقول الشـــاعرة ان ما لحق بن من الحزن لموت غرثان كاد يغلب صبرى ويحملنى على أن أبوح بحزنى ثم انتقلت الى ذكر قومه الذين لم يناصروه وعادت بعد ذلك فوصفته وذكرت خلقه وطباعه وهى فى هذا كله لم تبلغ ما بلغته الخنساء من المقدرة الفنية •

ومن الملاحظ أن الشاعرات كن يركزن على صفة الشجاعة فى المرثى اذ كان للشجاعة الأثر الكبير فى البيئة وبخاصة فى البيئة الجاهلية ثم تليها صـــفة الكرم وحماية الجار وقد رغبت فى هاتين الصـــفتين المرأة الشاعرة وتعشقتهما وتفانت فيهما اذ وجدت فيهما الخير الكثير والضالة المنشودة والمرأة من شأنها تحب الرجل الشجاع ليحميها وتستدفىء فى ظله وجنابه ، كما أنها تعشق الرجل الكريم فتشيد بخصـــاله وتتمدح بسجاياه اذ انه بكرمه يحقق لها رغباتها الطموحة ، وما تحتاج اليه من زينة ومتاع ولنسمع الى **اسماء بنت كليب** ترثى أخاها •

يا كليب كنت جـــاهى ولقـــد	جار جســـــاس بقتل البطـــل
فأتاه وهـــو عنه غافـــــــل	وحبـــــاه طعنة فى المقتـــــــل
فابتلانى ودهــــانى بشـــــجا	قد مضى لى وشجا لى معتلى(٦٢)
اســــعدونى اخوتى ثم اندبوا	أســـــداً كان فخار المحفل
طود عز وهمـــــاما فى الوغى	يمنع الاقران وسط القسطل(٦٣)
لم يكن نكســـــا ولاذا ميـــل	عند وقع البيض بالمنتعـــل (٦٤)
اندبوا ليثــــا عفــيرا بالدما	يفحص الأرض صريعاً من عل(٦٥)
اســــعدونى لا تلوموا فى البكا	ان فى الأحشاء نارا تصــــــطلى

وتختتم قصيدتها قائلة : —

---

(٦٢) الشجا : الحزن ، ولى معتلى : اى يتهددنى .
(٦٣) القسطل : الغبـــار الذى يثيره الفرسان فى الحرب .
(٦٤) النكس : الضعيف ، ذاميل : اى ذو شك وارتياب .
(٦٥) العفير : المعفر بالتراب .

بطـــــــل ضرغامة حـــين بدا
تحته الأشـــقر مثـــل التتفل (٦٦)

من تفر الخيـــــل فى الروع له
بطـل مثـل هزبر مشـــبل (٦٧)

يا بنى تغلب هيـــا أقدمـــوا
واطلبـوا ثأر مليك الجحفـل (٦٨)

فنرى أسماء تركز على صفات البطولة وتتكىء عليها فتذكر أنه كان أســداً وأنه كان هماماً يغشى حومة الحرب فلا يخـاف الموت ولا يرهب الردى ، ثم يحلو لها أن تكرر صفات الشجاعة والفروسية بين ثنـايا القصيدة :

اندبوا ليثـــا عفـــيرا بالدما	يفحص الأرض صريعـاً من عل
بطـــل ضرغامة حـــين بدا	تحته الأشـــقر مثـــل التتفل
من تفر الخيـــل فى الروع له	بطـل مثـــل هزبر مشـــبل

وهكذا تنتهى القصيدة وكأنها لوحة فنية متحركة تشاهد فيها ألوانا من البطولة النادرة ، والشجاعة الفريدة .

ومثل هذا نلاحظه فى رثاء **سارة القرظية** وهى امرأة من يهود يثرب فى بنى قريظة وكان قومها اســتولوا على المدينة من عهـد قديم ، ثم انتشروا فى نواحى الحجاز فاتخذوا بها الآطام والأموال والمزارع فلما كان سيل العرم فى أوائل القرن الثانى الميلادى وخربت بلاد مأرب من اليمن ، وتفرق بنو الأزد فى أفناء جزيرة العرب سار بنو الأوس والخزرج منهم الى الحجاز وسكنوا المدينة وكانت تسمى « يثرب » (٦٩) فلم يزالوا مع قبائل اليهود على حال اتفاق الى أن زاحموهم بالسكنى فصار الأوس والخزرج فى جهد وضـيق من المعاش حتى أذل ملك اليهود نســاءهم

(٦٦) الضرغامة : الأسد والأشقر : الفرس والتتفل : ولد الثعلب .
(٦٧) هزبر : أسد وشبل : ذو اشبال .
(٦٨) مليك الجحفل : رئيسه والجحفل : الجيش .
(٦٩) الأغانى ١٩ : ١٦ ، ومعجم البلدان ٢ : ٢٤٣ .

فكمن له مالك بن عجلان من أشراف الخزرج فقتله وفر هارباً الى الشام واستنجد بأبى جبيلة ملك غسان على يهود يثرب فسار أبو جبيلة اليهم وحاربهم فى ذى حرض وهو واد قرب المدينة ، فأوقع بهم وقتلهم وقيل انه غدر بهم واغتالهم وكان ذلك نحو ٤٩٢ م فقالت سارة ترثى :

بنفسى أمة لم تغن شـيئا ... بذى حرض تعفيها الرياح (٧٠)

كهول من قريظـة أتلفتهـا ... سيوف الخزرجية والرماح

رزئنا والرزية ذات ثقـل (٧١) ... يمر لأهلهـا المـاء القراح (٧٢)

ولو أربوا بأمرهـم لجـالت ... هنـالك دونهم جأوى رداح (٧٣)

واسمع ان شئت الى **سليمى بنت المهلهل** ترثى أباها لما قتله غلامان من عبيده فتجعله كهف اللهيف ومنتجع وملاذ الحيران وأنه الذى يرجى عند الشدائد والصروف المعضـلة والمرثى جمع من المكارم ما زاد فى ثقل حلمه ورزانته فهو حامى الذمار والجوار ، وحصن العشـيرة ، وكهف اليتيم ، ، وناحر البعير سنة القحط والمجاعة .

ولا ننسى فى هذا المجال **هند بنت معبد** بن خالد من بنى أسد ، وجـدها خالد هذا هو الذى كان ينادم النعمان بن المنذر ، فسـكر يوما وأمر بقتله مع عمرو بن مسعود الأسدى سنة ٥٨٥ م فقالت هند ترثيهما فى قصيدة طويلة لم يذكر سوى مطلعها وهو : —

ألا بكر الناعى بخيرى بنى أسـد

بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد

وأرادت بالسيد الصمد جدها خالدا نديم النعمان ، ولها قصيدة

---

(٧٠) تقول أفدى بنفسى قوما اصبحوا الآن فى ذى حرض رفاة بالية تنسفها الرياح .

(٧١) الرزيئة : المصيبة العظيمة ، المـاء القراح : المـاء الصافى .

(٧٢) يعنى انهـا تجعـل المـاء مرا لثقلها .

(٧٣) أرب الأمر : تبصر به وتنظر فى عواقبـه ، والجأوى : الكتيبة المغبرة اللون ، والرداح : الثقيلة الجرارة ، يقول لو عرفوا بغدر أعدائهم لساروا اليهم بكتيبة عظيمة كثيرة العدد .

أخـرى ترثيه ، وتتحسر على فراقه وفراق الأوائل من آبائهـا الذين صـاروا دفين التراب والجنـادل وتتمنى أن تحتال بأية حيـلة لتصرف اذى الموت عن أحبابها وأهليها ، وتبحث عن حيلة لتفديهم لها فلا تجد امامه الا حيلة البكاء وهى بئست الحيلة •

أأميم هيهات الصبا ذهب الصـبا
وأطارعنى الحلم جهل غرابى [٧٤]

أين الألى بالأمس كانوا جـيرة
أمسـوا دفين جنـادل وتراب [٧٥]

ماتوا ولو أنى قدرت بحيـاة
لأحدت صرف الموت عن أحبابى [٧٦]

ما حيلتى الا البكـاء عليهـم
ان البكاء سـلاح كل مصـاب

وقالت ترثى ابن عمها خـالد بن حبيب :

أمسى بواكيـك مللن البـكا	وشر عهـد الناس عهـد النسـا
فـابن حبيب فابكيـا خـالدا	لجفنـة مـلأى وزق روى
وابن حبيب فابكيـا خـالدا	لطعنة يقصر عنهـا الاسـا (*)
ان تبكيـا لا تبكيـا هينـا	ومـا بمـا مسكما من خفـا
اذ يخرج الكاعب من خـدرها	يومك لا تذكر فيـه الحيـا (*)
أحلى من التمـر وأحمى من الـ	جمر وآبى عنـد جـد الابا

وفى هذا الميدان تبرز زينب بنت مالك بن جعفر بن كلاب من بنى

---

(٧٤) اميم : ترخيم أميمة ولعلهـا بنتها او قريبتها او من خيالهـا الغراب : المراد به الفراق تقول ان جهلى بساعة الفراق أطار لبى فزعا .

(٧٥) الجنادل : الصخور توضع فوق القبور .

(٧٦) احدت : ابعدت وصرفت .

(*) الأسـا : ج آسـية وهى الـدواء ، أو جمـع آس وهـو الطبيب ، وكلاهما يصح هنا .

(*) الكاعب : الفتاة التى نهد ثديها . الخـدر : ج خدور واخدار وهو ستر يمد للجارية فى ناحية البيت ، أو ما يفرد لها من السكن .

عامر وأخوها هو أبو براء عامر بن مالك المعروف بملاعب الأسنة ولها شعر ترثى به يزيد بن عبد المدان ، وكان يزيد هذا من أشراف أهل نجران سيدا على بنى الحارث بن كعب فأغار على بنى عامر وعبيدة أخوى زينب ثم أنعم عليهما ، وأطلق سبيلهما فلما كان يوم الكلاب الثانى واستعرت الحرب بين بنى تميم واهل اليمن كان يزيد بن عبد المدان متوليا قيادة قومه ، فانتصر بنو تميم على أهل اليمن وقتل يزيد بن عبد المدان فى من قتل من قومه فى كلاب وهو ماء على سبع ليـال من اليمامة بين الكوفة والبصرة نحو سنة ٦١٢ م فلما بلغ هذا الخبر زينب بنت مالك تذكرت صنيع يزيد بن عبد المدان مع أخويها وتبكى فيه خلقه وسماحته ثم تذكر احتفـاء الأرض به وأنهـا حلت بيزيد موتاهـا ، وزينتهم به لما دفن فى بطنها وكيف لا تتزين به الأرض وتتحلى به البسيطة وفضله فاق فضـل الملوك ثم تشير الى أريحيته ومروءته ونجدته لأخويها ، واطلاقهما من الأسر ثم ذكرت نعمه وآلاءه التى عمت رهطه ، وعلت ذرى ربوعهم ففاضت كرما وسماحة .

بكيت يزيـــد بن عبد المـدا ن حلت به الأرض أثقـالها (٧٧)
شريك الملوك ومن فضـــله يفضل فى المجد افضـالها (٧٨)
فككت أســـارى بنى جعفر وكندة اذنلت أقوالهـــا (٧٩)
ورهط المجـــالد قد حللت فواضـل نعمـاك أجبالها (٨٠)

ثم أكدت هذه المعانى بقولها : —

ســأبكى يزيد بن عبد المدان على أنه الأحــلم الأكـــرم
رماح من العـزم مركـــوزة مـلوك اذا برزت تحكـم (٨١)

---

(٧٧) حلت به الأرض : اى تزينت به الأرض وحلت به موتاها .
(٧٨) تقول انه ينادم الملوك ويفضلهم بفضله .
(٧٩) تريد ببنى جعفر قومهـا تشـير الى اطلاق اخويها من الأسر والاقوال جمع قيل وهو الملك .
(٨٠) وقيـل هو خاص ببنى خمير .
(٨١) الأغانى جـ ١٠ ص ١٥٠ ، العقد الفريد ٣ : ١٠٠ ، ١٠٤ .

تريد أن بنى عبد المدان ومنهم الممدوح يشبهون الرماح فى صلابتها وصدق طعنها فى ساحة القتال وان طباعهم شريفة يسودون حيثما حلو لعاو هممهم .

ونراها ترد على من لامها على رثاء يزيد وهو يمانى من نزار فتفحمه وتلقمه حجراً ، بسديد منطقها وقوة حجتها : —

ألا أيهـــا الزارى على بأننى نزارية أبكى كريمـاً يمانيـــاً
وما لى لا أبكى يزيـــد ورد لى أجر جديداً مدرعى وردائياً (٨٢)

وما أخف جرس قول ابنة **وثيمة بن عثمـان** ترثى أباها ، وتتغنى بصفاته وأنه كان مأوى الأرامل يهب لهم المال التلاد ، ويمنع عنهم غوائل الدهر ونوازله وهو المدره الحكيم الممثل لقبيلته والمدافع عنهم بسـيفه ولسانه .

الواهب المـــال التــــلاد لنـــا ويكفينـــا العظيمـــة (٨٣)
ويكـــــون مدرهنـــا اذا نزلت مجلحـــــة ذميمة (٨٤)
واحمـــر آفاق الســماء ولم تقـــع فى الأرض ديمة (٨٥)
وتعـــذر الآكـــــال حتى كان أحمــرها الهشـــيمة (٨٦)
لا ثـــــاة ترعى ولا ابــل ولا بقــر مســـيمة (٨٧)

وما أرق رثاء الجيداء بنت زاهر الزبيدية وكانت زوجة لخالد بن محارب سيد بنى زبيد ، وكان معدى كرب الفارس المشهور ابن عمها ولما قتل عنترة زوجها خالدا قالت ترثيه :

يا لقومى قد قرح الدمـــع خـــدى
وجفـــانى الرقاد من عظم وجـــدى

---

(٨٢) الزارى : العائب ، المدرع : لابس الدرع .
(٨٣) التلاد : القديم ، يكفينا العظيمة : يكفينا حوادث الدهر .
(٨٤) المدره : لسان القوم المتكلم عنهم ، والمجلة الداهية .
(٨٥) الديمة : واحدة الديم وهى الأمطار .
(٨٦) والآكال : جمع اكل وهو ما يؤكل والهشيمة مايهشم من الشجر أى يكسر والمراد ان المجاعة قويت حتى أن اكل الهشيم من الأشجار يعد من أطيب المآكل .
(٨٧) الثلة : ما بين الست الى العشر من الغنم ومسيمة : راعية .

كان لى فارس ســـــقاه المنـــايا
عبد عبس بجـوره والتعـدى [*]

بدر تم هـوى الى الأرض لـما رشقته السهام من كف عبد [٨٨]
يا قتيـلا بكت عليه البواكى فى جبال الفلا وفى أرض نجد
كان مثـل القضـيب قداً ولكن قده صرف دهـره أى قد [**]
يا لقومى من يكشف الضيم عنا ويراعى من بعد خالد عهدى [٩٠]

ومن أطول قصائد الرثاء قصـيدة **الدعجاء بنت المنتشر** بن وهب ابن سلمة وينتهى نسـبها الى قيس عيلان ، وهى من المراثى المفضـلة الطويلة النفس والمشهورة بالبراعة والبلاغة [٩١] وهى فى قصيدتها هذه أرثى من الخنساء وأطول منها نفسا .

وكان من حديث المنتشر أنه أسر فى بعض غزواته صلاءة بن العنبر من بنى الحارث بن كعب فقال له المنتشر افد نفسك فأبى فقال لأقطعنك أنملة انملة وعضوا عضوا ما لم تفد نفسك فجعل يفعل به حتى قتله ، ثم خرج من بعد ذلك المنتشر يريد حج ذى الخلصة (وذو الخلصة : صنم ولعلها هى المعروفة بكعبة نجران) [٩٢] وكان مع المنتشر غلمة من قومه والأقيصر بن جابر أخو بنى فراص ، وكان بنو نفيـل بن عمرو أعداء له لما فعل بالحارثى ، فلما رأوا مخرجه ، وأن طريقه عليهم كمنوا له وقبضوا عليه ثم فعلوا به كما فعل بالحارثى وقتلوه وكان قاتله ابن هند بن أسماء ابن زنباع فقالت ابنته ترثيه :

والقصيدة أشبه بفواصل موسيقية حزينة ، متعددة النغم مختلفة الألوان تسترعى الآذان بألفاظها ، كما تسترعى القلوب والعقول بمعانيها

(*) عبد عبس : عنترة .
(٨٨) بدر التم : هو القمر يوم تمامه .
(**) قده صرف الدهر : أى قطعه وأماته وصرف الدهر : نوائبه .
(٩٠) سيرة عنترة ٢ : ٤٢٥ : ٤٢٦ .
وراجع رياض الأدب ١١٤ .
(٩١) خزانة الأدب ١ : ٢١ تاج العروس ٣ : ٥٦٧ .
(٩٢) الكامل للمبرد طبعة بيروت ٧٥٠ .

تدل على حاسة مرهفة ، وقدرة فنية مما يجعل النص أوقع جرساً وأشد تأثيراً .

هاج الفـؤاد على عرفانه الذكـر
وزور ميت عـلى الأيـام مهتصر

قد كنت أعهـده والدار جامعـة
والدهر فيه ذهاب الناس والعبر [٩٣]

اذ نحن ننتظر الأخبـار نكذبهـا
وقد أتانى ولو كذبتـه الخبر [٩٤]

جـاءت مرجمة قد كنت أحـذرها
لو كان ينفعنى الاشفاق والحذر [٩٥]

انى أتتنى لسـان لا أسربهـا
من علو لا عجب منها ولا سـخر [٩٦]

فبت مكتئبـا حـران أندبه
حتى أتتنى بها الأنبـاء والخبر [٩٧]

فجاشـت النفس لما جـاء جمعهم
وراكب جـاء من تثليث معتمر [٩٨]

---

(٩٣) اى كنت اعرفه فالدار طالما جمعتنا ولكن الدهر متقلب .

(٩٤) اكذبه : نسبه الى الكذب : تقول كنت اود أن يكون هذا الخبر كاذبا .

(٩٥) المرجمـة : الحديث الذى لا يوقف على صحته والاشـفاق : الحذر والتحفظ .

(٩٦) اللسان هنا : معناها الرسالة ومن علو : اى من فوق ومن أعلى وهى مثلثة الواو اى اتانى خبر من أعلى نجد ، لا عجب : أى لا عجب منها وان كانت عظيمة لأن مصائب الدهر كثيرة ولا سخر بالموت .

(٩٧) وقـد روى المبرد
فبت مرتفقـا حـران ارقبـه
حيران ذا حـذر لو ينفـع الحـذر
المرتفق : المتكىء والمـراد به السهر : والحران : الحـزين والشديد العطش .

(٩٨) فجاشت : أى حـزنت ، وتثليث : اسم موضـع ومعتمر صفة راكب بمعنى زائر .

يأتى على الناس لا يلوى على أحد
حتى التقينا وكانت دوننا مضر [١٠٠]

ان الذى جئت من تثليث تنـــــدبه
منه الســـماح ومنه النهى والغير

ينعى امـــرأً تغب الحى جفنتـــه
اذا الكواكب أخطى نوءها القدر [١٠١]

وراحت الشـــول مغبرا مناكبهـــا
شـــعثا تغير منها النى والوبر [١٠٢]

وأحجر الكلب مبيض الصـــقيع به
وضمت الحى من صراده الحجر [١٠٣]

عليه أول زاد القـــوم قد علمـــوا
ثم المطى اذا ما أرملوا جـــزر [١٠٤]

---

(١٠٠) يأتى : ضمير الراكب ، ويلوى مضـــارع لـــوى بمعنى توقف وعرج اى يمر هذا الراكب على النـــاس ولم يعرج على احـــد حتى أتانى وكنت صديقه ، ودون بمعنى قدام .

(*) ندب الميت يندب بكى عليه وعدد محاسنه والغير اسم من غيرت الشيء فتغير أقامه مقام الآخر .

(١٠١) النعى : خبر الموت ، لا يغب من قولهم فلان لا يغبنا عطاؤه اى لا يأتينا يوما دون يوم بل كل يوم والجفنـــة : القصعة ، واخطـــأه : تجـــاوزه ، والنوء : سقوط نجم فى كل ليلة الى ثلاثة عشر يوما وهكذا كل رقيبه فى الشرق يقابله من ساعته فى كل ليلة الى ثلاثة عشر يوما وهكذا كل نجم الى انقضاء السنة وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد الى الساقط منها ، يريد أن جفانه لا تنقطع فى القحط والشدة .

(١٠٢) الشائلة : من الابل ما اتى عليها من حملها أو وضعها سبعة اشهر فجف لبنها والجمع شول على غير قياس ، والنى : الشحم ، يريد ان الجدب وقلة المرعى خشن لحمها وغيره .

(١٠٣) احجر الكلب ، الجـــأه الى وكنته ، والصقيع شـــدة البرد والصراد مثله والحجـــر : المنـــازل والمعنى انه فى هـــذه الأيام البـــاردة الشديدة يطعم الناس الطعـــام .

(١٠٤) المطى : جمع مطية وهى الناقة ، والجزر جمع جزرة وهى الناقة والشاة تذبح ، ويروى الجزر جمع جزور وهى الناقة تنحر ، وأرمل القوم : قل زادهم والمعنى يجيء الناس اليه عند الحـــاجة واذا نفد الزاد نحر لهم المطـــايا .

لا تأمن البـازل الكـوماء ضربتـه
بالمشرفى اذا ما اخروط السفر [١٠٥]
وتذعــر البزل منــه حين تبصره
حتى تقطع فى أعناقهــا الجــرر [١٠٦]
أخو رغائب يعطيهــا ويســألها
يخشى الظلامة منــه النوفل الزفر [١٠٧]
من ليس فى خــيره من يكــدره
على الصـديق ولا فى صـفوه كدر [١٠٨]
يمشى ببيـداء لا يمشى بهــا أحـد
ولا يحس خـلا الخافى بهــا أثر [١٠٩]
كأنه بعـد صـدق القـوم أنفسهم
بالبـأس يلمع من اقدامــه الشرر [١١٠]
وليس فيــه اذا استنظرته عجــل
وليس فيــه اذا عاسرته عسر [١١١]

---

(١٠٥) البازل : البعير يبزل نابه اى ينشق بدخوله فى التاسعة من سنه ، والكوماء : النـاقة الضخمة السنام والمشرفى : السيف ، واخروط السفر : امتد وطال .

(١٠٦) البزل : جمع بازل ، وتقطع : تخفيف تتقطع ، والجرر جمع جرة وهى ما يسترجع البعير من بطنه الى فمه ليعيد مضغه والمعنى ، ان الابل اذا راته تخـاف على نفسها وتقطع اكلها خوفا منه على ذاتها .

(١٠٧) الرغـائب جمـع رغيبة وهى العطايا الكثيرة يريد انه يعطى ما يرغبه الرجـال للادخار لنفاسته وجوهره ، والظـلامة ما تطلبه عند الظـالم وهو اسم ما اخذ منك ، والنوفل : البحر والكثير العطـاء وقال ثعلب : النوفل : العزيز الذى ينفل عنه الضيم اى يدفعه ، والزفر : الكثير النـاصر والأهـل والعـدة أو هـو السـيد لانـه يجـود بالأموال فى الحالات من دين ودية .

(١٠٨) اى انه يعطى العطـاء لا يتبعه من ولا اذى .

(١٠٩) البيداء : الصحراء ، الخافى : الجن تعنى انه شجاع مقدام .

(١١٠) المعنى اذا فزع القوم وايقنوا بالهلاك عند الحروب أو الشدائد فكانه من ثقته بنفسه يلمع الشرر من اقدامه قال السيد المرتضى فى اماليه « لا نعلم بيتا فى يمن النقيبة وبركة الطلعة ابرع من هذا البيت » .

(١١١) تريد أنه كامل لا يعجل فى وقت الأناة ولا يشتد فى وقت اللين

امـا يصـــبه عـــدو فى منـــاوأة

يومـا فقـــد كان يستعلى وينتصر(١١٢)

أخـو شروب ومكساب اذا عدموا(١١٣)

وفى المخافـة منـــه الجـلد والحـذر

مردى حروب شـــهاب يستضـــاء به

كما أضـــاء سواد الطخية القمر(١١٤)

لا يصـعب الأمـر الا ريث يركبـــه

وكل أمر ســوى الفحشـــاء يأتمر(١١٥)

مهفهف أهضـــم الكشـــحين منخـــرق

عنـــه القميص لسير الليــل محتقر(١١٦)

ضخم الدســيعة متـــلاف أخوثقـــة

حامى الحقيقة منـــه الجود والفخر(١١٧)

---

(١١٢) المناواة : المعاداة ، اى ان له الفوز والانتصار كلما قصده عدو وناصبه .

(١١٣) الشروب : القـــوم المجتمعون للشرب ، والعـــدم : الفقر ، ومكساب اى يحصل لقومه زادهم اذا كانوا فى حاجة .

(١١٤) مردى حروب : المردى حجر يرمى به واطلق على الشجاع ومعناه انه يقذف فى الحروب ويرمى فيها والطخية بتثليث الطـــاء : الظلمة والطخياء : الليلة المظلمة والمراد انه كامل شجاعة وعقلا فشجاعته كونه مسعارا للحروب ، وعقله كون رأيه نورا يستضاء به .

(١١٥) اصعب الأمر : وجـــده صعبا والفحشـــاء : الأمر السيىء ، وائتمر الأمر باشره ، والمعنى انه لا يرى أمرا حتى يفـــوز به وانه يتـــولى الأمور كلها الا أمور الفاحشة اى يفعـــل كل خير ولا يدنو من الفاحشـــة .

(١١٦) المهفهف ، الضـــامر الجســـم ، والأهضـــم : الطاوى الدقيق الخاصرة تقول انه مجدول من الرجال (ليس عظيم البطن) والعرب تمدح الرجـــل بالهزال والضـــمر وتذم السمن ، ورجـــل متخرق القميص اذا طـــال وتشققت ثيابه ، لسير الليل الخ اى انه جلد يتحمـــل الشـــدائد .

(١١٧) الدسيعة : العطيـــة ، والحقيقة : ما يحق على الرجـــل ان يمنعـــه .

طـــاوى المصير على العــــزاء منجرد

بالقـــوم ليـــلة لامـــــاء ولا شجر[١١٨]

لا يتـــأرى لمـــــا فى القـــــدر يرقبــه

ولا يعض على شرســـوفه الصـــفر [١١٩]

تكفيـــــه فلـــذة لحـــم ان ألم بهــــــا

من الشـــواء ويروى شربه الغمــر[١٢٠]

لا يأمن النـــــاس ممســــــاه ومصـــبحه

فى كل فج وان لم يغـــــز ينتظر[١٢١]

لا يعجـــل القـــــوم أن تغلى مراجلهم

ويدلج الليـــل حتى يفسخ القمـــر[١٢٢]

لا يغمـــز الســــــاق من أين ولا نصب

ولا يزال أمـــــام القـــــوم يقتفر[١٢٣]

عشـــنا به برهـــة دهرا فودعنـــا

كذلك الرمح ذو النصلين ينكسر[١٢٤]

---

(١١٨) الطوى : الجوع ، المصير : المـــراد بها الأمعاء والعزاء : الشدة والجهد وهى ايضا السنة الشديدة اى انه يصبر على الشدة حيث لا مـــاء ولا شجر .

(١١٩) يتأرى : ينظر ويتشوف : عظم راس الفؤاد ، والصفر : داء يـــــكون فى البطن والمعـــنى همتـــه ليســـت فى المطعـــم والمشـــرب ، وانه لاصفر فى جوفه فيعض ، يصفه بشدة الخلق وصحة البنية .

(١٢٠) الفلذة : القطعة من اللحم ، والغمر : القدح الصغير الذى لا يروى والمعنى تكفيه من جميع الشواء قطعة من لحم ياكلها فيحتزىء بها اى انه ليس بنهم ، بل يكتفى بقليل من الزاد واليسير من الطعام والشراب .

(١٢١) والمعنى انه يغزو صباحا ومساء فيخاف الأعداء غزواته فى اى وقت كان اى لا يأمنه النـــــاس على كل حـــال سواء كان غازيا أم لا فان كان غازيا يخافون أن يغير عليهم وأن لم يكن غازيا فانهم فى قلق أيضـــا لأنهم يترقبون غزوه وينتظرونه .

(١٢٢) اعجله : استحثه والمراجل جمـــع مرجـــل وهى القـــدور والدلجان السير أول الليل ، وفسخ القمر : ضعف ضوؤه ، يريد أنه رابط الجاش لا يستخفه الفزع ، وليس شرها يستعجل أصحابه بما يؤكل .

(١٢٣) لا يغمز الساق اى لا يجيبها والأين : التعب ويقتفر بالبنـــاء للمجهول اى انه يفوت النـــاس ولا يلحق بالاقتفاء .

(١٢٤) النصلان هما السنان وهى الحـــديدة العليـــا من الرمح ، والزج وهى الحديدة السفلى .

فنعم مـا أنت عند الخير تسـأله ونعم ما أنت عند البأس تحتضر (١٢٥)

أصـبت فى حـرم منا أخاثقة (*) هند بن أسماء لا يهنى لك الظفر (**)

فان جزعنـا فان الشر أجزعنـا
وان صـبرنا فأنـا معشر صـبر (١٢٧)

لو لم تخفـه نفيـل وهى خائنـة (١٢٨)
لصـبح القوم ورد ماله صـدر (١٢٩)

وأقبـل الخيـل من تثليث مصبغة
وضـم اعينهـا رغـوان أو حضر

ان تقتلوه فقـد أشـجاكم حقبـا
وقـد يكون له المعـلاة والخطر (١٣٠)

السـالك الثغـر والميمون طـائره
سم العـداة لمن عـاداه مشتجر (١٣١)

فان سلكت سـبيلا كنت سـالكها
فاذهب فـلا يبعـدنك الله منتشر (١٣٢)

قالوا واكرم شعر موتور وأعفه وأحلمه ما قالته **قتيلة بنت النضر**

---

(١٢٥) تقول انك نعم الرجل ، تعطى المحتـاج ، وتحضر فى ساحة القتـال عند اشتداد الأمر .

(*) والحرم اراد به حرم ذى الخلصة حيث قتل المنتشر وهند بن اسماء هو قاتل المنتشر بن وهب .

(**) وقوله « لا يهنى لك الظفر » دعاء عليه .

(١٢٧) الجزع : خلاف الصبر تقول ان جزعنا فلشدة البلية وان صبرنا فذاك شيمة طبعنا عليها اى اننا فى الحالتين كرام .

(١٢٨) ونفيل : هم بنو نفيل من بنى عمر بن كلاب .

(١٢٩) اشجاكم حقبا : اى احزنكم دهرا طويلا ، والمعلاة : كسب الشرف ، والخطر اى الشرف .

(١٣٠) المشتجر : المخـاصم .

(١٣١) روى فى الحماسـة البصرية وفى الكامـل « امـا سلكت » ورواية الخزانة : اذا سلكت سبيلا انت سالكه .

(١٣٢) الجنادل : جمع الجندل وهو الصخر العظيم .

ابن الحارث[١٣٦] وكان رسـول الله ﷺ قتل أخاها صبرا لكثرة أذاه للنبى ﷺ وكان من جملة أذاه أنه كان يقرأ الكتب فى أخبار العجم على العرب ويقول :

محمد يأتيكم بأخبـار عاد وثمود وأنا منبئكم بأخبـار الأكاسرة والقياصرة يريد بذلك القدح فى نبوته ﷺ ، وأنه اذا جاز أن يكون ذلك نبيا لاتيانه بقصص الأمم السابقة فانى وقد أوتيت بمثلها رسول أيضا وذكر ابن عباس فى قوله تعالى « ومن الناس من يشترى لهو الحديث » الآية أنها نزلت فى النضر بن الحارث الدارى وكان يشترى كتب الأعاجم فارس والروم وكتب أهل الحيرة فيحدث بهـا أهل مكة ، واذا سمع القرآن أعرض واستهزأ به ، وقتيلة هذه لما جاءت الى حضرة النبى ﷺ وأنشـدته هذه الأبيـات رق لها النبى ﷺ وبكى وقال « لو جئتنى من قبل لعفوت عنه » ثم قال « لا يقتل قرشى بعد هذا صبرا » والقصيدة رائعة فى فن الرثاء ولا يفوقها فى هذا الفن غير الخنساء واليك عصماؤها التى ترثى بها أخاها وتستعطف بها قلب النبى ﷺ .

يا راكبـا ان الأثيـل[١٣٧] مظنـة
من صـبح خامسـة وأنت موفق[١٣٨]
بلـغ به ميتـا بأن تحيـة
مـا ان تزال بهـا النجائب تخفق[١٣٩]
منى اليـه وعبرة مسـفوحة
جادت بواكفهـا وأخـرى تخنق [١٤٠]

---

(١٣٦) قـال البحتـرى كانت حازمـة ذات راى وجمـال وكان رسول الله أراد ان يتزوجها حتى كان من أخيها ما كان فانصرف عنها .
راجع : الاصابة : ٨٨ قسم النساء ، والحماسة جـ ٣ ص ٩٦٤ ، ٩٦٥ .

(١٣٧) الأثيل : موضع فيه قبر النضر ، المظنة : موضع الظن تقول انك تبلغ الاثيل صبح خامسة ان وفقت فى طريقك ولم تحد عنه .

(١٣٨) النجائب : الركائب ، تخفق : تهتز وتضطرب .

(١٣٩) العبرة المسفوحة : الدمعـة المصوبة جـادت بواكفهـا اى جادت بمطرها ، وأخـرى تخنق : اى ودمعـة أخرى خنقتنى وهى حبيسة لا تنزل .

(١٤٠) تنوشه : تمزقه ، وتشقق اى تتشقق فحذفوا احدى التائين للتخفيف .

ظلت سـيوف بنى أبية تنوشـه
لله آرحـام هنـاك تشقق(١٤١)

والنداء يحمل معنى الألم والمرارة وما يجيش فى صـدرها من الحزن والأسى وما يشتعل فى قلبها من الحسرات ، وجمرات الفجيعة ، والأبيات السابقة رسالة حزينة موجهة الى أخيها الموسد (بالأثيل) أو هى (تحية) مفعمة بالحب تبلغه فيها عن بكائها الذى يتصل ولا ينقطع ودمعها الذى يسـاعد ولا يجـذل فمن سائل مسفوح ، الى خانق مدفـوع (١٤٢) وفى بقية النص تصـور كيف أن سـيوف اخوانه تتناوله بعد أن كانت تذب عنه ، وتضع منه بعد أن كانت ترفعه ، وتبتذل حرماته بعد أن كانت تصـونها ثم قالت كالمسـتعطفة والمتعجبة لله أرحام وقرابات فى ذلك المكان قطعت أسـبابها وهتكت استارهـا ثم تمضى الشاعرة الحزينة تستعطف النبى ﷺ فتقول :

أنت كـريم الأبوين ، معم مخول وآباؤك أماجد كرماء (والفحـل فحل معرق) ، وأى شىء يضرك لو كنت قد عفوت والفتى وان كان مغضبا مضجرا ، منطويا على حنق وعداوة قد يمن ويعفو ، وهذا الكلام يتضـمن الاعتراف بالذنب ، وهـو التزام للنعمـة والمنـة ثم أخذت تذكر الرسول بالوشائج القريبة وبما يجمع النبى ﷺ واياه من العصب والقربى — لتـدل بذلك على وجـه الاستحقاق ، للصفح عن الخيانة ، لما يدل به من الأسباب المتواشجة والأرحام المتشـابكة ، وقد تأثر الرسول الكريم بقولها ، وسحر منطقها ، وعذوبة شعرها وقال قولته المشهورة (لو سمعته قبل أن أقتـله ما قتلته ، وذلك لتمكنها من البلاغة وأنها رزقت روعة التأثير) فى قصيدتها :

أمحمـد ولأنت نجـل كريمـة
فى قومهـا والفحـل فحـل معرق(١٤٣)

---

(١٤١) تنوشه : اى تقطعه ، وتشقق : اى تتقطع .

(١٤٢) راجع الحماسة جـ ٣ ، ص ٩٦٤ .

(١٤٣) تعنى انه كريم الأب والأم والفحل فحـل معرق اى انه من اسرة كريمة . انظر الحماسة جـ ٢ ص ٩٦٤ .

مـا كان ضرك لو مننت وربمـــــا
من الفتى وهـو المغيـظ المحنـق(١٤٤)

والنضر أقـرب من أصبت وســــيلة
واحقهـــم ان كان عتق يعتق ...(١٤٥)

والقصيدة قلادة ثمينـة يضعها رسول الله صلوات الله عليه فى عقد الشـعر والشـهادة قيمة ترفع عنه هامة وتعلى له مقامه ، وتصـعد بمساراته الى المجرة فى آفـاق السماء ، ومما لا شـك فيـه ان كلمة النبى ﷺ فى هذه الأبيات حكم نقدى أدبى له احترامه وله مقامه ، وله اعتباره فى ميزان النقـد الأدبى فهى من السـهل الممتنع فى أسلوبها وتركيبها ومن الفحل الجزل فى مفرداتها وكلماتها وهى قبل هذا وبعده مشاعر منسابة وأحاسيس مرهفة ، وخلجات تموجت بين الضلوع ثم تصوبت وتصعدت بين آفاق الفن الشعرى وميدانه الرحيب ، ولهـذا أثارت وأثرت وأنبتت وأثمرت ، وجادت بأعظم الجنى وأعقبت أشهى الثمر ، ولعل هذه العبارة الموجزة الكريمة تقطع السنة قالة السوء الذين تخرصوا بأن الاسلام عدو الشعر وأن القرآن ناهضه ، وأن المسلمين أشعلوا نار حرب ضروس ضد هذا الفن الأدبى الجميل(١٤٦) .

« كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذبا » .

أروى بنت عبد المطلب

هى أروى بنت عبـد المطلب بن هاشم القرشـية ، عمة رسول الله ﷺ ، واحدى فضليات النساء فى الجاهلية والاسلام . كانت راجحة الرأى ، تقول الشعر الجيد . أدركت الاسلام بمكة ، فأسلمت وهاجرت الى المدينة . عمرت الى خلافة عمر بن الخطاب نحو عام ١٥هـ .

كانت تعضد النبى ﷺ بلسانها ، وتحض ابنها طايبا على نصرته ، وقالت فى ذلك :

---

(١٤٤) المغيظ المحنق : الذى يتميز من الغيظ (اى انه شديد الغضب) ومن : صفح تطلب من النبى الصفح عن اخيها لأن الانسان احيـانا يكون فى ذروة الغضب مع ذلك يعفو ويصفح عمن ظلمه .

(١٤٥) النضر قريبك وهو أحق الناس بالعفو .

(١٤٦) راجع مختارات من روائع الأدب : ٤٩٠ .

(*) أول سورة الكهف .

ان طليبـا نصر ابن خـاله آسـاه فى ذى دمـة وماله

وقالت ترثى النبى ﷺ :

ألا يا رسـول الله كنت رجـاءنا وكنت بنا برا ولم تك جافيا[١٤٧]
وكنت رحيمـا هـاديا ومعلما ليبك عليك اليـوم من كان باكيا
فدى لرسـول الله أمى وخالتى وعمى وخالى ثم نفسى وماليـا
فلو أن رب النـاس أبقى نبينـا سـعدنا ولكن أمره كان ماضـيا
عليك من الله السـلام تحيـة وأدخلت جنات من المدن راضـيا

وقالت تبكى أباهـا :

بكت عينى وحق لهـا البـكاء على سمح سجيته الحيـاء[١٤٨]
على سـهل الخليقـة أبطحى كريم الخيم نيتـه العـلاء[١٤٩]
على الفياض شـيبة ذى المعـالى أبيـك الخير ليس له كفـاء[١٥٠]
طويل البـاع أملس شيظمى أغر كأن غرته ضـياء[١٥١]
أقب الكشح أروع ذى فضـول له المجـد المقـدم والسـناء[١٥٢]
أبى الضـيم أبلـج هـبرزى قـديم المجد ليس له خفـاء[١٥٣]
ومعقـل مـالك وربيـع فهـر وفاصلها اذا التمس القضـاء
وكان هو الفتى كرمـا وجـودا وبأسـا حين تنسكب الدمـاء
اذا هـاب الكمـاة المـوت حتى كأن قلـوب أكثرهم هـواء

---

(١٤٧) الأبيات فى « الدر المنثور » : ٢٦٢ .

(١٤٨) الأبيات فى « سيرة ابن هشام » : ١٧٣/١ .

(١٤٩) ابطحى ، اى : من قريش البطـاح ، وهم الذين ينزلون بين اخشبى مكة .

(١٥٠) الكفاء : المثل والنظير .

(١٥١) الشيظمى : المقول الفصيح .

(١٥٢) الأقب : الضامر البطن ، والكشح : الخصر ، والأروع : الذى يعجبك بحسنه ومنظره وشجاعته .

(١٥٣) الهبرزى : الجميـل الوسيم المقدام ، وكل جميـل وسيم عند العرب هبرزى .

مضى قدمـا بـذى ربـد خشيب   عليـه حين تبصره البهـاء(١٥٤)

وقالت أمية بنت عبد شمس

ترثى ابن أخيها أبا سفيان بن أمية ومن قتل من قومها يوم عكاظ ، وهو الرابع من حرب الفجار :

أبى ليـلك أن يذهـب   ونيط الطـرف بالكوكب(١٥٥)
ونجـم دونه الأهـوا   ل بين الدلـو والعقرب(١٥٦)
وهـذا الصـبح لا يـأتى   ولا يدنـو ولا يقـرب
بعقـر عشـيرة منـا   كـرام الخـيم والمنصب(١٥٧)
أحـال عليهم دهـر   حديد الناب والمخلب(١٥٨)
فحـل بهم وقـد أمنـوا   ولم يقصر ولم يشطب(١٥٩)
ومـا عنـه اذا مـا حـل   من منجى ولا مهـرب

---

(١٥٤) الربد ، كصرد : الفرند ، وسيف ذو ربد : اذا كنت ترى فيه شبه غبـار او هدب نمل يكون فى جوهره ، والخشيب : الصقيل .

(١٥٥) الأبيات فى « مختار الاغانى » : ٩ — ٤٢ و « أيام العرب فى الجاهلية » : ٣٣٨ .

(١٥٦) الدلو والعقرب : من منـاطق البروج . وفى « الاغـانى » « النسران » مكان « الأهوال » .والنسران هما : النجم الطـائر والنجم الواقع ، وهما اسمان لنجمين . تزعم ان النجم لا يبرح مكانه ، تكنى بذلك عن طول الليل .

(١٥٧) الخيم : الطبـاع .

(١٥٨) أحال عليهم : انتابهم .

(١٥٩) اقصره : كفه : وشطبه : قطعه ، تقول : اصابهم الدهر بضرباته حين كانوا يأمنون منها فلم يدفعها عنهم دافع .

الفصل الثانى

الحماســـة والفخر
فى التحريض على الحرب وتشجيع المقاتلين

للشـــعر الحماسى فى الجاهلية دواع كثيرة ، منها أن البدوى وليد الصحراء يعيش فى أكنافها ويواجه مخاطرها ، ويتقلب بين قسوة السماء ولهيب الرمضاء ، أمل عيشــه فى أنعام يضـــطرب فى الأرض من أجلها ، ويتوقع الأمطار ليروى عطشـــها ، فيرتحـــل من مكان الى مكان فى مجاهل يرتعش كلؤها فى سراب خداع ، حتى اذا زاحمه غريب على الماء والكلأ هاجمه ، واذا هنالك كر وفر ، واذا هنالك جلاد وصراع ، ودماء تســـيل معها الأرواح ! واذا هنالك طلب الثأر واعداد العدة للانتقام ! واذا هنالك تآلف وتحالف ، وتناد للحرب بين البطون والقبائل ، واذا هنالك أخيراً صولات وجولات يتصادم فيها الأبطال ، وتتعانق فيها السيوف والنصال ، وتتعالى فيها أصوات الرجال وهمهمات الخيول والابل ، وتنطلق ألسنة الشعراء مدوية ، معددة للمكارم والمفاخر •

ومن دواعى الشعر الحماسى أن البدوى شديد الحفاظ على الشرف والجار ، فان تعدى عليهما أحد ، أوقد نار الحرب والقتال ، وأذكى بذلك القرائح ، ففاض الشعر فى أسلوب ملحمى هدار •

وهكذا كان الداعى الى الحماسة كل ما كان داعياً الى الحرب ، وهكذا كانت كل حرب وكل غزاة ، وكل تعد وكل مناوأة ، سبباً من أسباب الفيض الملحمى الذى رافق تاريخ العرب فى مختلف أطواره • وهكذا أخيراً كانت أيام العرب فى الجاهلية محور شعرهم ، ومدار أقوالهم • ولتلك الأيام تاريخ طـــويل وهى ترجع الى أيام العـــرب والفرس ، وأيام القحطانية فيما بينهم ، وأيام القحطانيين والعدنانيين ، وأيام ربيعة فيما بينها ، وأيام

ربيعـــة وتميم ، وأيام قيس فيما بينها ، وأيام قيس وكنانة ، وأيام قيس وتميم ، وأيام ضبة وغيرهم •

أما أيام العرب والفرس فأشـــــهرها يوم ذى قار وهو لبكـــر على العجم وقد التقى جيش الأكاسرة بجيش العرب فى بطحاء ذى قـــار ، وذو قار ماء لبكر قريب من الكوفة ، وكان جيش الفرس مؤلفاً من ثلاثة آلاف عربى ، ومن ألف من الأساورة على رأسهم الهامرز ، وألف آخر من الأساورة على رأسهم خنابزين ، ومن عدد كبير من الحلفاء والموالين ، وكان جيش العرب مؤلفاً من بنى عجل فى الميمنة وعليهم حنظلة بن ثعلبة ، ومن بنى شيبان فى الميسرة وعليهم بكر بن يزيد ابن مسهر ، ومن أفناء بكر فى القلب وعليهم هانىء بن مسعود • وقد دارت الدائرة على الفرس ، وقد اتبعتهم بكر يقتلونهم بقية يومهم وليلتهم ، حتى قضوا على من قضـــوا وشردوا من شردوا • ومن الأناشيد الحربية والأراجيز الحماسية التى تناشدها العرب فى ذلك اليوم وحض بها بعضـــهم بعضـــاً على القتال ، ما قالته امرأة من عجل من بنى شيبان :

ان تهـــزموا نعـــانق ونفرش النمـــــارق [1]
أو تهـــزموا نفـــارق فـــراق ، غـــير وامـــق

الى غير ذلك من الشـــعر الذى ينطلق دفعـــاً دفعاً ، ويصور بلفظه وموسيقاه ، مواقف الشدة وحركات الهجوم ، وومضات الأسنة ، والتحام الأبطال بالأبطال ، وانفجارات الصدور والنفوس • وهذه المقاطع الشعرية أشبه شىء بمقاطع • الالياذة ، فى وصف هجوم الطراودة والتحام القتال بينهم وبين الاغريق[2] •

وأما أيام القحطانيين فيما بينهم فأشـــهرها يوم حليمة للحارث الأعرج بن جبـــلة ، ملك العرب بالشـــــام ، على المنذر بن المنذر بن ماء السماء ، ملك العرب بالحيرة •

---

(١) النمارق نمرقة وهى الوسادة الصغيرة أو الطنفسة فوق الرحل .
(٢) أنظر الحماسة والفخر ص ٥٧ — ٥٨ دار المعارف .

وأما أيام القحطانيين والعدنانيين فمن أشهرها يوم حجر لبنى أسد على حجر والد امرىء القيس الشاعر المشهور ، وأخبار ذلك اليوم معروفة متداولة فى كتب الأدب ، لما للملك الضليل من أهمية فى أدب الجاهلية .

وأما أيام ربيعة فيما بينهم فأشهرها حرب البسوس التى دارت بين بكر وتغلب ابنى وائل ، وقد دامت أربعين سنة . وان فى حرب البسوس من المواقف ، وان فيها من الشعر ما هو أشبه شىء بمواقف الياذة هوميروس وشعرها . وحرب البسوس — على حد قول سليمان البستانى فى مقدمة الالياذة — « حرب تناقل العرب أخبارها وتناشدوا شعرها ، على ممر القرون حتى أيامنا هذه ، وصاغوها بقوالب شتى لا يصلح قالب منها لصوغ الملاحم التامة كالالياذة . ومع هذا فان جميع ما قيل فيها من الكلام المنظوم أقرب نسبة الى الشعر القصصى منه الى الموسيقى ، فكل قصيدة منها قطعة من ملحمة . ولكن تلك القطع غير ملتئمة لفقدان اللحمة بينها ، فهى كالحجارة المنحوتة قد أحكمت صنعتها ، وبقيت ملقاة فى أرضها غير مرصوصة بالبناء . ثم اذا نظرت الى أشهر الرجال والنساء فيها ، رأيتهم جميعهم شعراء ، فكليب يقول الشعر ومثله زوجته جليلة ، وأخوه مهلهل ، وكذلك مرة شاعر ، وابنه جساس شاعر ، وكل ذى شأن فى القصة من غريب وقريب شاعر ، كالحارث بن عباد وجحدر بن ضبيعة » .

ومن الأناشيد الحربية والقصائد الملحمية التى قيلت فى حرب البسوس قول مرة مخاطباً ابنه جساس :

فان تك قد جنيت على حرباً ... تغص الشيخ بالماء القراح

جمعت بها يديك على كليب ... فلا وكل ولا رث السلاح [1]

ولكنى الى العلات أجرى ... الى الموت المحيط مع الصباح [2]

وانى حين تشتجر العوالى ... أعيد الرمح فى أثر الجراح [3]

---

(١) الوكل : العاجز .
(٢) بنو العلات : بنو رجل واحد من امهات شتى .
(٣) تشتجر : تتداخل .

شـــديد البأس لبس بذى عياء ... ولكنى أبوء الى الفـــــلاح
ســـألبس ثوبها وأذب عنهـا ... بأطراف العوالى والصــفاح[1]
فمـا يبقى لعزته ذليـــــل ... فيمنعه من القـــدر المتـــاح
فانى قد طربت وهاج شـــوقى ... طـراد الخيل عارضـــة الرماح
وأجمـل من حيـــاة الذل موت ... وبعض العـار لا يمحـوه ماح

ومن ذلك أن الحارث بن عباد أرسل الى المهلهل وقال : ان كنت قتلت بجيراً بكليب ، وانقطعت الحرب بينكم وبين اخوانكم ، فقد طابت نفسى بذلك • فأرسل اليه المهلهل : أنما قتلته بشسع نعل كليب • فغضب الحارث ودعا بفرسه — وكانت تسمى النعامة — فجز ناصيتها وهلب ذنبها[2] ، ثم قال قصيدة منها :

كل شىء مصـــــيره للزوال ... غير ربى وصـــالح الأعمـــال
وترى الناس ينظـرون جميعـاً ... ليس فيهم لذاك بعض احتيـال
قل لأم الأغــر تبكى بجـيراً ... ما أتى الماء من رؤوس الجبـال
لهف نفسى على بجـــير اذا ما ... جالت الخيل يوم حرب عضـال
وتســاقى الكماة ســـما نقيعاً ... وبدا البيض من قبـاب الحجال

ونجدفى شعر الجاهلية مقطوعاتفى الفخر والحماسة تفخر فيها المرأة بقومها ، الأمر الذى يدل على شـــعورها بالعـــزة والأنفة وهو مما يتفق والمنزلة التى كانت تتمتع بها القبيلة والجماعة والمرأة حســاسة بطبيعة الأمر وتشعر بالواجب الذى عليها ازاء القبيلة ولا تدخر وسعا فى ذلك وبخاصة فى مجال الاشادة والتمدح بقومها ولاسيما فى مواطن المنافسة والخصومة ، والتسابق الى فعل المكرمات والشاعرات اللاتى اشـــتهرن بالفخر كثيرات وخاصة من بنات الأشراف والرؤساء اذ كان شـــعورهن بعلو المنزلة يســاعدهن على أن يبرزن فى هذا الفن ومنهن عاتكـــة بنت عبد المطلب تقول مفتخرة بقومها :

---

(١) الصفاح : السيوف العراض .
(٢) هلب ذنبها : نتفه .

سـائل بنا فى قومنا وليكف من شر سماعه
قيسا وما جمعوا لنا فى مجمع باق شناعه
فيه السنور والقنا والكنس ملتمع قناعه
بعكاظ يعشى الناظرين اذا هموا لمحوا شعاعه
فيه قتلنا مالكا قسراً وأسلمه رعاعه
ومجدلا غادرنه بالقاع تنهشه ضباعه [1]

فهى تفخر بانتصار قومها على قيس برغم كثرة عدتهم وعددهم وتذكر قتل مالك سيد قيس ومن هذا يتضح جليا ان المرأة فى البيئة الجاهلية ما كانت تتخلف فى مفاخرتها عن الرجل من حيث الاسلوب والمعانى التى تناولتها وهى تقف الى جانب الشاعر تدافع عن القوم كما يدافع وتفخر بالوقائع والانتصارات وترد على الخصوم [2] . كما نرى المرأة الجاهلية تتلهف على أدراك الثأر والتشوق لغسل الدم ومحو العار وقد قلن شعراً فى التحريض على الحرب وتشجيع المقاتلين ، وكن يحتقرن الدية وقابل الدية .

ألا لا تأخذوا لبنا ولكن [3] أذيقوا قومكم حد السلاح
فان لم تثأروا عمرا بزيد فلا درت لبون بنى زياد

وقد تناول الشاعرات هذا الفن وأبدعن فيه اذ أنه يتصل اتصالا وثيقا بفن الرثاء (مجالهن الأول) فانهن حين يبكين المرثى يعرجن على الفخر به والتحدث بخصاله ونجد فى شعرهن مقطوعات فى الفخر والحماسة (وبخاصة فى الشعر الجاهلى) تفخر فيها بقومها الأمر الذى يدل على شعورها بالعزة والأنفة والحمية ، وهو مما يتفق

---

(١) الحماسة لأبى تمام ج ٢ : ص ٧٤١ .
(٢) شرح المرزوقى .
(٣) واللبن جمع لبون وهى الناقة ذات اللبن .
(*) المراة فى الشعر الجاهلى : د. على الهاشمى ص ٢٩٨ . المراة فى الشعر الجاهلى : د. الحوفى ٦٢٨ .

والمنزلة التى كانت تتمتع بها المرأة بين القبيلة والجماعة، والشاعر فكانت تحس بالواجب كما يحس الشاعر به فيما يتعلق بالتعصب لقبيلتها والذود عنها متخذة من مواطن الشرف فيها ، ومن أعمالها المجيدة وأيامها المشهورة مادة ، تستعين بها على الاشادة بذكرها ولا تدخر وسعا فى ذلك وخاصة فى مواطن المنافسة والخصـــومة ، والتطاول بين القبائل تقول الخرنق وهى تخاطب بنى أسد وقد قتلوا زوجها : —

ألا لا تفخرن أســـد علينـــا
بيـــوم كان حينـــا فى الكتـــاب

فقـــد قطعت رؤوس من قعـــين
وقد نقعت صــــدور من شراب

وأردينا ابن حســحاس فأضــــحى
تجـــول بشــــلوه نجس الذئاب

تقول لا يحق لأحد أن يفخر علينا فان الانتصار أو الانهزام بيد الله ومقضى به من عند الله تعالى .

وفى القصـــيدة تفخر على بنى أسد ، وتذكرهم بايقاع قومها بهم وقتلهم ابن حسحاس أحد بنى أسد ، قتله ضبيعه بن قيس وقالت أيضا فى ذلك :

سمعت بنو اســد الصــياح فزادها
عند اللقـــاء مع النفـار نفــارا

ورأت فوارس من صـــــليبة وائل
صبروا اذا نقـــع السنابك ثـــارا[1]

بيضـــا يحززن العظام كأنمـــا
يوقدن فى حلق اللغـــافر نـــارا[2]

تقول لما سمع بنو أســـد جلبة جيشـــنا العظيم زادهم ذلك نفارا

(١) صليبة وائل : اى نسل وائل ، والنقع : غبار المعركة والسنابك : حوافر الخيـــل ، والمغافر جمع مغفرة ، وهى زرد يقى الراس .
(٢) البيض : السيوف ، يحززن : يقطعن .

وفرارا وروعا ثم تصف جلد وشجاعة قومها اذا استعرت نيران الحرب وانتشر غبار المعركة ، وأن قومهـا فى المعـركة يحززن عظـام أعدائهن ويقطعنها بضربات قوية يتطاير منها الشرر وقالت فى هذا المعنى :

لقــد علمت جـــديلة أن بشرا ... غــداة مريح مــر التقاضى [٦]

غداة أتاهــم بالخيــل شــعثا ... يدق نسورها حد القضاض [٧]

عليهــا كل اصــيد تغــلبى ... كريم مركب الحدين ماض [٨]

بأيديهم صـــوارم مرهفــات ... جلاها القين خالصة البياض [٩]

وقالت تفخر بقومها :

لا يبعـــدن قومى الذين هـــــم
ســـم العداة وآفة الجــزر [١٠]

النــــــازلون بكـــــل معترى
والطيبـــون معـــاقد الأزر [١١]

الضــــــاربون بحـــومة نزلت
والطـــاعنون باذرع شـــعر [١٢]

والخـالطون لجينهم بنضـــارهم
وذوى الغنى منهم بذى الفقــر [١٣]

---

(٦) جديلة يقصد بها بنى اسد ، ومريح لعله يوم من ايام العرب .

(٧) الشعث : جمع اشعس وهو مغبر الرأس .

(٨) الأصيد : ذو الصيد اى الكبر ، وكريم المركب اى أصله كريم .

(٩) مرهفات : ماضيات ، والقين : الحداد .

(*) رياض الأدب ص ٣٢ .

(١٠) لا يبعدن : تدعو لهم بالبقاء وعدم الهـلاك ، والسم بتليث السين : معروف ، والجزر جمع جزور . وهو البعير .

(١١) المعترك : موضع المعركة ، ومعاقد جمع معقد وهو مكان ربط الازار وهو ما يشد على الوسط مسبلا منه على أسفل الجسم ما يستره كناية عن ظهرهم وعدم ارتكابهم المنكرات .

(١٢) الحومة : الحرب ، وذرع شعر اى ذوات الشعر اى أن أيديهم قوية على رمى السهام .

(١٣) اللجين : الفضة والنضار : الذهب .

ان يشربوا يهبـــــوا وان يذروا
يتواعظـوا عن منطـق الهجر (١٤)

قوم اذا ركبـــوا ســـمعت لهم
لغطـا من التـأييه والزجـر (١٥)

من غير ما فحش يكـــون بهـــم
فى منتج المهـــرات والمهـر (١٦)

لاقـــوا غـــداة قلاب حتفهـم
ســـوق العتير يسـاق للعتر (١٧)

هذا ثنـــائى ما بقيت لهـــــم
فاذا هلكت أجننى قبـــــرى (١٨)

تدعو الشاعرة بألا يبعد أقرباؤها او أحباؤها الذين قضوا وهلكوا وقد وصفتهم أولا بالشجاعة والنجدة والاقدام وأنهم يقاتلون اعداءهم كما يقتلهم السم ووصفتهم ثانيا بالكرم ونحر الابل للأضـيـاف فكأنهم آفة للابل تصيبها فتهلكها ، كما أنهم ينزلون عن الخيل عند ضيق المعترك فيقاتلون على اقدامهم وفى ذلك الوقت يتداعون (نزال) كما قال قائلهم :

ودعـــــــوا نزال فكنت أول نازل
وعـــلام أركبـــــه اذا لم أنزل

كما وصفتهم بالطهارة والعفاف لأن العرب تكنى بالشىء عما يحويه أو يشـــتمل عليه ، فاذا وصـــفوا أحداً بطهارة الكم أو الردن أرادوا أنه لا يسرق ولا يخون واذا وصفوه بطهارة الجيب أرادوا أن قلبه لا ينطوى

---

(١٤) الهجر : الفحش .

(١٥) اللغط : الأصوات المختلطة والجلبة ، والتـأييه : الصـوت والدعـــاء .

(١٦) يزجرون خيلهم بعفاف من السنتهم .

(١٧) والعتير عند عرب الجاهلية شـــاة كانوا يذبحونها فى شـــهر رجب للعتر وهو صنم من أصنامهم .

(١٨) أجننى : سترنى أى اذا هلكت أنقطع ثنائى عليهم .

على غش ولا مكر لوقوع الجيب على الفؤاد او قريبا منه فكذلك كنوا عن عفة الجسد بطهارة الازار فى كونه اى نقائه وطيبه .

كما أنهم خالطوا خاملهم برفيعهم وغنيهم بفقيرهم فاكتسبوا منهم الغنى والخصـال الحميدة فليس فيهم خامل ولا فقير ، كما وصـفتهم بالسماحة والكرم وقت سكرهم ، وانتقد علماء الشعر قولها هذا حتى قال العلامة البغدادى : (ليس هذا مدحاً تاماً لأنها جعلت العلة فى كرمهم شرب الخمر ولو قالت انه جواد فى الحالين لكان أوفق) [١٩] .

واسـتطردت تصف قومها بالشـجاعة والكثرة وأنهم اذا ركبوا اختلطت اصواتهم لكثرتهم وهم يزجرون خيلهم بعفاف من السـنتهم وتختم قصيدتها قائلة هذا ثنائى ، واننى دائمة الثناء عليهم حتى الموت فاذا اجننى قبرى انقطع ثنائى عليهم .

وقد جعلتهم مجمع المآثر ، ومنتدى المحامد والمفاخر فى : —

١ — البطولة والشجاعة والاقدام فى القتال والتمرس بالحروب وملاقاة الكروب حيث وصفتهم بأنهم سم العداة ، واذا ركبوا صاحوا فى الخيول ، ودقوا الطبول وزأروا كالأسود .

٢ — الكرم والجود والعطاء بدون حساب حيث وصفتهم بانهم آفة الجزر وبأنهم حين يشربون يتسابقون الى العطايا ويتنافسون فى الهبات وهذا شأن الكرماء الأجواد الذين يحرصون على الحمد والثناء .

٣ — العفة والطهر والشرف والبعد عن مواخير الخنا ومعـاطن الزنا فهم طيبو الاعراض طاهرو الاخـلاق شريفو الأنسـاب كريمو الأحساب .

٤ — العدالة الاجتماعية والنزعة الديمقراطية والتسـامى على الطائفية ، واحترام الرحم وتقديس القرابات والتعاون على الخير وعدم الأنانية ، وهم يعطون النازلين فى جوارهم مثل ما يتمتعون به من حقوق

---

(١٩) خزانة الادب ٢ : ٣٠٦ .

ويأبون أن يكون منهم فقير لا يرتشف من رحيق الغنى ولا يتنتف من سلاف المال الكثير [٢٠] .

ونلاحظ أن القصيدة جاءت خالية من التكلف لا تعمل فيها ولا تعسف كما نرى فيها بلاغة الايجاز الذى يحمل بين طياته المعنى الكثير هذا الى جزالة اسلوبها وقوة تراكيبها ودقة صياغتها ورقة عبارتها فهى لوحة فنية رائعة تريك المكارم والمحامد ناطقة أمامك .

وقد حرضت كبشة أخت عمرو بن معد يكرب الزبيدية قومها على الثأر لأخيها عبد الله حين هم أخوها عمرو بقبول الديه أو حين توهمت أنه سيقبلها فتحدثت بلسان القتيل مهتاجة حميتهم ناهية عن قبول الدية وعن طاعة عمرو منددة بهم ان لم يثأروا مشبهة اياهم بالنعام فى جبنه وفراره ثم قالت لهم وأنتم أذل الناس فلا تردوا الماء الا بعد ان تفرغ طوائف الرجال والنساءالطاهرات من الحيض .

وأرسل عبد الله اذ حان يومه	الى قومه لا تعقلوا لهم دمى
ولا تأخذوا منهم افالاً وأبكراً	وأترك فى بيت بصعدة مظلم
ودع عنك عمراً ان عمراً مسالم	وهل بطن عمرو غير شبر لمطعم
فان أنتم لم تثأروا واتديتم	فمشوا بآذان النعام المصلم
ولا تردوا الا فضول نسائكم	اذا ارتملت أعقابهن من الدم

وغرض كبشة — كما اسلفنا — تحضيضهم على ادراك الثأر وترك التباطؤ والتكاسل وألا يأخذوا من القتلة صغار الابل وبكارتها فيتركوا عبد الله (أخاها) فى قبر مظلم بصعدة وانما كان قبره مظلما لأنهم كانوا يزعمون أن المقتول اذا ثأروا به أضاء قبره ، فان أهدر دمه أو قبلت ديته بقى قبر مظلماً ثم يستطرد فى تحريضهم على القتال والأخذ بثأرهم والا فعليهمأن يمشوا أذلاء بآذان مجدعه كآذانالنعام كأنها تقول لهم اذافعلتم ذلك وقبلتم الدية وأعرضتم عن الحرب فتأخروا عن المواطن كلها والمناجع ، وتخلفوا عن المشاهد والموارد ، والبسوا الذل راضين به

(٢٠) مختارات من الأدب ، ٤٣٨ : ٤٣٩ .

فان مآل أمركم مع تضييعكم دم صاحبكم الى مثل ذلك وكان عادتهم اذا وردوا المياه أن يتقدم الرجال ثم العضاريط والرعاة ثم النساء اذا صدرت كل فرقة عنه ، فكن يغسلن أنفسهن وثيابهن ويتطهرن آمنات مما يزعجهن غير مستعجلات فمن تأخر عن الماء حتى تصدر النساء فهو الغاية فى الذل (٢١) .

وكثيراً ما حرضت الخنساء على الثأر لأخيها صخر ..

ولن أسالم قوماً كنت حربهم — حتى تعود بياضا جؤنة القار (٢٢)

لا نوم حتى تعود الخيل عابسة — ينبذن طرحا بمهرات وأمهار

أو تحفزوا حفزة والموت مكتنع (٢٣) — عند البيوت حصينا وابن سيار

فتغسلوا عنكم عاراً يجللكم (٢٤) — غسل العوارك حيضا بعد اطهار

وفى مكان آخر تفتخر وتشيد بمن يشفى حتفها فيثأر لها كما شادت الخنساء بقيس بن عامر الجشمى اذ قتل هاشم بن حرملة الذى قتل أخاها معاوية فمدحته وفدته بنفسها — وببنى سليم كلهم ظاعنهم ومقيمهم وذلك لأنه اقر عينها فذاقت النوم بعد الأرق الطويل (٢٥) .

فدى للفارس الجشمى نفسى — أفديه بمن لى من حميم

أفديه بكل بنى سليم — بظاعنهم وبالأنس المقيم

كما من هاشم أقررت عينى — وكانت لا تنام ولا تنيم

خصصت بها أخا الأمرار قيسا — فتى فى بيت مكرمة كريم

---

(٢١) شرح الحماسة للمرزوقى ٢١٧ — ٢١٩

(٢٢) جؤنة : سواد تقول لاسلام حتى يعود سواد القار الى البياض

(٢٣) مكتنع : دان

(٢٤) العوارك : الحوائض .

(٢٥) المرأة فى الشعر الجاهلى ٦٣١

الفصل الثالث

الغـــــزل

لا نعرف من هو أول عربى تغزل شـــعراً ، ولا نســـتطيع أن نتخيل الأوصاف التى رسم بها أول امرأة عربية كانت موضع الغزل ، فقد ضاعت المصـــادر ، وضـــل المؤرخون فى بيداء التخمين فأرســـلوا أقوالاً غريبة متناقضة ، فلم نعلم علم اليقين من هو الشاعر الغزل الأول • ولن نصدق أن أول غزل عربى كان على هذا الشكل الذى روى لنا فى معلقات الشعراء ، فالأمم جميعاً طفولة فى الأدب ، ولا يصح أن يشذ الأدب العربى عن هذه الطفولة فيبدأ بالشعر المجود الفخم الذى نقرؤه ونفهمه ونســـتطيع أن نقلده ، ومن المعروف أنه ليس من سبيل للفرنسى أن يقلد الشعر القديم الفرنسى ، وليس للألمانى أن يجد الشبه بين شعره اليوم وشعره القديم •

وقد قرأنا مصـــادرنا الأدبية فوجدنا أنها تختلف فى أولية الشـــعر الجاهلى ، ووجدنا أن النقد الحديث يشك فى نسبة هذا الشعر الى قائليه لبعد الزمن بين الثول والجمع ، فلم نجد حيلة فى الحديث عن أوائل الغزل العربى الا هذا الشعر الذى وصل الينا على أنه شعر الجاهلية الثانية • ولعل هذا الشعر يشـــبه الجاهلية الأوى ، ونحن نعرف أن العربى يقلد فيأخذ ناشىء عن مسن ورواية عن منشد ، يتدراسونه فى أسواقهم وفى سمرهم وفى اجتماعاتهم ، فيتشبه شاعر بشـــاعر لضيق المجال وموطن الاختراع ، وهذا يبعث المشاكل فى النقد والدراســـة وتاريخ الشـــعر وتحليله • غير أننا مضطرون الى متابعة الأدباء القدماء فى ترتيبهم لأزمان الشعراء ، حتى تتبين لنا نظرية علمية فى ترتيبهم ووثائق فى تأريخهم ، فالنقد هين ولكن البناء عسير [1] •

وامرؤ القيس : هو أول من وقف واستوقف وبكى واســـتبكى ،

---

(1) أنظر الغزل ج ١ د/محمد سامى الدهان،دار المعارف ١٦ — ١٧

فانهم يجدون فيه الغزل الأول ، وقف على الديار يبكى الأحبة ، وطلب الى أصحابه أن يشاركوه الأسى فى الحزن لفراقهم • فالغزل بدأ حزيناً وولد باكياً كما يولد الانسان ، وظل كذلك فيما نرى خلال العصور لا يشذ الا فى القليل النادر • ولعل مرد ذلك الى شقاء الحياة وأتعابها بين الرمال والخيم وقسوة الجزيرة على السكان والاضطرار الى الرحيل والتنقل • وهذا الشقاء نفسه خلق الغزل ، فهناك لقاء بين الحبيب والحبيبة ما يلبث أن ينقطع وهناك سعادة ما تلبث أن تزول ، وهذا الانقطاع والارتحال فى سبيل الكلأ أو السعى الى التجارة أو الرحيل الى الغزو أو الانتقال فى مصالح الحياة طبع الغزل بطابع الفرح للقاء والحزن للوداع وجعله أمانى متلاحقة ودعاء متواصلا فى سبيل واحد هو الاجتماع الذى لا تفرق بعده ، اللهم من رزق الغنى والترف والامارة والفراغ فهو على شىء من الاختلاف غير يسير ، وذلك شأن الملك الضليل كما سماه المؤرخون •

فلقد عاش امرؤ القيس فى يسر من العيش ورخـــاء ، فاجتمع الى النساء اتصل بهن وتفرغ لهن فوصفهن ورسم لنا خلواته اليهن وأسفاره معهن ولحـــاقه بهن فكأن حياته حياة زير نساء وكأن أيامه أيام غزل وتشبيب ، وهو مع ذلك كله أول من بكى واستبكى فى غزله ! ••

والذين نقلوا الينـــا ديوانه جمعوا فيه هذا اللقاء المتواصـــل وهذا الرحيل المتتابع لا فى سبيل الكسب والتجارة وانما فى سبيل المرأة ، فجاءت فيه أيامه الخاصة وغزواته عند النساء واغاراته عليهن وفوزه وانتصاراته فى ذلك كله • وفى تلك الأيام صور حية لما كان بينه وبينهن ، فيوماً عقر المطية للعذارى وقضى سروره ولذته فقال :

ويوم عقرت للعـــــذارى مطيتى فيا عجبـــاً من رحلهـــا المتحمـــل

فظـــل العذارى يرتمين بلحمهـــا وشـــحم كهداب الدمقس المفتل

والنابغة الذبيانى من مشاهير شعراء الجاهلية يعد فى الطبقة الأولى عند كثير من النقاد وقد تغزل ووصف النساء فقال من قصيدة :

غراء أكمـــل من يمشى على قدم حســـنا وأملح من حاورته الكلما

فهى بيضـاء وهى أحسن النسـاء بل أحسـن من يمشى على قدم حسنا وملاحة ثم وصفها فى قصيدة اخرى فقال :

قامت تراءى بين سـجفى كلة كالشمس يوم طلوعها بالأسعد[١]
أو درة صـدفية غواصـها بهج متى يرها يهل ويسجد [٢]
أو دميـة من مرمـر مرفـوعة بنيت بآجر يشـاد وقرمد [٣]
سقط النصيف ولم ترد اسـقاطه فتنـاولته واتقتنـا باليـد [٤]
بمخضـب رخص كأن بنـانه عنم يكاد من اللطـافة يعقد [٥]
نظرت اليك بحاجة لم تقضـها نظر السـقيم الى وجوه العود

حتى يقول :

لو أنها عرضت لأشـمط راهب عبد الاله صرورة متعبـد [٦]
لرنا لرؤيتها وحسن حديثهـا ولخـاله رشـداً وان لم يرشـد

فهى بيضاء كالشمس وهى درة جميلة ودمية مرمرية ، وحين سقط خمارها ظهرت أصـابعها المخضبة ، ونظراتها ناعسة ، ولو أنها عرضت لراهب مسن لم يعرف النساء عمره لجن بها • وقد نقل الرواة أن هذه القصيدة قيلت فى المتجردة زوجة النعمان ، وأن المنخل اليشكرى كان يحبها وقد وصفها فى قصيدة جميلة قال فيها :

ولقـد دخلت على الفتـا ة الخـدر فى اليوم المطـير
والكاعب الحسـناء تر فل فى الدمقس وفى الحرير
فدفعتهـا فتدافعت مشى القطـاة الى الغـدير
ولثمتهـا فتنفسـت كتنفس الظبى البهـير

---

(١) السجف : الستر الرقيق — برج الأسـعد : بر ج الحمـل ، والشمس تكون فيه على اكمل ضياء .
(٢) الدرة : اللؤلؤ .
(٣) الدمية : التمثال من المرمر — القرمد : الخزف المشوى .
(٤) النصيف : الخمار وهو نصف الثوب .
(٥) البنان : الأصابع — العنم : شجر لين الأغصان أحمر اللون .
(٦) الراهب : المتعبد الأشمط : الأشيب — صرورة : الذى لم يتزوج .

وبـــدت وقالت يا منخــــ ل ما بجســـمك من فتـــور
ما مس جســــمى غير حبــــك فاغربى عنى وســـيرى

وبعيد بين ما نسب الى النابغة وما ألصق بالمنخل ، ولكننا نرويه على أنه من الغزل فى العصر الجاهلى لنصل الى أن النابغة لم يخرج فى أوصافه عما عرفنا من ألوان عند امرىء القيس ، وقد زاد عليه اليشكرى فى ألوانه فشبهها بالقطاة تمشى الى الغدير وأنها تتنفس كتنفس الظبى البهير .

والأعشى (ميمون بن قيس) وحده يقف مع امرىء القيس فى صف واحد أمام محراب الغزل ، فقد تغزل بالنساء واعترف بأنه كان يسبيهن ويخرجهن من خدورهن ، وأنه ظل عمره يحن الى لقائهن والتغزل بهن ، فوصفهن بأوصاف رقيقة جميلة منها قوله :

حـــرة طفـــلة الأنامــــــل ترتــــب خـــــاماً تكفه بخــــلال [1]
وكأن الســــــموط عكفهـــــا اللــــك بعطفى جيـــداء أم غزال [2]

فهى لينة الأنامل والشعر وقلائدها أشبه بشعر علق بجيد غزال . أما لون الوجه وأعضاء الجسم فقد فصل الشاعر القول فيه :

من كل بيضـــــــاء ممكـــــورة لهـــا بشر ناصـــــــع كاللبن [3]
عريضـــــــة بوص اذا أدبرت هضيم الحشا شختة المحتضن [4]

بيضاء ممتلئة بعض الشىء لونها أبيض ناصـــع وعجزها عريض فى بطن هضيم وحضن دقيق . وهنا زاد الأعشى فى وصف العجز والحضن فحسب . وغيرهم كثير من الشعراء المنعزلين . كعنترة وزهير .

والشاعرة كالشاعر تهوى وتتشوق وتتذكر وتتمنى واذا كانت شاعرة فان المتوقع أن تتغنى حبها فى شعر تزجيه العاطفة كما يتغنى الرجل ،

---

(١) طفلة : لينة — ترتب : تقتل — السخام : الشعر اللين : الخلال : المدرى وهو المشط .
(٢) السموط : القلائد — عكفها : علقها — الجيداء : طويلة العنق .
(٣) ممكورة : ممتلئة من اللحم مع دقة العظام — البشر : الجلد .
(٤) بوص : عجز — الحشا : ما فى البطن من الأمعاء — شختة : لطيفة ودقيقة — المحتضن : الحضن .

والمرأة تحب أربعين سـنة وتقوى على كتمـان ذلك وتبغض يوماً واحداً فيظهر ذلك بوجهها ولسانها والرجل يبغض اربعين سنة فيقوى على كتمان ذلك وان أحب يوما شهدت جوارحه بذلك [٢٦] وان شعر المرأة العربية لا يخلو من الغزل رغم حرصها على عدم اذاعته وهذا الغزل اذا ما قورن بغزل الشاعر الجاهلى تضاءل كثيراً والسر فى هذا ان حبها بطبيعته يكون صامتاً مكتوماً لأن النساء جبلن على الاستحياء من الجهر بحبهن بينما يحب الرجل فلا يطيق ان يكتم حبه أو يحبسـه ومن الغزل النسـوى قول الهلالية :

وما اوجد مسجون بصـنعاء موثق بسـاقيه من حبس الأمير كبول

وما ليل مولى مسـلم بجريرة له بعد ما نام العيـون عويـل

باكثر منى لوعـة يـوم راعنى فراق حبيب ما اليـه وصـول

ونرى الشاعرة العربية لا تستطيع ان تكتم الحب والشوق وتضحى فى سبيل ذلك : —

فان تضربوا ظهرى وبطنى كلاهمـا
فليس لقلبى بين جنبى ضـارب

يقـولون عزى النفس عمن تحبـه
وكيف عزاء النفس والشوق غالب [٢٧]

وقـولا لركبـان تميمية غدت
الى البيت ترجو أن تحط جرومها[٢٨]

بأن بأكنـاف الرغـام غريبـة
مولهـة ثكلى طويلاً نئيمها [٢٩]

مقطعة أحشـاؤها من جوى الهوى
وتبريح شـوق عاكف ما يريمهـا

---

(٢٦) المحاسن والأضداد ص ١٧٩ .
(٢٧) والمرأة فى الشعر الجاهلى د/ الحوافى ص ٦٥٥ .
(٢٨) جرومها : جمع جرم ، وهو الذنب .
(٢٩) النئيم : الصوت الضعيف الخفى أيا كان .

والشاعرة ترى فى طلعة حبيبها بهجة الدنيا واظلامها فى غيبته •

وما أحسن الدنيا وفى الدار خالد　　وأقبحهـا لمـا تجهـز غـازيا

وتقول خولة بنت ثابت :

يا خليـلى نابنى سـهدى　　لم تنـم عينى ولم تكـد

فشرابى ما أسـيغ ومـا　　اشـتكى ما بى الى احـد

كيف تلحـونى على رجـل　　آنس تلتـذه كبـدى

مثـل ضـوء البدر صـورته　　ليس بالزميـلة النكـد

نظـرت يوماً فلا نظـرت　　بعـده عينى الى احـد

وقالت أسماء المرية

وكان تزوجها رجل من تهامة ونقلها اليها ، فقالت له : ما فعلت ريح من نجد كانت تأتينا يقال لها : الصبا ، ما رأيتها ها هنا ؟ فقال : يحجزها عنا هذان الجبلان ، فقالت :

أيا جبـلى نعمـان بالله خليـا
نسيم الصـبا يخلص الى نسـيمها

فان الصـبا ريح اذا ما تنفسـت
على قلب محـزون تجلت همـومها

أجد بردها أو تشـف منى حرارة
على كبـد لم يبق الا صـميمها

أيا جبـلى وادى عريعرة التى
نأت عن نوى قوم وحم قدومها [٢٧]

ألا خليـا مجرى الجنوب لعـله
يداوى فؤادى من جواه نسـيمها

وكيف تداوى الريح شـوقاً مماطلا
وعيناً طويلاً بالدموع سـجومها

---

(٢٧) قال ياقوت : « عريعرة : نخل لبنى ربيعة باليمامة ، وقال الأصمعى : هى بين الجبلين والرمل ، وانشد البيت .. » .

الفصل الرابع

الهجـــــاء

عاش العرب فى جزيرتهم الأولى على شكل ابتدائى فيما يبدو ، فقد عرض الباحثون لطبيعة العبث والنهب والسلب وركوب الأخطار ، وصوروا العربى فى صفات لا تعلق الا بالقساة والمتوحشين (1) ورأوا أنهم كانوا يتنافسون على الرياسة ، وأنه قلما يسلم واحد منهم الأمر لغيره ولو كان أباه أو أخاه أو كبير عشيرته ، فتعدد الحكام والأمراء • ويضيف ابن خلدون ان العرب أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض للغلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة • وانتهى غيره الى أن العربى يثور على كل سلطة تحاول أن تحدد من حريته ولو كانت فى مصلحته ، فهو ديمقراطى مسرف فى الديمقراطية الى حد بعيد ، وهو عصبى المزاج ، سريع الغضب يهيج الشىء التافه ، ثم لا يقف فى هياجه عند غاية ، وهو أشد هياجاً اذا جرحت كرامته أو انتهكت حرمة قبيلته ، فاذا اهتاج أسرع الى السيف واحتكم اليه ، وبادر شاعره الى اللسان فسلطه فى شعر فيه الحماسة وفيه الهجاء المقذع يصور العدو هزيلا والمهاجم ضعيفاً ، ويبعث فى نسبه الضعف وفى خلقه الصغار وفى شكله الزراية •

ومـــرد هذا الخـــلق عند أكثر الباحثين الى طبيعة الأرض من فقر واجداب ، وضيق الأفق بالسكان ، فينتعش البؤس وتشـــتد الحاجة ، وتحمد الشـــجاعة والوفاء والكـــرم ، ويذم الجبن والخيانة والبخل ، وتتنخل الأنساب ، ويدور الشاعر الهاجى حول هذه الموضوعات ليصيب مقتلا من خصومه ، ويسرع الى القوافى والصور فيصب غضبه على الولاة والحكام والأمـــراء والملوك ، ويتناول المذاهب والأديان والعقـــائد ،

---

(1) لخص المرحوم احمد امين آراء النقـــاد فى كتابه فجر الاسلام ، ٤٦/١ وما تليها •

وينتصر لفريق على فريق ، كأنه فى حزب سياسى ، أو فى فرقة دينية ، أو فى دعوة سياسية واجتماعية ، كصحافة اليوم •

وكان من ذلك كله ديوان فى الهجاء كبير ، برع فيه الشعراء فى القول والبلاغة والفصاحة ، فعرضوا للأنساب والأحساب والأعراض والأخلاق فصوروها فى خيال صادق أو كاذب ، لا يبالون بما يعترض سبيلهم من سمعة تتحطم أو كرامة تهشم أو أرومة تهدم ، أو نسب ينهار أو عرض يفضح • فقد كان الهدف النصر على الخصم ليس غير ، يتناولونه من نواحيه فيبرزونه فى شكل مخز ، ويضعونه موضع السخرية والحطة والضعة ، فاذا بلغوا من ذلك ما يريدون انتصر هجاؤهم وظهروا على عدوهم واشتهروا بين الأقوام وارتفعوا الى ذروة الأدب •

والمهم أن الهجاء فن من فنون الأدب الرفيعة فى الأدب العربى قد يعين على تصور الحياة عند الأفراد وفى المجتمع وقد يساعد على تأريخ الحياة العربية حين يصدق الشاعر ، ويحذر المؤرخ فى بحثه حين يريد أن يعلم ما كان العربى يستحسن ويستقبح ، وما كان يذم ويقدح ، وأن يتبين ما كان العرب والمسلمون يجدونه من مثالب ومآخذ عند الشعب وعند الحكام ، وهو على ذلك يحوى ألواحاً من الصور تضاف الى الآداب الانسانية فى القديم والحديث ، فتغنى متحف الهجاء فى الأدب العالمى ، وتكسبه روعة لا تقل عن روعة الآداب الأخرى ، ان لم تزد عليها وتبزها وتسبقها الى ميادين النبوغ والعبقرية والالهام [1] •

ونلاحظ ان الشاعرة العربية قد شاركت فى باب الهجاء ولكن فى حدود ضيقة ولعل ذلك يرجع ايضا الى طبيعة المرأة وما جبلت عليه من رقة ونعومة ، ورهافة حس وذوق ، الأمر الذى يبعدها عن الدخول فى المصادمات والمشاحنات تلك الأمور التى تأنفها طبيعتها ، ويمجها ذوقها الرفيع ونسوق بعض هذه النماذج

لما خطب دريد بن الصمة الخنساء ورفضته قائلة ما كنت لأدع بنى عمى وهم مثل عوالى الرماح وأتزوج شيخاً وهجاها بقوله :

---

(١) انظر الهجاء د/ محمد سامى الدهان ص ١١ ، دار المعارف .

وقاك الله يا أبنــة آل عمــــرو ... من الفتيان أشــباهى ونفسى
وقالت اننى شــــيخ كبير ... وما نبأتهــــا انى ابن أمس
فلا تلدى ولا ينكحك مثـــلى ... اذا ما ليـــلة طرحت بنحس
تريد شرنبث القدمين شـــثناً ... يبــاشر بالعشـــية كل كرس

فأجابته بقولها :

معـــاذ الله ينكحنى حبركى ... قصير الشبر من جشم بن بكر
يرى شرفاً ومكرمة أتاهـــا ... اذا اغذى الجليس جريم تمر
ولو أصبحت فى جشـــم هديا ... اذا أصـبحت فى دنس وفقر
قبيلته اذا ســـمعوا بذعــر ... تخفى جمعهم فى كل جحر [٣٠]

وقد هجت الخرنق عبد عمرو بن بشر حين وشى بأخيها طرفة الى عمرو بن هند فقتله :

ألا ثكلتـــك أمك عبد عمرو ... أبا الخـزيات واخيت الملــوكا
هــم ركـــلوك للوركين ركلا ... ولو ســـألوك اعطيت البروكا
فيـــوما عند زانية هـــلوك ... كصل الرجع مزهرها ضحوكا

وهجت حميدة بنت بشير زوجها روح بن زنباع :

وهــل أنا الا مهـــرة عربية ... ســـليلة افراس تجللها بغــل
فان انتجت مهراً كريماً فبالحرى ... وان يك اقراف فما أنتج الفحــل

وقالت جهيرة الثعلبيـــة

وكان قد تقول عليها أحدهم أنها راودته عن نفسه فى شعر ، فقالت :

لحـــا الله قوماً أنت منهم فانهم ... لئام مساعيهم سراع الى الغدر
فلو كنت حـــراً يا لعين وقلت لى ... جميلا ومعروفاً ضعفت عن الشكر

---

(٣٠) راجع انيس الجلساء ديوان الخنساء الديوان : ١٢٠ شرنبث : غليظ الكفين أو الأصـــابع ، الكرس : البعر والبول المتجمد حبركى طويل الظهر قصير الرجلين ، جريم : تمريابس ، شثن : غليظ .

ومن شعر أم الأسود الكلابية

قالت تهجو زوجها :

سـأنذر بعدي كل بيضـاء حرة ... منعمة خـود كـريم نجـارها
قصير قبال النعل يضحى وهمه ... قريب ويمسى حيث يعشيه نارها
اذا قال قد أشبعتني بات راضياً ... له شملة بيضاء ضـاق خمارها
يرى الطيب عاراً أن يمس ثيابه ... أو المسك يوماً ان علاه صوارها
ولكنه من رطب أخثا صـنانه ... اذا أمرعت بالكف منه ديارهـا
وطـير بذيال يرى الليـل متنه ... لنـاقته حتى يحين اذ كرارها
بعيد المدى يقضى الكرى فوق رحله ... اذا القوم بالموماة حار شرارها
لعمر أبى ما خار لى أن يبيعنى ... بأبعرة اذ قمحته عشـارها
فوالله لولا النار أو أن يرى أبى ... له قوداً أو أن ينـالنى عارهـا
لقد نازعت كفى المهنـد ضربة ... وكان عليه خبلهـا وشـنارها

الفصل الخامس

الحكمـــة والمثـــل

تعريف الحكمة والمثل

جاء فى كليات ابى البقاء الحكم فى اللغة الصرف والمنع للاصطلاح ومنه الحكيم لأنه يمنع نفسه ويصرفها عن هواها — والحكمة هى العدل والعلم والحكم والنبوة ، ووضع الشىء فى موضعه وصواب الأمر وسداده وفى عرف العلماء هى اســتعمال النفس الانســانية باقتباس العلوم النظرية واكتساب الملكة التامة على الأفعال الفاضــلة قدر طاقتها وقال بعضهم — الحكمة هى معرفة الحقائق على ما هى عليه بقدر الاستطاعة وهى العــلم النافع المعبر عنه بمعرفة ما لها وما عليها المشــار اليه بقوله تعالى « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً » .

وجاء فى الكليات ايضا أن المثل اسم لنوع من الكلام وهو ما تراضاه العامة والخاصة لتعريف الشىء بغير ما وضع له من اللفظ يستعمل فى السراء والضراء وهو ابلغ من الحكمة [1] .

ويسمى الكلام الدائر فى الناس للتمثيل مثلا لقصدهم اقامة ذلك مقام غيره والشرط فى حسن التمثيل هو ان يكون على وفق الممثل له من الجهة التى تعلق بها التمثيل فى العظم والصغر والخسة والشرف وفى كلام العرب : أسمع من قراد ، وأطيش من فراشة ، وأعز من منح البعوض ونحو ذلك وقال المبرد المثل مأخوذ من المثال وهو قول سائر يشــبه به حال الثانى بالأول ، والأصــل فيه التشــبيه فقولهم مثــل بين يديه اذا انتصب معناه اشبه الصورة المنتصبة ، وفلان أمثل من فلان أى أشبه

---

(1) الحكم والأمثال ، ص ٦ ، دار المعارف .

(*) يجتمع فى المثل أربعة لا تجتمع فى غيره من الكلام ، ايجاز اللفظ ، واصابة المعنى وحسن التشبيه وجودة الكناية فهو نهاية البلاغة .

بما له الفضل ، والمثل : القصاص لتشبيه حال المقتص منه بحال الأول فحقيقة المثل ما جعل كالعلم لتشبيه بحال الأول كقول كعب بل زهير :

كانت مواعيد عرقوف لها مثــلا وما مواعيــدها الا الاباطيــل

الحكمة عند العرب :

العرب كغيرهم من الشعوب الشرقية عامة والسامية خاصة جيل شديد الميل الى ارسال الحكمة وضرب المثل وهما على لسانهم فى كل حال ، يدعمون بهما الأقوال ، ويعللون بهما الأعمال ، فيضربونهما فى كل فرحة وترحة ، ويوردونهمــا فى جميع أحداثهم وما يقصـــون من اجتماعهم وحياتهم ، حتى لتصــبح الأمثــال والحكم لديهم من ذخائر الدهر ، ومن سنن الحياة ، ومن أكاليل الشيخوخة ، ومن الأمور المعول عليه انى تنظيم الشئون البيئية والقبلية والقومية •

وللحكمة والمثل عند العرب محل واسع فى التقدير قال ابن عبدربه فى العقد الفريد (قد مضى قولنــا فى العلم والأدب ، وما يتولد منهما وما ينســب اليهما من الحكم النادرة والفطن البــارعة ونحى قائلون بعون الله وتوفيقه فى الأمثــال التى هى وشى الكلام ، وجوهر اللفظ ، وحلى المعانى فهى أبقى من الشعر وأشرف من الخطابة لم يسر شىء مسيرها ، ولا عمم عمومها [1] • حتى قيل أسير من مثل وقال الشاعر :

ما أنت الا مثــل ســـائر يعــرفه الجــاهل والخــابر

وقد ضرب الله عز وجل الأمثال فى كتابه وضربها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كلامه قال الله عز وجل :

« يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وقال « وضرب الله مثلا رجلين » • ومثل هذا كثير فى القرآن •

والحكمة والمثل من جوامع الكلم ، والحكمة تفيد معنى واحدا من

---

(١) الحكم والأمثال ، ص ١٠ ، دار المعارف .

نهى أوامر أو ارشاد والمثل يفيد معنيين : معنى ظاهراً ومعنى باطناً أما الظاهر فهو حدث من أحداث التاريخ أو ما الى ذلك وأما الباطن فمرجعه الى الحكمة والارشاد وهكذا يلتقى المثل والحكمة فى المؤدى ، وهكذا يجرى الواحد على اقلام بعض الكتاب فى موضـــع الآخر والمثل لفظة ســامية نجدها فى جميع اللغات الســامية وتعنى التشــبيه والموازنة أو المقارنة ، واكثر ما تنشــأ الأمثــال فى طــور البداءة من الشــعوب ، واكثر الشــعوب ميـــلا الى هذا النــوع من الكلام الشـــعوب السامية واكثر ما يقوم التشبيه فى الأمثال بين الانســان والحيوان ، ويستخلص من ذلك التشبيه سنة للحياة أو طريقة للابتعاد عن منقصة ، أو تحقير لحالة من الشعوب او ترغيب أو ترهيب أو ما الى ذلك .

وهكذا فالحكمة والمثل فلســفة الحياة الأولى ، ولهما فى تاريخ الفكر أهمية كبرى لا يدركها الا من تعمق فى دراسة نفسية الشعوب ، ودراسة التطور الفكرى عند البشر ، وقد نشأ المزل والحكمة فى الجاهلية نشوءا طبيعيا وهما يطلعاننا على عقلية القوم واتجاهات تفكيرهم ونظرتهم الى الحياة كما يوضحان لنا أساليب تعبيرهم .

ولم تكن الحكمة الجاهلية من نصـــيب النثر وحده بل تعدته الى الشعر ، فجاءتنا فى دواوين الشعراء رافلة فى ثياب الوزن والقافية مغلفة بغلاف الاسلوب الشعرى مدعومة بالتشبيه الجاهلى الحسى ، مزدهرة الجوانب ، حافلة بالصور الجاهلية المادية وان من أعمل النظر فى الأمثال الجاهلية وجدها مستقاة من حياة البدوى المادية والمعنوية والقبلية .

وللأمثال والحكم قيمة تاريخية ، وقيمة اجتماعية اخلاقية فهى تطلعنا على طبيعة البلاد وأحوال العباد كما تطلعنا على بعض أيام العرب وعلى طائفـــة من أحداثهم وعاداتهم كما تقفنا على نزعاتهم وعقلياتهم ونظرياتهم وزعماء المثل فى هذا العصر هم اكتم بن صيفى وزهير بن أبى سلمى ، ولبيد بن ربيعة وطرفه بن العبد وعدى بن زيد .

وانتقلت امثال الجاهلية وحكمها فى قسم كبير منهما الى الاسلام وذلك على السنة الرواة ثم زاد عليها الاسلام قسما آخر كبيرا مصطبغا

بصبغته ، متمشيا وروحه ، وان من تتبع تلك الأمثال والحكم وجد طائفة كبيرة منها فى القرآن الكريم وعلى لسان النبى صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين ولا سيما الحكم العظيم على بن أبى طالب ومن سار على حكمته من الأدباء والشعراء ولما جاء العهد العباسى وانتشرت حركة النقل وشاعت الثقافات العالمية بين العرب وانهال العلماء على كل علم يتدارسونه ويضعون له الأسس والأركان ويجددون له القواعد والغايات ، شاع التفكير الفلسفى فى كل جانب من جوانب المعرفة وراح العرب ينقلون الحكم والأمثال التى حفلت بها آداب الهند واليونان والفرس ويضفونها الى حكمهم وأمثالهم وقد اشتهر من هؤلاء الحكماء ابن المقفع وابو العتاهيه وأبو تمام وابن دريد وابو الطيب المتنبى والمعرى والبستى — وابن الوردى وغيرهم .

ولم تقصر المرأة العربية فى هذا الفن (فن الحكمة والمثل) فقد شاركت المرأة العربية الرجال فى ضرب الامثال والحكم وكن امثله رائعة فى هذا الفن ومنهن الجمانة بنت قيس بن زهير ، فكانت صائبة الرأى ذات حكمة وبيان ، وفصل فى معضلات الأمور كما حدث مع جدها الربيع بن زياد فلقد كان قيس بن زهير العبسى قد اشترى من مكة درعا حسنة ، تسمى ذات الفضول ورد بها الى قومه فرآها عمه الربيع بن زياد وكان سيد قومه فأخذها منه غضبا فقالت الجمانة بنت قيس لأبيها دعنى أناظر جدى ، فان صلح الأمر بينكما والا كنت من وراء رأيك فأذن لها فأتت الربيع فقالت :

اذا كان قيس أبى فأنت يا ربيع جدى ، وما يجب له من حق الأبوة لك الا كما يجب عليك من حق البنوة لى ، والرأى الصحيح تبعثه العناية وتجلى عن محضه النصيحه ، انك قد ظلمت قيسا بأخذ درعه ، وأخذ مكافأته اياك سوء عزمه والمعارض منتصر والبادىء أظلم ، وليس قيس بمن يخوف بالوعيد ، ولا يردعه التهديد فلا تركنن الى منابذته ، فالحزم فى متاركته والحرب متلفة للعباد ، ذهابة للطارف والتلاد والسلم أرخى للبال ، وأبقى لأنفس الرجال وبحق أقول لقد صدعت بحكم

وما يدفع قولى الا غير ذى فهم ثم أنشأت تقول :

أبى لا يرى ان يترك الدهـر درعه
وجدى يرى ان يأخذ الدرع من أبى

فرأى أبى رأى البخيـل بمـــانه
وشيمة جدى شيمة الخائف الأبى(١)

ومنهن عصـــام الكندية ، وأمامة بنت الحارث وعثمة بنت مطرود البجلية والحمراء بنت ســمرة بن جـــابر وحيى بنت مالك العدوانية . والعجفاء بنت علقمة السعدى والخنساء بنت عمرو بن الشريد ، والأمثلة التى أرسلتها المرأة العربية من الوجهة الأدبية والفنية تقوم على التشبيه والاســتعارة والتمثيل ، وهى لا تعدو الأمثـــال العربية الأخرى التى ساقها الحكماء — ووصلت صورة الكلام فيها الى الغاية القصـــوى فى البلاغة من حيث ايجاز اللفظ وصـــحة المعنى ، وحسن البيان ، ولطف الاشارة واصابة الغرض ، وصدق التجربة ، وتجعل النفوس ترتاح لها وتنشـــط لحفظها ، ليسر مئونتها ، وحسن وقعها ، وســـهولة الاحتجاج بها ، ولأنها تورث ما تخلله من الكلام رواجاً ، وتكسبه قبولا ، كما أنها مستقاة من حياة البداوة ، ومستوحاة من رمال الصحراء ، وطبيعة أرضها وســـمائها وحيوانها ونبـــاتها ، وعادات العرب وتقاليدهم وحروبهم وغزواتهم ، وحلهم وترحالهم وشجاعتهم وجودهم ، وعزهم وشرفهم وسائر أخلاقهم العربية ، فان رأت زوجها تخلف عن لقاء العدو واعتكف فى منزله ، ثم اغتاظ من نظرها واعجابها بالمقاتلين الشجعان ، انطلقت قائلة :

* أغيرة وجبنـــا *

فذهبت مثلا ، وان سئلت ما ليس فى بيتها ، فلما عز عليها عطاؤه ، وقيل لها : أتبخلين ؟ انطلقت قائلة :

* بيتى يبخـــل لا أنا *

---

(١) بلاغات النساء : ص ١٢٥ وجمهرة خطب العرب جـ ٢ ١٤٢ .

وقولها :

ترى الفتيان كالنخـــــل   وما يدريك ما الدخـــــل

وقد ظهرت فى العصر الجاهلى أديبات حكيمات اشــتهرن بضرب المثل والحكمة ، فذهب كلامهن مثلا ذائعاً ، يتمثل به فى جميع المواقف ، والمرأة من طبيعتها تجنح دائمــاً الى الحكمة وعــدم التسرع فى بعض الأمور ، وانها كثيراً ما تهتدى عن طريق شعورها وبصيرتها الى حقائق قد لا يستطيع الرجل ان يهتدى اليها بعقله وتفكيره المجرد (١) .

وقد نبغ فى مجال الحكمة نساء كثيرات ، كما قدمنا عثمة بنت مطرود البجلية والحمراء بنت ضمرة ، وحيى بنت مالك العدوانية ، وعصام الكندية ، والعجفاء بنت علقمة السعدى ، « والخنساء » بنت عمرو بن الشريد ، و « قذور » بنت قيس بن خالد الشيبانى ، والأمثلة الآتية : تبين مدى ما بلغت اليه المرأة من الدقة المتناهية فى صوغ الأمثال ، فجاءت أمثلة معبرة عن روح العصر الذى يعشن فيه كما تضمنت خلاصة تجاربهن فى الحياة وصارت أمثلة خالدة تعبر عن أدبهن ونبوغهن :

(لا تعــدم الحسناء ذاماً) (٢)

قالت حيى بنت مالك العدوانية .

(لا عتاب على الجندل)

يضرب فى الأمر اذا وقع لا مرد له .

وأصله ما حدثوا أن احدى ملكات سبأ ، وفد اليها قوم يخطبونها فقالت : ليصف كل رجل منكم نفسه ، وليصدق ، وليوجز . لأتقدم ان تقدمت ، أو أدع ان تركت على علم . فتكلم رجل منهم يقال له مدرك ، فقال : ان أبى كان فى العز الباذخ ، والحســب الشــامخ . وأنا شرس الخليقة ، غير رعديد عند الحقيقة (٣) ، قالت : « لا عتاب على الجندل » . فأرسلتها مثلا .

---

(١) « سيكلوجية المرأة » الدكتور زكريا ابراهيم ، مكتبــة مصر — الفجالة ص ٣٥ .

(٢) الذام : العيب

(٣) الرعديد : الجبان المستطار القلب ، والحقيقة : ما يحق على المرء أن يحميه ، وقد يريدون بها اللواء .

وقالت جمعة بنت الخس

أخت هند وهى من فاضلات النساء

أشـــد وجوه القول عند ذوى الحجا
مقـــــالة ذى لب يقـــول فيوجز (٣٤)
وأفضـــــل غنم يســـــتفاد ويبتغى
ذخـــــيرة عقل يحتويها ويحـــــرز
وخير خلال المرء صـــــدق لســـانه
وللصدق فضـــل يســــتبين ويبرز
وانجازك الموعود من ســــبب الغنى
فكن موفيـــــاً بالوعد تعطى وتنجز
ولا خير فى حـــر يريك بشــــــاشة
ويطعن من خلف عليـــــك وينمــز
اذا المرء لم يسطع ســياسة نفســـه
فان به عن غـــــيرها هو أعجـــز
وكم من وقور يقمع الجهــل حلمــه
وآخر من طيش الى الجهل يجمز (٣٥)
وكم من أصيل الرأى طلق لســــانه
بصـــــير بحسن القـــول حين يميز
وآخـــــر مأفون يلوك لســـــــانه
ويعجن بالكـــوعين نوكـــاً ويخبز
وكم من أخى شر قد اوثق نفســــــه
وآخـــر ذخر الخير يحـــوى ويكنز

---

(٣٤) الأبيات فى « بلاغات النساء » : ٦٢

(٣٥) جمز الانسان يجمز : اذا عدا ، وهو عدو دون الحضر الشديد وفوق العنق .

وقالت أخت الأسود الغفارى

تنهى قومها جديس عن الغدر بقبيلة طسم فعصوها فقالت [٣٦] :

لا تغدروا ان هذا الغدر منقصـــة
وكل عيب يرى عيباً وان صـــغرا

انى أخـــاف عليكم مثل تلك غـداً
وفى الأمـــور تدابير لمن نظـــرا

وكان [٣٧] لذى الاصـــبع العدوانى بنات أربع ، وكان لا يزوجهن غيرة ، فاســتمع اليهن مرة وهن لا يعلمن ، فاذا بهن يتناجين بأمانيهن ، فقالت كبراهن :

ألا ليت زوجى من أناس ذوى غنى
حديث الشبابطيب النشر والذكر[٣٨]

لصـــوق بأكبـــاد النســاء كأنه
خليفــة جان لا يقيم على هجر [٣٩]

فقلن لها : أنت تحبين رجلاً ليس من قومك ٠

فقالت الثانية :

ألا ليته يعطى الجمـــال بديئـــة
له جفنة تشـــقى بها النيب والجزر

له حكمــات الدهـــر من غير كبرة
تشـــين فلا فان ولا ضرع غمر [٤٠]

فقلن لها : أنت تريدين سيداً ٠

---

(٣٦) طسم وجديس قبيلتان من عاد انقرضنا درست آثارهما وكانتا فى اليمامة ٠

(٣٧) الخبر فى « الكامل » : ١٤٩/٢ ، ٠ « مختار الأغانى » : ٧٣/٣ ٠

(٣٨) فى « مختار الأغانى » : « طيب الريح والعطر » ٠

(٣٩) فى « مختار الأغانى » : « طبيب بأدواء .. لا ينام على وتر » ٠

(٤٠) الحكمات : جمع حكمة وأصلها الحديدة فى اللجام تمنع الفرس من مخالفة راكبه ، والمراد بها هنا التجارب ، لانها تمنع من ارتكاب ما لا يليق ، والضرع : الضعيف ، والغمر ، مثلث الغين : من لم يجرب الأمور ٠

فقالت الثالثة :

ألا هــل تراهـــا مرة وحليلهـــا

أشم كنصــل السيف عين المهند (٤١)

عليمــاً بأدواء النســاء ورهطـــه

اذا ما انتمى من أهل بيتى ومحتدى (٤٢)

وقلن للصـــغرى : ما تقــولين ؟ فقالت : لا أقول شــيئاً ، فقلن : لا ندعك وذاك ، أنك اطلعت على أسرارنا وتكتمين سرك ؟ فقالت : روج من عود خير من قعود !

فخطبن ، فزوجهن جمع ، ثم أمهلن حولا ، ثم زار الكبرى ، فقال لها : كيف رأيت زوجك ؟ قالت : خير زوج ، يكرم أهله ، وينسى فضله ، قال لها : فما مالكم ؟ قالت : الابل ، قال : وما هى ؟ قالت : نأكل لحماتها مزعاً ، ونشرب ألبانها جرعاً ، وتحملنا وضــعفتنا معاً ، فقال لها : روج كريم ، ومال عميم .

ثم زار الثانية فقال لها : كيف رأيت زوجك ؟ قالت : يكرم الحليل ، ويقرب الوسيلة . قال : فما مالكم ؟ قالت : البقر ، قال : وما هى ؟ قالت : تألف الفناء ، وتملأ الاناء ، وتودك السقاء ، ونساء مع نساء . قال لها : رضــيت وحظيت . ثم زار الثــالثة فقال لهـا كيف رأيت زوجك فقالت لا سمح ولا بخيل حكر (٤٣) قال فما مالكم قالت المعزى قال وما هى قالت لو كنا نولدها فطما (٤٤) ونسلخها أدما (٤٥) لم نبغ بها نعما فقال لها جذو (٤٦) هن قالت جوف (٤٧) لا يشبعن وهيم لا ينقعن (٤٨) ، وصم لا يسمعن ، وأمر مغويتهن يتبعن فقال أشبه امرؤ بعض بزه (٤٩) فأرسلها مثلا .

---

(٤١) فى « مختار الأغانى » : « الا هل اراها ..... غير مبلد » .
(٤٢) فى « مختار الأغانى » : لصوق بأكباد النساء واصله .
(٤٣) الحكر : المقتر .
(٤٤) الفطم جمع فطيم وهو ما فصلته امه عن الرضاعة .
(٤٥) الأدم جمع أديم وهو الجلد المدبوغ .
(٤٦) الجذو جمع جذوه وهى القطعة .
(٤٧) جوف : عظيمة الاجواف .
(٤٨) الهيم : العطاش ، ولا ينقعن : اى لا يرون .
(٤٩) بضرب مثلا للمتشابهين .

وقالت زرقـــاء اليمـــامة

قال الجاحظ : انها من بنات لقمان بن عاد وان اسمها « عنز » ، وقال العسكرى : اسمها اليمامة وبه سمى بلدها • وقيل : هى من بنى جديس • كان يضرب بها المثل فى حدة البصر ، فيقال : « أبصر من زرقاء اليمامة » ، اذ كانت تبصر الراكب على مسيرة ثلاثة أيام فيما يزعمون ، وكانت تنذر قومها من الجيوش الغازية ، فلا يأتيهم جيش الا وقـــد استعدوا له ، فاحتال لهـــا حسان بن تبـــع الحميرى ، وكان يبغى غزو قومها ، فأمر أصحابه ، فقطعوا شجراً وحملوه أمامهم ليتستروا به ، ولما أصـــبحوا على مسيرة ثلاثة أيام أبصرتهم الزرقاء فعلمت بالحيلة ، فقالت تنذر قومها :

خـــذو حذاركم ياقوم ينفعكم   فليس ما قد أرى بالأمـــر يحتقر

انى أرى شجراً من خلفها بشر   وكيف تجتمع الأشجار والبشر ؟

ثوروا بأجمعكم فى وجـــه أولهم   فان ذلك منكم فاعلمـــوا ظفـــر

ضموا طوائفكم من قبل داهيـــة   من الأمـــور التى تخشى وتنتظر

فقد زجرت سنيح القوم باكرة   لوكان يعلم ذاك القوم اذ بكروا

انى أرى رجـــلا فى كفـــه كتف   أو يخصف النعل خصفا ليس يعتسر

فغوروا كل مـــاء قبـــل ثالثـــة   فليس من بعده ورد ولا صدر

وعاجلوا القوم عند الليل اذ رقدوا   ولا تخافوا لهم حربا وان كثروا

وغوروا كل مـــاء دون منزلهم   فليس من دونه نحس ولا ضرر

فكذبوها ولم يستعدوا الحرب ففاجأهم حسان مـــع صحبه واجتاحهم فقتلت الزرقاء وقلعت عيناها •

وقالت أم ثواب الهزانيـة

وقد عقها ولدها ، فقالت [٥٠] :

ربيته وهو مثـــل الفرخ أعظمه ... أم الطعام ترى في جلده زغبا [٥١]

حتى اذا آض كالفحـــال شـــذ به ... أباره ونفى عن متنه الكربا [٥٢]

أنشا يمزق أثوابى ويضربنى ... أبعد شيبى عندى يبتغى الأدبا [٥٣]

انى لأبصر فى ترجيـــل لمتـــه ... وخط لحيته فى وجهــه عجبـــا

قالت له عرسه يوماً لتسمعنى ... رفقـــاً فان لنـــا فى أمنـــا أربا

ولو رأتنى فى نار مســـــــــعرة ... ثم استطاعت لزادت فوقها حطبا [٥٤]

وقالت امرأة أبى حمزة الضبى

حين هجرها زوجها حين ولدت بنتاً ، ومر يوماً بخبائها ، فاذا هى ترقص وتقول :

ما لأبى حمـــــزة لا يأتينـــــا ... يظـــل فى البيت الذى يلينا [٥٥]

غضـــبان أن لا نلد البنينـــا ... تالله ما ذلك فى أيدينـــــــــــا

وانمـــــا نأخذ ما أعطينـــا ... ونحن كالأرض لزارعينـــــا

ننبت ما قد زرعوه فينا

فرق لها وصالحها ...

---

(٥٠) الأبيات فى « الكامل » : ٢٣٩/١ ، و « حماسة ابى تمام » : ١٣٤/٢ . « والحماسة البصرية » : ٢٦٥ .

(٥١) فى الحماسة البصرية : « فى ريشه » بدل « فى جلده » .

(٥٢) فى الحماسة البصرية : آل كالفحال وهما بمعنى .

(٥٣) فى الحماسة البصرية : ابعد ستين .

(٥٤) فى الحماسة البصرية : من الجحيم لزادت .

(٥٥) « العقد الفريد » : ٤٨٢/٣ .

وقالت الخنساء :

جـــارى أباه فأقبـــلا وهما	يتعـــاوران ملاءة الحضر
حتى اذا نزت القـــلوب وقد	لزت هنـاك العذر بالعـــذر
وعلا هتـــاف الناس أيهمـــا	قال المجيب هنـــاك أدرى
برزت صـــحيفة وجه والده	ومضى على غلوائه يجـــرى
أولى فأولى أن يســـاويه	لولا جـــلال الســـن والكبر
وهمـــا وقد برزا كأنهمـــا	صقران قد حطا على وكـــر

وقالت رقيقة بنت أبى صيفى

هى رقيقة بنت أبى صيفى بن هاشم بن عبد المطلب الهاشمية بنت عـم العبـاس من بنى عبد المطلب ، وهى والدة مخـرمة بن نوفـــل والد المسور ، ذكرها غير واحد فى الصحابة ، وقد تتابعت على قريش سنون أمحلت الضرع وأدقت العظم ، فخرج عبد المطلب فى رجالات من قريش يستسقى ومعه رسول الله ﷺ وهو غلام قد أيفع أو كرب ، فما كاد ينتهى من دعائه حتى تفجرت السماء بما فيها واكتظ الوادى بثجيجه ، وفى ذلك تقول رقيقة :

بشـــيبة الحمد أســقى الله بلدتنا
وقد فقدنا الحيا واجلوذ المطـر [٥٦]
فجـاد بالمـــاء جونى له ســـبل
به تنفســت الأنعام والشــجر [٥٧]
منـــاً من الله بالميمون طـــائره
وخـــير من بشرت يومـاً به مضر
مبارك الأمر يســتســقى الغمام به
ما فى الأنام له عـدل ولا خطـــر

---

(٥٦) الأبيات فى « أسد الغابة » ٥/٤٥٥ ، واجلوذ ، أى : تأخر .
(٥٧) الجونى : السحاب الأسود .

وقالت أمامة[٣١] بنت ذى الاصبع وقد رأت أباها وكان هرما قد سقط بعد أن حاول النهوض متوكئاً على العصا فبكت فقال : —

جزعت أمامة أن مشيت على العصا ... وتذكــــرت اذ نحن م الفتيـــان

فلقبـــل ما رام الاله بكيـــده ... ارما وهـــذا الحى من عـــدوان

بعد الحكومة والفضـــيلة والنهى ... طـــاف الزمـــان عليهم بأوان

وتفرقوا وتقطعت أشــــلاؤهم ... وتبـــددوا فرقا بكل مكــــان

جدب البــلاد فأعقمت أرواحهم ... والدهر غيرهم مع الحدثان [٣٢]

حتى أبادهــم على أخراهـــم ... صرعى بكل نقــيرة ومكان [٣٣]

لا تعجبن أمام من حــدث عــرا ... فالدهــر غــيرنا مع الأزمان

---

(٣١) هى أمامة بنت ذى الأصبع العدوانى الشاعر الفارسى المشهور وكانت شاعرة مجيدة .

(٣٢) مختار الأعانى ٨٢/٣ طبع المكتب الاسلامى .

(٣٣) شاعرات العرب ٩ المكتب الاسلامى .

الفصل السادس

المـــدح

أعجب الشاعر العربى بالخلق الحميد والرأى السديد والشجاعة الفائقة والكرم الواسع ، كما أعجب بها غيره من شعراء الأمم القديمة والحديثة ممن قرأنا أمرهم فى التمهيد ، لذلك أثنى على الرجال المتفوقين والشجعان المشهورين والقواد العظماء والرؤساء المسودين ، وامتدح المثل العليا التى رآها عندهم ، ولكنه نظر الى الملوك ومن يليهم منذ فجر الجاهلية نظرة اكبار واحترام لما بين عيشه وعيشهم من بون شاسع وفرق واسع ، ولما بين بيته الصغير وقصور أولئك من مدى يبهر الطرف ويسحر اللب ، وقد رأى بأم عينه ما بين حياته الفقيرة وحياة الملوك من اختلاف أخذ بمجامع قلبه وحرك لسانه بالاعجاب . ولعل العربى تأثر أول الأمر بنظـرة الفرس والروم الى ملوكهـم ، فقد كانت الأمتـان تضعان الحواجز والسدود والحراس والجنود دون البلوغ الى قصور الملوك والأمراء ، وكان اللخميون فى العراق والغساسنة فى الشام يتأثرون ما وسعهم بهاتين الأمتين فى المظاهر والفاخر ، ويقلدون مراسمهم وأعيادهم تقليداً يثير اعجاب القادم من الصحراء ، ويسيـل لعابه ويضـطره الى الحديث والفخر والمدح . وتسارع الى القول بأن الاسلام سعى الى محو هذه النظـرة ، فقام الخلفـاء الراشـدون بالملك الزاهد والحكم الديمقراطى ، وقلدهم بعض الخلفاء ، لكن أكثرهم عاد الى النظـرة القديمة المتأصلة فنافس الفرس والروم ، وبذهم فى بعض الأحيان بالمظاهر والمراسـم ، كما أحيا النظـرة القبلية فى السـياسة والوراثة والحكم ، وقال الشعراء المداحون فى الاشادة بهذا كله فرسموا ما كان عليه هؤلاء الخلفاء والملوك منذ الجاهلية حتى العصر الحاضر .

ففى الجاهلية قام النابغة الذبيانى بزيارة لملوك فى الشام والعراق ، فرأى صور الأبهة والفخامة التى كان يعيش عليها هؤلاء الملوك ، وعاد بصور تعبر عن حبه لهذه الربوع واحترامه لسادتها ، فانهم ملوك ولكنهم

مع ذلك اخوان كرماء يحكمون العربى الشـقيق الضيف فى أموالهم ، ويقربونه فى ضيافتهم فيشعر أنه رب المنزل وأنه انتقل من أهل الى أهل على ما بين الحجاز والشام من فرق واختلاف •

ولقد دهش النابغة لما رأى فتخيل أن البناء هناك من صنع الجن ، فعيناه لم تشهدا قبل « تدمر » أعمدة صاعدة الى السماء وعمارة شامخة الى العلاء كما شهدتا خلال الزيارة ، لذلك رأى للنعمان فضلا على الناس كلهم ، وجعل له الطاعة والحب ، واعترف بأنه يهب المائة الأبكار ، فلما أراد أن يصف جوده امتدحه بأنه أشـد من سـيل الفرات حين تمده الأودية فيزمجر ويخيف :

فما الفـرات اذا هب الرياح له ترمى غواربه العبرين بالزبد[١]
يمـــده كل واد مترع لجب فيه ركام من الينبوت والخضد[٢]
يظل من خوفه الملاح معتصـماً بالخيزرانة بعد الأين والنجد [٣]
يوماً بأجود منه سـيب نافلة ولا يحول عطاء اليوم دون غد [٤]

فأنت ترى هذه الصورة الجليلة التى صـنعها النابغة ليرسـم كرم النعمان اذ رسم الفرات فى أكمل ما يكون امتلاء ، فاذا عصفت به الرياح هاجت أمواجه وزادتها هيجاناً بما يترامى اليها من ركام الشـجر حتى ليخاف الملاح الماهر ، فلا يسـتطيع تسـيير سـفينته الا بحذر بالغ ، فيعتصم بذنب السفينة ويلقى فى سبيل ذلك عناء وعنتاً قويين • وكل هذا ليقول ان جود النعمان كالنهر بل هو أشد من نهر الفرات وأقرب الى البحر فى هديره وأمواجه وعنفه وقوته وهذه الصورة الشـعرية تقلب عليها الشعراء فى المديح ورسم الكرم والجود والعطاء ، فبعضهم قلدها ، وبعض أضاف اليها ، فلم يخرج كثير منهم عن تشبيه الكرم بالبحر والجود بالموج المزبد •

(١) الغوارب : الاعالى من المـاء والأمواج •
(٢) الركام : الحطام المتكاثف — الينبوت : شجر الخشخاش ، وما تخضد : اى تكسر • من الأشجار — يمد ماؤه : اى يعلو •
(٣) الخيزرانة : ذنب السفينة — الأين : الفتور والاعياء — النجد : العرق والكرب •
(٤) النافلة : الزيادة فى العطاز — يحول : يمنع •

وقد طلع علينا النابغة بصور كثيرة للمديح ، فاتخذ سبيله الى تشبيه مليكه بالليل الذى دركه أنى كان ، وشبهه بالربيع المنعش كذلك :

وأنت ربيــع ينعش الناس ســـيبه
وســــيف أعيرته المنيــة قاطــــع

أبى الله الا عــــــــــدله ووفاءه
فلا النكر معروف ولا العرف ضائع (١)

فالنعمان ربيع يقبل بالجمال والزهر والنور والبركة والثمر ، فهو خير كله وهو مع ذلك مخيف لأعدائه كسيف قاطع أعارته المنية حدها الباتر • والشاعر يقول بأن العرف لا يضيع بين الله والناس •

واستعار النابغة صورة أخرى لمديح مليكه ، فشبهه بالشـــمس بين الكواكب لمكانه بين الملوك وارتفاع قدره على أقدارهم فقال :

ألم تر أن الله أعطـــاك ســــورة ترى كل ملك دونهـــا يتذبذب (٢)
بأنك شـــــمس والملوك كواكب اذا طلعت لـــم يبـــد منهن كوكب

وهكذا سن النابغة للشعراء سنن المديح الرسمى حين يتطلعون الى الملوك ، فقال فى مليكه انه بحر طامى الجود ،ع وانه ليل يبســـط رداءه على الوجود ، وانه شمس بين الكواكب ، وانه ربيع ينعش النفوس كما ينعش المطر الأرض الظمأى ، وانه سيف بتار مهيب • ولذلك قال النقاد انه أول الاحتراف فى المديح • ورأى فيه بعضهم صحافياً لعصره يعبر قلمه لكل من يجود عليه أو يحمى حماه ، أو يظله بجناحه ، فيرفع من قدره بمديحه ويصوره فى احترام وحب وخوف وفخامة ، ويجعله فوق الناس وأعلى الملوك • وبذلك يختلف عن زملائه الجاهلين كامرىء القيس والمهلهل وغيرهما حين قالوا المديح عن حب عميق وشعور صادق واعتراف بالواقع ، فلم يتملقوا ولم يتزلفوا لأنهم لم يتكســبوا بشـــــعرهم ولم يحترفوا بمديحهم • وقد لاحظ المستشرقون أنه خلق فى الأدب العربى ما يسمى بأدب الملوك أو الشعر الأرستقراطى ، لأنه يحيط الملوك وحدهم بالدعاية

---

(١) النكر : المنكر — العرف : المعروف .
(٢) سورة : منزلة وفضيلة ، وروى : صورة — يتذبذب : يضطرب .

والرعاية ، وينسى الشعب وعامة الناس من الذكر والعناة ، فلا يعيرهم مكاناً من المديح ولا يلفت النظر الى أعمالهم ، فكأن الدنيا تعيش لهم وبهم ، أو كأنهم يملكون كل شيء فى الأمة لا يذكر الى جانبهم أحد ، وهم السادة وغيرهم العبيد ، ويبدو أن هذه النظـرة قد تبدلت قليلا خلال عصـورنا الأدبية ، فاتخذ الشعراء من رعاية الخلفاء والملوك لشعوبهم وقبائلهم • وضـعاً للمديح والاطراء ، أو خيـل اليهم أن ذلك قد وقع فاسـتحقوا المديح •

والأعشى سار على سنن النابغة فى المديح ، ولكنه انحط الى درك المسألة والتكسب المشين ، فمدح كل من أعطى ، وشكر كل من أكرم ، فقال يمدح الأسود بن المنذر اللخمى ، وهو من اخوة النعمان بن المنذر ملك الحيرة ، فرأى فيه الحزم والحذر وصلة الرحم والشجاعة والقوة فقال فيه :

عنده الحزم والتقى وأسـا الصر	ع ، وحمل لمضـلع الأثقال [١]
وصـلات الأرحام قد علم النا	س وفك الأسرى من الأغـلال
وهوان النفس العزيزة للذكـ	ـر اذا ما التقت صدور العوالى
وعطاء اذا سـألت اذا العذ	رة كانت عطيـة البخـال [٢]

والمدح من صفات الرجال سواء أكان مبعثه الاعجاب بشخص أو غيره أو كان مبعثه رغبة فى العطاء والمنه ، ولكن المدح فى شـعر النسـاء نراه قليلا وليس لهن نصيب فيه الا نادراً ، وهاك بعض النماذج من شعرهن فى المدح • قالت الحرقة هند بنت النعمان بعد انتصار بنى شيبان تمدح صفية اخت عمرو بن ثعلبه ، من بحر الكوامل :

المجد والشرف الجسيم الأرفع	لصـفية فى قومهـا يتوقع
ذات الحجاب لغير يوم كريهـة	ولدى الهياج يحـل عنها البرقع

---

(١) التقى : الحذر — اسا الجرح : داواه — الصرع : داء يبطـل الحس ويمنع الحركة ، وهو التيه والكبر .
(٢) العذرة : المعذرة .

لا أنس ليلة اذ نزلت بسـوحها ... والقلب يخفق والنـواظر تدمع
ويئسـت من جار يجير تكرما ... فأجرت واندملت هناك الأضـلع
فألح كسرى بالجنـود عليهم ... وطميح يردف بالسـيوف ويدفع
كم زادهـم من غارة ملمـومة ... بالقب تقطب والأسـنة تلمـع
وهم عليه واردون بعزمهـم ... والنصر تحت لوائهـم يترعرع
حتى غدا العجمى فى أجنـاده ... والقوم جرحى والمذاكى ضـلع
قد أهلك الدهر الغـواة بفعلهم ... والحـق بان ونوره لا يقلع [١]

والحرقة فى هذه الأبيات تمدح صفية اخت عمرو بن ثعلبه وتشيد بمآثرها وبقومها وشجاعتهم لأن صفية هذه أدخلت الحرقة فى حماها واجوارها بعد أن امتنعت القبابل من أن تجيرها فلما انتصر بنو شيبان مدحتهم الحرقه بهذه الأبيات ونلاحظ على الأبيات أنها متناسقة مرتبة الأفكار عذبة الألفاظ تنتهى بنتيجة يتطلبها الموضوع ٠

وقالت الحرقة أيضا تحيى بنى شيبان لما أدخلتها صفية بنت ثعلبة من حمى قومها فقالت تمدحهم من بحر الكامل :

أحيوا الجوار فقد أماتته معـاً ... كل الأعاريب يا بنى شـيبان
شـيبان قومى هل قبيـل مثلهم ... عند الكفـاح وكرة الفرسـان
لا والذوائب من فروع ربيعـة ... ما مثلهـم فى نائب الحـدثان
قوم يجيرون اللهيف من العـدا ... عند الكفـاح ومن صروف زمان
يا آل شـيبان ظفرتم فى الدنا ... بالفخر والمعروف والاحسان [٢]

---

(١) أنظر شعراء النصرانية بعد الاسلام . لويس شيخو اليسوعى ص ٢٤ . سوحهـا : ديارها . يخفق : يرتجف . النواظر : العيـون . أندملت : برئت . الاسنة الرماح .

(٢) شعراء النصرانية بعد الاسلام . لويس شيخو اليسوعى ص ٢٤ . صروف زمان : حوادث الدهر .

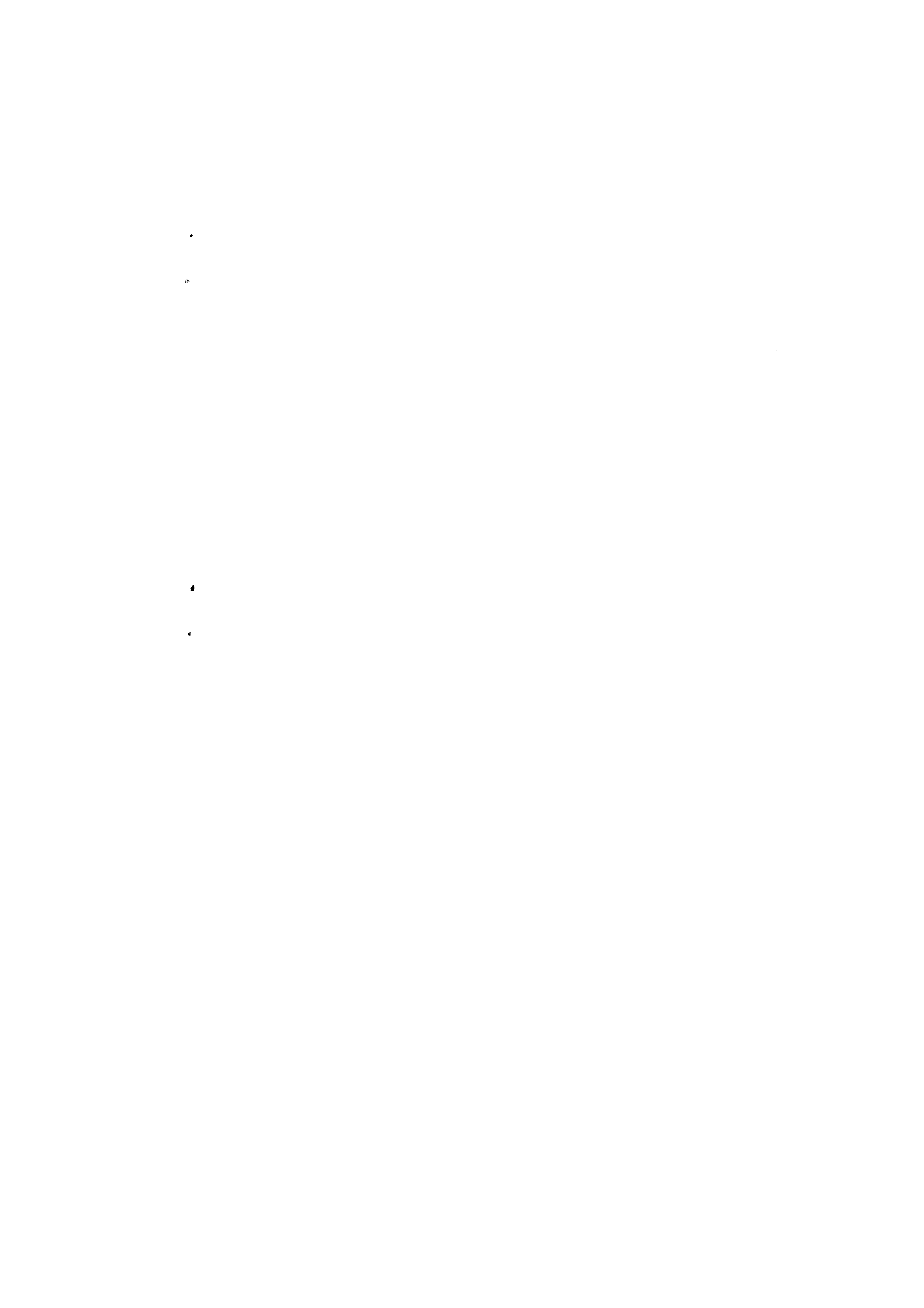
وها هى كما نرى من الأبيـــات تمدح بنى شـــيبان وتفتخر بهم فى احياء الجوار وتمدح فيهم الشجاعة والبطولة وترى أنه ليس هناك من يشاكلهم فى الشجاعة ومنازلة الأعداء فى حومة الوغى ..

وغير الحرقة كثير فى هذا الباب وقد آثرنا الاختصار حتى لا تضيق بهن هذه الأطروحة ..

وهناك أغراض أخرى اشـــتركت فيها المرأة العربية كالشــــكوى من الدهــــر وحـــوادث الزمان والدعــــوة الى التجمع فى وجــــه الاعداء والمدح وان كان لم يظهـــر لهن شـــعر كثير فى المدح لأن بواعثه كانت محبوسة على الرجال ، ثم ان مدح المرأة للرجل غير مستساغ وقد مدحت الخنساء أباها وأخاها معاً . وغيرها كثيرات .

الباب الثاني

في صدر الاسلام وبنى أمية



الفصـــل الأول

الرثـــــاء

ملامحه فى هذا العصر

لقد كان العربى فى الجاهلية يعد سـفك الدماء حسـنة كبرى من الحسنات ، فجاء الاسلام محرماً للدماء رافعاً لما كان منها فى القديم ، كما رفع كثيراً من المآثر الجـاهلية ، وأقام مكانها مآثر جديدة من العـدل والتقـوى والزهد فى الحيـاة ، واخلاص الوجوه لله • وهذه المثالية الجديدة كان لها شأنها فى الرثاء ، فقد أخذت تحل فيه صفات لم يكن العربى الجاهلى يعنى بها ولا كان يفكر فيها •

ويتضح ذلك فى تأبين الخلفاء ، اذ كانوا أصحاب الدولة الاسلامية والقائمين على نشر تعاليمها ، واحترام سنها فى الجزيرة العربية وخارج الجزيرة • فطبيعى أن يفكر الشـاعر أول ما يفكر حين يلم برثائهم فى الدولة من بعدهم وما سلكوه فى حكمهم من عدل ، وما أخذوا به أنفسهم من طاعة الله ورسـوله والعمل بدعوته فهم خلفاؤه ، وهم أمنـاؤه على المسلمين من حولهم وعلى رسالته وما تضىء به النفوس من مثل وصفات نبوية •

وأول خليفة للرسول صلى الله عليه وسلم هو أبو بكر الصديق الذى حمل لواء الدعوة الاسلامية من بعده وتناول مصـابيحها ، فأضـاء بها شرقى الجزيرة وغربيها : بلاد فارس والشام بعد أن لم شتات العرب المبعثر فى الجزيرة ، ودفعه دفعا الى الخارج ، فتراموا كالموج ، لا يحول بينهم وبين ما يريدون حائل ، وكأنمـا ناولهم بيده الكريمـة الكـرة الأرضية ليزرعوا فى أى مكان شـاءوا الدعوة الاسـلامية ، ويجنوا لله ولأنفسهم ثمارها ، وفيه يقول حسان مؤبنا :

اذا تذكرت شجواً من أخى ثقة   فاذكر أخـاك أبا بكر بما فعلا

خير البرية أتقـاها وأعدلهـا بعد النبى وأوفاهـا بما فعـلا
الثانى اثنين والمحمود مشـهده وأول الناس طرا صدق الرسـلا
وكان حب رسـول الله قد علموا من البرية لم يعـدل به رجـلا

وحسـان يتحدث فى تأبينه لأبى بكر عن فضـائله المعروفة عند المسلمين ، اذ يعرض لمنزلته من الرسول ، وكيف كان صاحبه فى الغار وفى الهجرة من مكة الى المدينة ، ويذكر أنه كان أول المصدقين به وبرسالته ، ولذلك دعى الصديق • وكل ذلك ذائع مستفيض عن أبى بكر ، أما تقواه وزهده وصالح سعيه فى الدين واذلاله للدنيا واعزازه للآخرة ، فكل ذلك مشهور بالوجه الصحيح والشهادة الثابتة ، وأما رفقه بالمسلمين وعدله بينهم وما شئت من سيرة ذكية نقية طاهرة ، فالأمة الاسلامية مجمعة عليه والدلالة اليقينية قاطعة به • نضر الله وجهه •

وليس هناك ريب فى أن تأبين حسان جديد فى اللغة العربية ، فهو لم يتحدث حديث الجاهليين عن موتاهم ، وانما تحدث حديث المسلمين ، تحدث بسـيرة لم تكن تعرفها الجاهلية ، فيها البر والعدل والتقـوى والاسلام ، وفيها الخير ومحبة الرسـول وايثاره على كل الأصـحاب والأنصار • وبهذه الخلال والمناقب الجديدة كانت فاجعة الاسـلام والمسلمين فيه •

وخلفه عمر ، فسار فى الناس بسيرته وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم من قبله واقتعد من العدل والزهد فى الدنيا مكانا تنقطع الرقاب دونه • ومازال يحفظ الدولة بل مازال يمد فى أطنـابها شرقاً وغـرباً ، والدنيا تزحف الى العرب من تحت أقدامه وهم يجوبونها فاتحين مجاهدين فى الله ورسوله حق الجهاد ، قد استحبوا الآخرة الباقية وآثروها على الدنيا الفانية ، والعالم القديم يلهج باسـمه ، وجنوده منصـورة فى كل مكان يسبحون بآلاء ربهم وما أفاءه على الاسلام • ولم تلبث أن امتـدت اليه يد آثمة فى الظـلام ، فطعنه أبو لؤلؤة المجوسى طعنـة مسمومة ، وهو قائم يصلى فى المحراب • فبكاه المسلمون وأبنوه تأبينا رائعا ، فمن ذلك قول الشماخ :

جزى الله خيرا من امام وباركت ... يد الله فى ذاك الأديـم الممـزق
فمن يجر أو يركب جناحى نعامة ... ليدرك ما قدمت بالأمس يسبق
قضيت أموراً ثم غادرت بعدها ... بوائج [١] فى أكمـامها لم تفتق
أبعد قتيـل بالمدينـة أظلمت ... له الأرض تهتز العضاه [٢] بأسواق
تظل الحصان البكر يلقى جنينها ... نثا [٣] خبر فـوق المطى معـلق

وهو يستهل كلمته بالدعاء لعمر أن يجزيه الله عن الرعية خيراً وأن يبارك أديمه المزق بسكين أبى لؤلؤة • ثم انتقل يتحدث عن امارته على المسلمين واستصلاحهم وتفقد مصالحهم ، فقال ان من أراد ان يبلغ ذلك أو يرتقى الى غايته حتى لو ركب جناحى نعامة فانه سـيظل حسـيرا مسبوقا • وتوجه اليه بالخطاب يقول له انك قضـيت أمورا وأحكمتها بجميل رأيك وتركت وراءها دواهى لا تزال فى أكمامها وأغطيتها لم تفتق ولم تكشف • ثم أخذ يتحدث عن فظاعة الحادثة متعجباً أن يورق ويهتز شجر العضاة بعد أن نزلت بالمسلمين هذه الفاجعة التى لم تسمعها النساء حتى سقط حملهن استشعاراً لما تطوى من شعر مستطير •

وهذه الصورة من الرثاء جديدة جدة واضحة ، فان الشماخ لم يدع لعمر بأن تنزل السـحب بقبره كما كانوا يدعون فى الجاهلية ، بل دعا الله له ، واستمطر رحمته عليه ، ثم تحدث عن سياسته للمسلمين وأمورهم مستعظما للكارثة التى سقطت عليهم كأنها الصاعقة •

وخلف عمر عثمان ، وكانت فى عهده أول فتنة فى الاسلام ، اذ ثارت به طائفة من شذاذ العرب ، ومازالوا به حتى قتلوه وهو يتلو القرآن الكريم ، فقال حسان :

ضحوا باشمط [٤] عنوان السجود به ... يقطـع الليـل تسـبيحاً وقـرآنا

---

(١) بوائج : جمع بائجـة وهى الداهيـة •
(٢) العضاة : شجر ، واسوق : جمع ساق •
(٣) نثا : شائع ، وتعليق الخبر فوق المطى : كناية عن انه سارت به الركبان وتناقلته البلدان •
(٤) أشمط : شائب •

وخلفه على فلم يستطع أن يلم ما تشعث اذ طعنته يد طائشة حالت بينه وبين ما يريد من جمع المسلمين على كلمة ســواء ، فذهب الى ربه راضيا مرضيا ، وفيه يقول أبو الأسود الدؤلى :

أفى شهر الصــيام فجعتمونا بخير النـاس طـرا أجمعينـا
قتلتم خـير من ركب المطـايا وخيستها (١) ومن ركب السفينا
ومن لبس النعـال ومن حذاها ومن قرأ المثـانى والمثينـا (٢)
يقيــم الدين لا يرتاب فيـه ويقضى بالفرائض مســتبينا

وواضح أنه يؤبنه بمحامد ومناقب اسلامية خالصة ، فهو خير الناس دينا وهب نفســه لربه يتلو قرآنه مثانيه ومثينه ، ويقيم شريعته على الحدود والفرائض التى شرعها الاسلام ، فهو الخليفة التقى الصـالح العدل الذى سار على اطريق النير لا يحيد ولا يميل ، كأنه قسطاس الدين المستقيم ومعياره السليم •

ونمضى فى الدولة الأموية فنجد مع وفاة كل خليفة مراثى مختلفة ، ولعل أهم خليفة رثاه الشعراء عمر بن عبد العزيز ، اذ سار فى الناس سيرة عادلة زاهدة ، كلها تقوى وخشية من الله ، وايثار للدار الباقية ، ينعى النعـاة أمير المؤمنين لنـا يا خـير من حج بيت الله واعتمرا

حملت أمرا عظيما فاصطبرت له وقمت فيه بأمـر الله يا عمـرا
فالشمس طالعة ليست بكاسـفة تبكى عليك نجوم الليل والقمرا

وجرير يذكر له تقواه وعبادته وحجه بيت الله ، ويفضله على كل المســلمين فى صـلاحه وزهده ، ويثنى على قيامه بأمور رعيته ، واقامته لشريعة ربه ، ثم يصور عظم المصيبة فيه ، فيقول ان الشمس طالعة غير كاسفة تبكى عليه نجوم الليل والقمرا •

---

(١) خسا : ذللها .

(٢) حذا النعل : قدرها وقطعها ، والمثانى والمثين : آيات القرآن الكريم .

ويدور الزمن ، ويذهب الأمويون ويأتى العباسيون ، ويكثر الشعراء ، ويكثر الرثاء ، وخاصة اذا كان الخليفة عادلا ، لا يريد غير ربه بعمله ، ولسلم الخاسر فى ثالث خلفائهم المهدى يرثيه ويؤبنه :

وباكية على المهدى عبرى ... كأن بها وما جنت جنونا
وقد خمشت محاسنها وأبدت ... غدائرها وأظهرت القرونا [١]

وقد اصطبغ الرثاء فى العصر الاسلامى بالصبغة التى كانت سائدة فى العصر الجاهلى ونزع نفس النزعة والاتجاه وهى الاشادة بفضل المرثى من شجاعة وبطولة وكرم ونجدة وعفة كما اشاد الرجال فى مراثيهم كما حسن اسلوبهن ورق بفضل معينين فياضين وهما القرآن الكريم والحديث الشريف تقول عاتكة بنت عمرو بن نفيل ترثى زوجها الزبير بن العوام وافتخرت باقدامه وعزيمته الوثابة .

غدر ابن جرموز بفارس بهمة
يوم اللقاء وكان غير معرد
يا عمرو لو نبهته لوجدته
لا طائشا رعن الجنان ولا اليد
كم غمرة قد خاضها لم يثنه
عنها طرادك يا بن نقع القردد
ثكلتك أمك ان ظفرت بمثله
فيما مضى ممن يروح ويغتدى

وكذلك فعلت ليلى الأخيلية فى رثاء توبة بن الحمير وزينب بنت الطثرية فى رثاء أخيها يزيد وكما قدمنا — كانت الخنساء سيدة هذا الفن (فن الرثاء) واستاذته ، اما الباقيات من النساء الشاعرات فحلقن وبرزن ولكن لم يصلن الى المكانة التى وصلت اليها الخنساء [٢] وفى الحق « انهن أشجى من الرجال قلوباً عند الفجيعة ، وأشد منهم

---

(١) الغدائر والقرون : خصل الشعر .
(٢) راجع الفصل الأول باب الرثاء (فى الجاهلية) .

حـزناً ، واعظم لوعـة ، لأنهن أضـعف احتمـالا ، وقلوبهن اسرع انخلاعاً (٥٩) .

وتقول زوجـة الوليـد

قالت ترثى أخاها عمرو بن سعيد وكان قد قتله عبد الملك بن مروان لما خرج عليه :

أيا عين جودى بالدمـوع على عمرو
عشـية أوتينا الخـلافة بالقهر
غدرتم بعمرو يا بنى خيط باطـل
وكلكـم يبنى البيوت على الغـدر (٦٠)
وما كان عمـرو عاجـزاً غـير أنه
أتته المنـايا بغتة وهو لا يدرى
كأن بنى مروان اذ يقتـلونه
خشاش من الطير اجتمعن على صقر (٦١)
لحا الله دنيـا تعقب الذل أهلهـا
وتهتـك ما بين القرابة من سـتر
ألا يا لقـومى للوفـاء وللغـدر
وللمغلقين البـاب قسراً على عمـرو
فرحنا وراح الشـامتون عشـية
كأن على أعنـاقهم فلق الصـخر

---

(٥٩) راجع المرأة فى الشعر الجاهلى والحوفى ٦١٧ .

(٦٠) خيط باطـل : لقب مـروان بن الحـكم لقب بذلك لطـوله واضطرابه ، قال الشاعر :

لحا الله قوما ملكوا خيط باطل على الناس يعطى من يشاء ويمنع

وخيط باطل : الضوء الذى يدخل من الكوة ، يقال هو ادق من خيط باطل .

(٦١) الخشـاش : بالكسر حشرات الأرض والعصـافير ونحوها ، وبالفتح الشجاع .

وتقول **ليلى الأخيلية** [1] ترثى توبه بن الحمير : —

أيا عــين بكى توبة بن الحمـــــير
بدمع كفيض الجـــدول المتفجــر
لتبك عليه من خفـــاجة نســـوة
بمـــاء شــــؤون العبرة المتحـــدر
ســـمعن بهيجا أزحفت فذكـــرنه
وقد يبعث الأحزان طول التذكـــر
كأن فتى الفتيـــان توبـــة لم ينح
بنجد ولم يطــــلع من المتغـــور
ولم يرد الماء الســـــلام اذا بدا
سنا الصـبح فى بادى الحواشى المنور

الى أن تقول :

قتلتم فتى لا يســـقط الروع رمحه
اذا الخيـــل جالت فى قنـــا متكسر

---

(١) راجع اعلام النساء جـ ٤ : ٣٢١ والدر المنثور : ٤٦٦ .

(**) هى ليلى بنت عبد الله بن الرحال بن شداد بن كعب بن معاوية وهو الأخيل من بنى عامر بن صعصعة ، وهى من المتقدمات فى الشعر من شعراء الاسلام وكان توبة بن الحمير بن عقيل الخفاجى يهواها ويقول فيها الشعر فخطبها الى أبيها فأبى أن يزوجه اياها وزوجها فى بنى الأدلع فجاء يوما كما كان يجىء لزيارتها فاذا هى مسافرة ولم ير منها بشاشة فعلم أن ذلك لأمر ما كان فرجع الى راحلته فركبها ومضى وبلغ بنى الأدلع انه جاءها فتبعوه فقـــال توبة فى ذلك قصيدته المشهورة التى أولها

نأتـــك بليـــلى دارهـــا لاتزورهـــا
وشـــطت نواهـــا واســـتمر مريرهـــا

وهى قصيدة طويلة ومنهـــا :

وكنت اذا ما جئت ليلى تبرقعت   فقد رابنى منهـــا الغـــداة سفورها

وكانت أشعر النساء لا يقدم عليها غير الخنساء .

ماتت بسلوة وقبرت بها .

الشعر والشعراء ٤١٢ — ٤٢٠ .

وخزانة الأدب (٣ : ٣١ : ٣٤) .

فوات الوفيـــات ٢ : ١٧٢ — ١٧٧ .

الأغانى (١٠ : ٧٦ — ٧٩) .

شرح الحماسة للمرزوقى ١٦٠٧ — لجنة التأليف والنشر .

فياتوب للهيجـــا وياتوب النــدى
وياتوب للمســــتنبح المتنـــور
ألا رب مكروب أجبت ونائـــل
بذلت ومعـــروف لديك ومنكـــر

وقالت أميمة بنت عبد المطلب

هى أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مياف ، وأمها فاطمة بنت عمرو بن عائذ . تزوجها فى الجاهلية جحش بن رباب بن يعمر ، فولدت له عبد الله ، الذى شـهد بدراً ، وعبيد الله وعبداً وزينب بنت جحش زوج الرسول ﷺ ، وحمنة بنت جحش . كان أبوها ، وهو يحتضر ، قد جمعها مع أخواتها وطلب منهن أن يبكين عليه حتى يسمع ما يقلن فيه بعد موته ، فقالت [٦٢] أميمة تبكيه :

ألا هلك الراعى العشـــيرة ذو الفقد
وســاقى الحجيج والمحامى عن المجد
ومن يألف الضـــيف الغريب بيوته
اذا ما ســماء الناس تبخـل بالرعد
كســبت وليداً خير ما يكســب الفتى
فلم تنفكك تزداد يا شـــيبة الحمد
أبو الحـــارث الفياض خلى مكانه
فلا تبعـــدن فكل حى الى بعـــد
فانى لبــــاك ما بقيت وموجـــع
وكان له أهـــلا لما كان من وجــدى
ســـقاه ولى الناس فى القبر ممطراً
فســـوف أبكيه وان كان فى اللحــد
فقد كان زينـــاً للعشـــيرة كلهـا
وكان حميـداً حيث ما كان من حمـد

(٦٢) الترجمة فى « طبقات ابن سعد » ٤٦/٨ ، والأبيات مع الخبر فى « سيرة ابن هشام » ١٦٩/١ و ١٧٠ .

وقالت أروى **بنت الحارث** (*) ترثى عليا رضى الله عنه : (ويروى أنها لأبى الأسود كما قدمنا) .

ألا يا عين ويحك أسعدينا ... ألا وابكى أمير المؤمنينا
رزئنا خير من ركب المطايا ... وفارسها ومن ركب السفينا
ومن لبس النعال أو احتذاها ... ومن قرأ المثانى والمئينا (٦٣)
اذا استقبلت وجه أبى حسين ... رأيت الدر راع الناظرينا
ولا والله لا أنسى عليا ... وحسن صلاته فى الراكعينا
أفى الشهر الحرام فجعتمونا ... بخير الناس طرا أجمعينا

وقالت ترثى أباها :

عينى جودا بدمع غير ممنون ... ان انهمالا بدمع العين يشفينى
انى نسيت أبا أروى وذكرته ... عن غير ما بغضة منى ولا هون
مازال أبيض مكراما لأسرته ... رحب المحاسن فى خصب وفى لين
من آل عبد مناف ان مهلكه ... ولو لقيت رغوب الدهر يعصينى
من الذين متى ما تغش ناديهم ... تلق الخضارمة الشم انعرانين (٦٤)

وقالت الرباب بنت امرىء القيس

وهى بنت امرىء القيس بن عدى كانت من خيار نساء عصرها وأفضلهن تزوجت الحسين بن على عليه السلام ورثته حين قتل بقولها :

(*) هى أروى بنت الحارث بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى وأمها عزية بنت قيس وهى صحابية جليلة اشتهرت بالفصاحة والبلاغة قال عن بلاغتها معاوية :

والله لو كلمها من فى المجلس جميعا لاجابت كل واحد بغير ما تجيب به الآخر وان نساء بنى هاشم لافصح من رجال غيرهم . توفيت فى أيام معاوية نحو سنة ٥٠هـ .

(٦٣) فى « اللسان » : المثانى من القرآن : ماتثنى مرة بعد مرة ، وقيل : هى فاتحة الكتاب لانها يثنى بها فى كل ركعة من ركعات الصلاة .

(٦٤) خضارم : جمع خضرم ، وهو الجواد ، الكثير العطية ، المشبه بالبحر الخضرم ، وهو الكثير الماء . والشم : جمع أشم ، والشمم : ارتفاع فى قصبة الأنف مع استواء أعلاه واشراف الأرنبة قليلا . والعرانين الأنوف . وهو كناية عن الرفعة والعلو وشرف النفس .

ان الذى كان نوراً يستضاء به ... بكربلاء قتيل غير مدفون (٦٥)
سبط النبى جزاك الله صالحة ... عنا وجنبت خسران الموازين
قد كنت لى جبلا صعباً ألوذ به ... وكنت تصحبنا بالرحم والدين
من لليتامى ومن للسائلين ومن ... يعفى ويأوى اليه كل مسكين (٦٦)
والله لا أبتغى صهراً بصهركم ... حتى أغيب بين الرمل والطين

وقالت :

اذا جد عند الجد أرضاك جده ... وذو باطل ان شئت ألهاك باطله(٦٧)
مضى وورثناه دريس مفاضة ... وأبيض هنديا طويلا حمائله(٦٨)
فتى كان يروى المشرف بكفه ... ويبلغ أقصىحجرة الحى نائله(٦٩)
كريم اذا لاقيته متبسما ... واما تولى أشعث الرأس جافله(٧٠)
ترى جازريه يرعدان وناره ... عليها عداميل الهشيم وصامله(٧١)
يجران ثنيا خيرها عظم جاره ... بصيرا بها لم تعد عنها مشاغله(٧٢)
ولو كنت فى غل فبحت بلوعتى ... اليه للانت لى ورقت سلاسله
ولما عصانى القلب أظهرت عولة ... وقلت ألا قلب بقلبى أبادله
سيبكيه مولاه اذا ما ترفعت ... عن الساق عندالروع يوماذلاذله(٧٣)
وكنت أعير الدمع قبلك من بكى ... وأنت على من مات بعدك شاغله

---

(٦٥) الأبيات فى « الأغانى » : ١٦/٩٢ .
(٦٦) يعفى : يطلب معروفه ، من عفا فلانا : اتاه يطلب معروفه .
(٦٧) فى الأمالى «أرضاك ..... » .
(٦٨) الدريس : الخلق من الدروع وغيرها ، والمفاضة : الدرع
(٦٩) حجرة : ناحية .
(٧٠) أشعث الرأس : اغبر الراس متلبد ، وجافله : كثيره ، من قولهم : اخذت جفلة من الصوف ، اى : جزة منها .
(٧١) العداميل : جمع عدمل وعدملى : اى : قديم ، والهشيم : ما يبس من الشجر ، والنبت الصامل : اليابس .
(٧٢) ثنيا : اى : ناقة ثنيا ولدت بطنين وولدها أيضا ثنى . خير عظم جاره : اى : خير عظم فيها يهديه لجاره .
(٧٣) الذلاذل : جمع ذلذل ، وهو هدب الثياب .

وقالت زينب بنت العوام

وهى شاعرة صحابية أسلمت قديما وبقيت وعاشت الى أن قتل ابنها عبد الله بن حكيم بن حرام يوم الجمل ، فرثته وذكرت أخاها الزبير ، فقالت :

أعينى جـودا بالدمـوع فأسرعا   على رجـل طلق اليدين كريم[٧٤]

زبـير وعبد الله يدعى لحـادث   وذى خـلة منا وحمل يتيم

قتلتم حـوارى النبى وصـهره   وصـاحبه فاستبشروا بجحيم

وقد هدنى قتـل ابن عفـان قبله   وجادت عليه عبرتى بسجوم

وأيقنت أن الدين أصبح مـدبرا   فماذا تصلى بعده وتصومى[٧٥]

وكيف بنـا أم كيف بالدين بعدما   أصيب ابن أروى وابن أم حكيم

وقالت **صفية بنت عبد المطلب** [٧٦]

ترثى أباها قبـل وفاته :

ألا من مبلـغ عنى قريشـا   ففيم الأمر فينـا والامار[٧٧]

لنـا السـلف المقدم قـد علمتم   ولم توقـد لنـا بالغدر نار

وكل منـاقب الخيرات فينـا   وبعض الأمـر منقصـة وعار

وقالت تبكى أباها « قبيل وفاته » بطلب منه :

أرقت لصـوت نائحـة بليـل   على رجـل بقـارعة الصعيد[٧٨]

ففاضـت عند ذلكـم دموعى   على خـدى كمنحدر الفريد[٧٩]

---

(٧٤) الأبيات فى « الاصابة » ٣١٢/٤ ، وفيه « وافرغا » .

(٧٥) حذفت النون من « تصلى » و « تصومى » لضرورة الوزن .

(٧٦) هى صفية بنت عبد المطلب بن هاشم عمة الرسول ﷺ واخوها حمزة بن عبد المطلب ، شاعرة باسلة أسلمت وبايعت النبى ﷺ وهاجرت الى المدينة .

(٧٧) الأبيات فى « الحماسة » ١٤٧/٤ بشرح التبريزى ، والامار : المشاورة .

(٧٨) سيرة ابن هشام : ١٦٩/١

(٧٩) الفريد : الدر .

على رجـــل كـــريم غير وغد ... له الفضل المبين على العبيد[٨٠]
على الفياض شيبة ذى المعـالى ... أبيك الخير وارث كل جـود[٨١]
صـدوق فى المـواطن غير نكس ... ولا شخت المقـام ولا سنيد[٨٢]
طـويل الباع أروع شـيظمى ... مطـاع فى عشيرته حميـد
رفيـع البيت أبلج ذى فضـول ... وغيث الناس فى الزمن الحرود[٨٣]
كريم الجـد ليس بذى وصوم ... يروق على المسـود والمسود
عظيـم الحلم من نفـر كـرام ... خضـارمة مـلاوثة أسـود[٨٤]
فلو خلد امـرؤ لقـديم مجـد ... ولكن لا سبيل الى الخـلود
لكان مخلدا أخـرى الليـالى ... لفضل المجد والحسب التليد

وقالت تبكى أخاها حمزة بن عبد المطلب :

أسـائلة أصحاب أحـد مخـافة ... بنـات أبى من أعجم وخبير[٨٥]
فقال الخبير ان حمزة قـد ثوى ... وزير رسـول الله خير وزير
دعاه اله الحق ذو العرش دعـوة ... الى جنـة يحيـا بها وسرور
فذلك ما كنـا نرجى ونرتجى ... لحمزة يوم الحشر خير مصير
فو الله لا أنسـاك ما هبت الصبا ... بكاء وحزنا محضرى ومسيرى[٨٦]
على أسـد الله الذى كان مدرها ... يذود عن الاسـلام كل كفور[٨٧]
فياليت شلوى عند ذاك وأعظمى ... لدى أضبع تعتادنى ونسور[٨٨]

---

(٨٠) الوغد : الضعيف النذل الساقط المقصر فى الأشياء .

(٨١) أرادت « الخير » بالتشديد فخففت ، ويجوز أن يكون « الخير » هاهنا ضد الشر ، جعلته كله خيرا على المبالغة .

(٨٢) النكس : الرجل الضعيف الذى لا خير فيه ، والشخت بالفتح والتحريك الدقيق الضامر من الأصل لا هزالا ، والسنيد : الضعيف الذى لا يستقل بنفسه حتى يسند رأيه الى غيره .

(٨٣) الحرود : الناقة القليلة الدر ، شبه الزمن فى جديه بها .

(٨٤) الخضارم : جمع خضرم : الجواد المعطاء ، والملاوثة : جمع ملواث من اللوثة وهى القوة .

(٨٥) سيرة ابن هشام : ١٦٧/٢ ، والأعجم : الذى لا يفصح .

(٨٦) الصبا : ريح شرقية ، ومسيرى ، أى : غيابى .

(٨٧) المدره : الذى يدفع عن القوم .

(٨٨) الشلو : العضو ، وتعتادنى : تتعاهدنى .

أقـــول وقد أعلى النعى عقيرتى جزى الله خيرا من أخ ونصير

وقالت ترثى الرسول ﷺ :

ألا يا رســــول الله كنت رجاءنا وكنت بنـــا برا ولم تك جافيا
وكنت رحيمـــا هاديا ومعلمــــا لبيك عليك اليوم من كان باكيا
فـــدى لرسول الله أمى وخـــالتى وعمى وخالى ثم نفسى وماليا
فلو أن رب الناس أبقى نبينـــا سعدنا ولكن أمره كان ماضيا
عليـــك من الله الســـــلام تحيـــة وأدخلت جناتمن العدن راضيا

وقالت عائشة بنت أبى بكر فى أبيها وهو يجود بنفسه :

وأبيض يستسقى الغمــام بوجهه ربيـــع اليتـــامى عصمة للارامل

ثم أغمى عليه فقالت :

لعمـــرك ما يغنى الثراء عن الفتى اذاحشرجت يوما وضاقبها الصدر

وقد رثته قائلة :

ان مـــاء الجفـــون ينزحه الهـــم وتبقى الهمــــوم والأحـــزان
ليس يأسو جـــوى المـــرزأ مـــاء سفحته الشـــئون والأجفـــان

ولمامات عبد الرحمن بن أبىبكر بالجيش[٨٩]وقفت عائشةعلى قبره فقالت:

وكنـــا كندمانى جذيمـــة حقبـــة من الدهر حتى قيل لن نتصدعا
وبتنـــا بخير فى الحيـــاة وقبلنـــا أصاب المنايا رهط كسرى وتبعا
فلمــــا تفرقنـــا كأنى ومالكـــا لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

وتوفيت عائشة[٩٠] أم المؤمنين بالمدينة المنورة فى ١٧ رمضان سنة ٥٧هـ .

وفى رواية ٥٦ أو ٥٨ أو ٥٩ هـ وهى ابنة ست وستين سنة وكانت قد أمرت أن تدفن من ليلتها ، واجتمع الأنصـــار فلم تر ليلة أكثر ناسا منها فدفنت بعد الوتر بالبقيع وصلى عليها أبو هريرة رضى الله عنه ونزل قبرها

---

(٨٩) جبل أسفل مكة .
(٩٠) وتعد عائشة من أبرع الناس فى رواية الشعر والأدب وأيام العرب وكانت فصيحة اللسان وقد سبق ذكرها .

خمسة : عبد الله وعروة ابنا الزبير والقـاسم وعبد الله ابنا محمد بن أبى بكر الصديق وعبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر .

وعقيـلة بنت عقيـل

وهى بنت عقيل بن أبى طالب ، قالت فى وقعة كربلاء بعد مقتل ابن عمها الحسين عليه السلام :

ماذا تقولون ان قـال النبى لكم   ماذا فعلتم وأنتم آخـر الأمم
بعترتى وبأهلى بعـد مفتقـدى   منهم أسارى وقتلى ضرجوا بدم
ما كان هذا جزائى اذ نصحت لكم   أن تخلفونى بسوء فى ذوى رحمى

وقالت أيضا ترثى الحسين ومن معه :

عينى ابكى بعبـرة وعويـل   واندبى ان ندبت آل الرسول
سـتة كلهـم لصـلب على   قد أصـيبوا وخمسـة لعقيل

وقد وقفت السيدة فاطمة على قبر أبيها عليه السلام فقالت (٩١) :

قـد كان بعـدك أنبـاء وهنبثة   لو كنت شاهدها لم تكثر الخطب (٩٢)
انا فقدناك فقد الأرض وابلهـا   وغاب مذ غبت عنا الوحى والكتب
فليت قبلك كان المـوت صادفنـا   لما نعيت وحالت دونك الكثب

فتـاة أعرابيـة

احتملها زوجهـا الى مكان قصى فقالت :

ألا أيهـا الركب اليمانون عرجوا   علينا فقد أضحى هوانا يمانيا (٩٣)
نسائلكم هل سـال نعمان بعدنا   وحب الينا بطن نعمان واديا (٩٤)
فان به ظـلا ظليـلا ومشربا   به ننقع القلب الذى كان صاديا (٩٥)

---

(٩١) البيتان الثانى والثالث فى « العقد الفريد » : ٢٣٨/٣

(٩٢) الهنابث : الدواعى ، واحدتها : هنبثة .

(٩٣) الأبيات فى « معجم البلدان » : ٢٩٣/٥ ، والأول والثانى فى « مصارع العشاق » : ٦٢/١

(٩٤) نعمان : هو نعمان الأراك ، وهو واد ينبته ، وهو بين مكة والطائف .

(٩٥) فى « معجم البلدان » : عهدنا به صيدا كثيرا ومشربا .

الفصل الثانى

المـــــدح

كانت الأسباب فى العصر الجاهلى متوفرة لخلق المديح فقد كانت حياتهم تسود رئيسا وتملك زعيما وترفع قائدا ولا تنسى الحروب التى كانت تقوم بينهم والأشعار التى كانت تمجد أبطالهم وتثنى على زعمائهم فموضوعات المديح متوفرة سواء كان مديحا سياسيا او اجتماعيا أو دينيا ولكنها زادت عندهم بسـببب الفقر المدقع فى الصحراء ونضـوب موارد الرزق والصناعات وندرة البساتين والرياض وشـح المياه فبحثوا عن الكرماء يمدحونهم لينالوا اغداقهم وكرمهم فلما رحلو قبل البعثة المحمدية الى الشام واطراف العراق رأوا عند اخذانهم ملوك على العرب ما يشجع على الكسب والترف والنعيم فمدحوا الغساسنة حينا — والمناذرة حينا آخر .

فقد مدح حسان بن ثابت ملوك الغسـاسنة وأمراءهم ، ووصف نعيمهم وترفهم ، ورسـم ما كانوا يلبسـون ويرتدون ، وذكر ديارهم العامرة بالكرم والجمال ، فقال فيهم :

يمشون فى الحلل المضاعف نسـجها
مشى الجمال الى الجمال البزل [٣]
أولاد « جفنة » عنـد قبر أبيهـم
قبر ابن مارية الكريم المفضـل [٤]

---

(١) حبل غرر : غير موثوق به .

(٢) الأريحية : الارتياح لفعل الندى والحود — صلت : ماض — ركود : لا يتمك .

(٣) الحلل : ج حلة وهى الرداء — البزل : ج بازل وهو البعير اذا استكمل الثامنة وطعم فى التاسعة .

(٤) جفنة : أبو ملوك غسان فى الشام .

يغشـــــون حتى ما تهر كلابهـــــم
لا يسألون عن الســواد المقبل (٥)

يســــــقون من ورد البريص عليهـــم
«بردى» يصفق بالرحيق السلسل(٦)

فهم يمشون فى ثياب مضـــاعفة النســـج ، وهم آمنون لا يبرحون ولا يخـــافون كما تخاف العرب ، لا ينجعون ولا يتخففون الى مكان آخر ، ومنازلهم مفتوحة للأضياف والطراق والعفاة حتى تتأنس كلابهم بالقصاد فلا تهر على أحد ، لا يسألون من يقبل عليهم أو يؤم ديارهم ، فهم فى خفض من العيش يســـتضيفون كل من يمر بســـاحتهم • ومثله الحطيئة ، فقد مدح عمر بن الخطاب طمعاً فى عدالته ورجاء بقضاء حاجة يطلبهـــا ، فرأى فيه أمين الخليفة بعد الرســـول وأوفى قريش جميعاً وأطولهم فى النوى بسطة ، وأفضلهم فعالا •

وظهر الرسول الأعظم فانقسم العرب فى اتباعه ووقف فريق معه وفريق راح يناضله فنشأ شعر دينى اسلامى فى المديح يشيد بالرسالة والدعوة والرســـول — ويكبر الخلق الرفيع والبطولة الخارقة ويبشر بالدين الجديد فيمدح مزاياه ويمهد الطريق للشعراء الاسلاميين على مر القرون كحسان بن ثابت وعبد الله بن رواحه ، وغيرهما من شعراء الاسلام وقد شـــاركت الشـــــاعرات المســــلمات فى فن المدح ولكن قـــل شـــــعرهن فى المدح اذ ان هـــذا البـــــاب من طبيعة الرجـــــال ، ولا يتفق ووضع المرأة فليس من اللائق أن تسافر المرأة وتتكبد المشاق ، لتقف ببـــاب أمير أو ملك تمدحه لتنـــال عطاياه اذ ان هذا يتنافى وكرامة المرأة كما يتنافى مع هـــذا العصر الذى تسيطر التعاليم الاسلامية على روحه ومنهجه ومن نماذجه : —

قول بنت لبيد نيابة عن أبيها فى مدح أمير الكوفة الوليد بن عقبة وشكره وكان أقسم فى الجاهلية أن يطعم ما هبت الصبا واستمر على

(٥) يغشون : لا تخلو منازلهم من الأضياف .
(٢) البريص : نهر بدمشق ، وبردى نهر آخر فيها — يصفق يتموج
(٦) البريص : نهر بدمشق ، وبردى نهر آخر فيهـــا — يصفق : — الرحيق الخمر : البيضاء — السلسل : اللينة .

ذلك بعد اسلامه فلما نزل الكوفة وأميرها الوليد بن عقبة اذ هبت الصبا والأمير يخطب الناس فقال قد علمتم حال أخيكم أبى عقيل وما جعل على نفسه ان يطعم ما هبت الصبا وقد هبت الصبا فأعينوه ثم بعث اليه بمائة من الجزر واعتذر اليه •

أرى الجزار يشحذ شفرتيه
اذا هبت رياح أبى عقيل

أشم الأنف أصيد عامرى
طويل الباع كالسيف الصقيل

فلما وصلت الجزر والشعر الى لبيد قال انى تركت الشعر منذ قرأت القرآن ودعا ابنته فقالت : —

اذا هبت رياح أبى عقيل
دعونا عند هبتها الوليدا

اشم الأنف أبيض عبشميا
أعان على مروءته لبيدا

بأمثال الهضاب كأن ركبا
عليها من بنى حام قعودا

أبا وهب جزاك الله خيرا
نحرناها وأطعمنا الوفودا

فعد ان الكريم له معاد
وظنى بابن أروى ان يعودا

فقال لبيد أجبت وأحسنت لولا أنك سألت فى شعرك ، قالت انه أمير وليس بسوقه ولا بأس بسؤاله ، ولو كان غيره ما سألناه قال لبيد أجل[٩٦] •

وقالت ليلى الأخيلية تمدح الحجاج :

أحجاج ان الله أعطاك غاية   يقصر عنها من أراد مداها [٩٧]

---

(٩٦) جمهرة اشعار العرب ٣٨ •
(٩٧) الأبيات فى « الأمالى » : ١/٨٥ ، و « الاغانى » : ٢٤٨/١١ •

أحجــاج لا يفلل ســلاحك انمــا ... المنــايا بكف الله حيث تراها
اذا هبط الحجــاج أرضا مريضــة ... تتبــع أقصى دائهــا فشفاها
شفاها من الداء العضال الذى بها ... غلام اذا هز القنــاة ســقاها
ســقاها دمــاء المــارقين وعلهــا ... اذا جمحت يومــا وخف أذاها
اذا ســمع الحجــاج رز كتيبــة ... أعد لها قبــل النزول قراها[٩٨]
أعــد لهــا مصــقولة فارســية ... بأيدى رجــال يحلبون صراها[٩٩]
أحجــاج لا تعط العصــاة مناهم ... ولا الله يعطى للعصــاة مناها
ولا كــل حــلاف تقلد بيعــــة ... فأعظم عهــد الله ثم شراها

وقالت **ليلى الأخيلية** أيضا تمدح آل مطرف :

يا أيهــا السدم الملــوى رأســه ... ليقود من أهل الحجاز بريما[١٠٠]
لا تقربن الدهــر آل مطــــرف ... لا ظالمــا أبدا ولا مظلومــا[١٠١]
قوم رباط الخيــل حول بيوتهم ... وأســـنة زرق تخــال رجوما[١٠٢]
أتريد عمــرو بن الخليــع ودونه ... كعب اذا لوجدته مــرؤوما[١٠٣]
ان الخليــع ورهطــه فى عــامر ... كالقلب ألبس جؤجؤا وحزيما[١٠٤]

---

(٩٨) الرز : الصوت تسمعه من بعيد .

(٩٩) الصرى هنا : بقية اللبن ، والصرى أيضا : اللبن يبقى فيتغير طعمه .

(١٠٠) الأبيــــات فى « الحماســــــة » : ٤/٧٦ شرح التبريزى ، و « الحماسة البصرية » : ٧ ، والسدم والسادم : النادم الحزين ، والسدم أيضا : اللهج بالشىء ، والفحل العظيم الهائج . البريم : خيط يفتل من قوى بيض وسود ، والبريم هنا : الجيش لأن فيه أخلاطا من الناس .

(١٠١) فى « حماسة أبى تمام » : « لا تغزون » .

(١٠٢) فى « فى حماسة أبى تمام » وسط بيوتهم . زرق : صافية تخال نجوما فى التماعها .

(١٠٣) مرؤوم : اسم مفعول من رأمه اذا عطف عليه .

(١٠٤) الجؤجو : الصدر . والحزيم : موضع الحزام من الصدر . والمعنى أن موضع الخليع موضع القلب من البدن ، فلابد أن يحفظوه .

لا تسرعن الى ربيعـــة انهـــم ... جمعوا سوادا للعـدو عظيما
شعبا تفرق من ســواد واحــد ... عدلت معــدا تابعــا وصميما
فاقصد على أن لو وطئت بلادهم ... لاقت بكارتك الحقــاق قروما
وتعــاقبتك كتائب ابن مطــرف ... فأرتك فى وضح النهار نجوما
ومخــرق عنــه القميص تخــاله ... وسط البيوت من الحياء سقيما(١٠٥)
حتى اذا رفــع اللــواء رأيتــه ... تحت اللواء على الخميس زعيما

(١٠٥) مخرق : تريد بذلك الممدوح ، وانه لا يبالى كيف كانت ثيابه .

الفصل الثالث

الغزل فى صدر الاسلام

ظهرت الدعوة الى الاسلام فاشتغل العرب فى الجهاد ، وقامت بين المسلمين والمشركين حروب فى سبيل الدين الجديد اشتدت وعنفت حتى شغلت الناس بأخبار المعارك والانتصارات ، واشترك الشعراء فيها كل يعزز فريقه ببيانه وكل يرمى عدوه بهجاء وينصر صديقه فى مديح • فلم يكن ثمة مجال للهو أو الفراغ أو الاستماع الى حديث القلب والنفس والعبث بالنساء والتحدث اليهن أو الالتفات الى وصفهن • ولعل الذين كانوا يلهون ويعبثون كانوا يخفون اللهو والعبث ولا يصفونه ، أو لعل الناس لا يجتمعون له لا يرددونه تحرجاً من ازم وخوفاً من منع ، فقد حرم الدين الجديد التحرش بالمحصنات ، لذلك سكت صوت الغزل فى صدر الاسلام •

ولم تقتصر الحروب على الجزيرة العربية وانما تعدتها الى البلاد المتاخمة فى أرض الشام والعراق فشغل الناس كذلك بأخبارها ، وأصبح الشعر فى صدر الاسلام يدور على التفاخر بين خصوم الدين وأنصاره ، وكان فى الخصوم عبد الله بن الزبعرى ، وكان فى أنصاره عبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وحسان بن ثابت وكعب بن زهير • ولم يصلنا عن هؤلاء غزل الا ما قيل فى الجاهلية ، اللهم الا حسان بن ثابت وكعب بن زهير ، والناظر فيه يحار فىأسلوبه وفى زمان القائه ونظمه •

أما حسان بن ثابت فقد نقل الينا أنه أشرف على الستين حين اعتنق الاسلام ومن الصعب على رجل فى هذه السن أن يسلك مسلكاً جديداً فى القول ، بل من الصعب أن يبتعد عن أقواله الجاهلية وفيها افتتاح قصيدة بالغزل ، وخاصة اذا عرفنا أن الرجل لم يتغزل كغيره فلم ينبعث عن قلبه

حب وانما كان يخرج من شفتيه كلام يشـبه الحرقة والأسى والفراق والبين فى تقليد وصناعة •

ولعله تغزل قبل الأربعين فقال :

تراءت لنا يوم الرحيل بمقلتى   غرير بملتف من السدر مفرد [١]

وجيد كجيد الريم صاف يزينه   توقد ياقوت وفصل زبرجد [٢]

كأن الثريا فوق ثغرة نحـرها   توقد فى الظلمـاء أى توقد [٣]

فهو من مدرسة الجاهليين فى أوصافه المادية الحسية يجد فى مقلتى صـاحبته عينى ظبى وفى جيدها جيد الريم أبيض صـافياً • فلما جاء الاسلام لم يصنع شيئاً فى باب الغزل وانما دخل فى خدمة الدين ونافح عن النبى فى قصائد تملأ ديوانه •

وأما كعب بن زهير فقد تغزل فى قصيده قبل الاسلام وبعده ، وقال فيهما شعراً نحب أن نعرضه هنا لنوازن بين قديمه وحديثه :

أرى أم شـداد بها شـبه ظبية   تطيف بمكحول المدامع خاذل [٤]

أغن غضيض الطرف رخص ظلوفة   يرود بمعتم من الرمل هائل [٥]

لقد شاع وكثر الغزل فى هذا العصر ، ورق وسلس وبخاصة فى البيئة الحجازية لشىء كان فى طبيعـة أرض الحجـاز وطبـائع أهله ، ولوجود الترف الذى حدث فى الحجـاز مع مجىء الاسـلام وتدفق الأموال عليـه مع الحـاج فى كل عـام وكان سببا فى صرف النـاس

---

(١) غرير : ظبى — السدر : شجر النبق .

(٢) الريم : الظبى الأبيض الخالص البياض — الزبرجد : الزمرد .

(٣) الثغرة : نقرة النحر فوق الصدر .

(٤) خاذل : تخلف عن أمه .

(٥) أغن : صغير فى صوته غنة لم يصف بعد — غضيض الطرف : فاتر الطرف — رخص . لين ، اى ظلوفة لينة لم تشتد ولم تقو — يرود : يذهب ويجىء أى يرعى — اعتم : تم — الهائل من الرمل : الذى لا يتماسك اذا وطىء .

عن العمــل المنتج وتكاليف الحيــاة فكان اللهو — ومن اللهو -- الغزل الذى أحبــه الحجازيون وانصرفوا اليــه ويبدو أن الامويين أصحاب الدولة أراد أن يلفتوا النــاس عن المطــالبة بالخــلافة فأغدقوا عليهم الأموال فزاد ذلك فى انصراف الشــعراء الى الغزل ، والشاعر تهزه السماحة وينطقه الجود ، وان كثرة اللهى تفتح اللها .

تقــول عفــراء العذرية

وهى عفراء بنت مهاصر بن مــالك ، من بنى ضبة بن عبد ، من عذرة ، اشتهرت بأخبارها مع عروة بن حزام وهو ابن عمها ، مات أبوه فنشأ فى حجر عمه أبى عفراء ، وتحابا فى صباهما ، فلمــا كبر زوجها أبوها من غيره ، وسافرت مع زوجها الى الشام ، وكان عروة غائبــا ، فلمــا عاد قيل له : انهــا ماتت . ثم علم بخبرها ورآها قبــل موته ، وبلغها نعيه فقالت :

ألا أيهــا الركب المخبون ويحكم بحق نعيتم عروة بن حــزام

فلا هنىء الفتيــان بعدك غــارة ولا رجعوا من غيبــة بسلام

فقــل للحبالى لا ترجين غائبــا ولا فرحــات بعــده بغــلام

ولم تزل تردد هذه الأبيات وتبكى حتى ماتت ، فدفنت الى جانبه .

قال معاذ بن يحيى الصنعانى : خرجت من مكة الى صنعاء ، فلما كان بيننا وبين صنعاء خمس ساعات ، رأيت الناس ينزلون عن محاملهم ويركبون دوابهم ، فقلت : أين تريدون ؟ قالوا : نريد أن ننظر الى قبر عفراء وعروة ، فنزلت عن محملى ، وركبت حمــارى واتصلت بهم ، فانتهيت الى قبرين متلاصقين قد خرج من كليهما ساق شجرة ، حتى اذا جــاء الساقان على قامة التفا ، فكان النــاس يقولون : تآلفا فى الحيــاة وفى الممات .

قال الأخفش : خرجت فى سفر ، فنزلنا على مــاء لطىء فبصرت بخيمة من بعيد ، فقصــدت نحوها ، فاذا فيها شــاب على فراش كأنه الخيــال ، فأنشأ يقول :

ألا ما للحبيبة لا تعود ... أبخل بالحبيبة أم صدود
مرضت فعادنى عواد قومى ... فما لك لم ترى فيمن يعود
فلو كنت المريض ولا تكونى ... لعدتكم ولو كثر الوعيد
ولا استبطأت غيرك فاعلميه ... وحولى من ذوى رحمى عديد

قال : ثم أغمى عليه فمات ، فوقعت الصيحة فى الحى ، فخرج من آخر الماء جارية كأنها فلقة قمر ، فتخطت رقاب الناس حتى وقفت عليه ، فقبلته وأنشأت تقول :

عدانى أن أعودك يا حبيبى ... معاشر فيهم الواشى الحسود
أذاعوا ما علمت من الدواهى ... وعابونا وما فيهم رشيد
فأما اذ حللت ببطن أرض ... وقصر الناس كلهم اللحود
فلا بقيت لى الدنيا فواقا ... ولا لهم ولا أثرى عديد

ثم شهقت شهقة فخرت ميتة منها فخرج من بعض الأخبية شيخ فوقف وترحم عليهما ، وقال والله لئن كنت لم أجمع بينكما حيين لأجمعن بينكما ميتين فدفنهما فى قبر واحد فسألته فقال هذه ابنتى وهذا ابن أخى[١٠٦] .

وقالت خولة بنت ثابت

وهى أخت حسان بن ثابت رضى الله عنه شاعر رسول الله ﷺ . فى عمارة بن الوليد المخزومى :

يا خليلى نابنى سهدى ... لم تنم عينى ولم تكد[١٠٧]
فشرابى ما أسيغ وما ... أشتكى ما بى الى أحد
كيف تلحونى على رجل ... فت من تذكاره كبدى
مثل ضوء البدر صورته ... ليس بالزميلة النكد[١٠٨]
من بنى آل المغيرة لا ... خامل نكس ولا جحد

---

(١٠٦) راجع مصارع العشاق ١١٠/١ : ١١١ وعيون الأخبار ١٢٨/٤ ، ١٢٩ وشاعرات العرب .

(١٠٧) الأبيات فى « بلاغات النساء » : ١٩٦

(١٠٨) الزميلة : الضعيف الجبان الرذل .

نظـــرت يومـاً فلا نظـــرت   بعــده عينى الى أحـــد [١٠٩]

وزعم النسابون أن الفريعة بنت همام أم الحجاج عشقت فتى من بنى سليم يقال له : نصر بن الحجاج ، وكان أحسن أهل زمانه صورة ، فضنيت من حبه ، ثم لهجت بذكره ، فمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه ذات ليلة بباب دارها ، فسمعها تنشد هذا الشعر :

يا ليت شـــعرى عن نفسى أزاهقـــة
منى ولم أقض ما فيهـا من الحـاج[١١٠]
ألا ســـبيل الى خمـــر فأشربهـــا
أم لا ســـبيل الى نصر بن حجـــاج
الى فتى ماجـــد الأعراق مقتبـــل
ســـهل المحيا كـــريم غـير ملجـــاج
تنميه أعراق صـــدق حيث تنســـبه
تضىء ســـنته فى الحـــالك الداجى
نعـــم الفتى فى ســـواد الليـــل نصرته
ليـــائس أو لملهـــوف ومحتـــاج
يا منيـــة لم أرم فيهـــا بضـــائرة
والناس من صـــادق منهـا ومن راجى

فلما أصبح دعا بنصر بن حجاج ، فأتى به ، فاذا هو أحسن الناس وجهاً وشعراً ، فقال : على بالحجام ، فجز شعره ، فخرجت له وجنتان كأنهما شقتا قمر ، فقال : « اعتم » ، فاعتم ، ففتن الناس ، فقال عمر : « والله لا تساكننى ببلد وأنا فيه » قال : « ولم ذاك يا أمير المؤمنين ؟ » ، قال : « هو ما قلت لك » ، فنفاه الى البصرة ، وخشـــيت فريعة أن يبدر اليهـــا عمـــر بشىء ، فكتبت الى عمـــر رضى الله تســـتعطفه بهـــذه الأبيات :

---

(١٠٩) الأبيات فى « الأغانى » : ٥٨/٩
وشاعرات العرب

(١١٠) الشعر والخبر فى « تزيين الأسواق » : ٢٩/٢ ، و « مصارع العشاق » ٢٦٦/٢ وأنظر « أخبار عمر » : ٤٢٩ الطنطاويين .

قـــل للامـــــــام الذى تخشى بوادره
مالى وللخمر أو نصر بن حجـــاج

انى عنيت أبا حفص بغيرهمــــا
شرب الحليب وطرف قاصر سـاجى

لا تجعـــل الظن حقــــا أو تبينــــه
ان السـبيل سـبيل الخائف الراجى

ان الهــوى زمه التقـــوى وقيده
حتى أقـــــر بالجـــــام واسراج

وكان عمر رضى الله عنه قد سأل عنها ، فوصفت له بالعفاف ، فارسل اليهـا : « قد بلغنى عنك خير ، فقرى ، انى لم أخرجه من أجلك ا ولكن بلغنى أنه يدخـل على النسـاء ، فلسـت آمنهن » ، وبكى عمر وقال : « الحمد لله الذى قيد وقد أقر بالجام واسراج » [111] .

ومن شــعر ليـلى العــامرية ٦٨هـ (فى المجنون)

قالت ليلى فيه :

لم يكن المجنـــون فى حـــالة الا وقد كنت كمـــا كـــــانا
لكنـــه باح بسر الهـــوى واننى قد ذبت كتمــــــانا

ولهـا فيـه أيضـا :

باح مجنـــون عامـــر بهـــواه وكتمت الهـــوى فمت بوجدى
فاذا كان فى القيـــــامة نودى من قتيـــل الهوى تقدمت وحدى

ولها فى جواب شعر له :

نفسى فـــــداؤك لـــو نفسى ملكت اذن
ما كان غـيرك يجزيهـا ويرضـيها

---

(١١١) « اخبار عمر » : ٤٣٠

هى ليلى بنت سعد بن مهدى بن ربيعة ، من فضليات نساء عصرها واجملهن ، كان يهيم بها قيس بن الملوح بن مزاحم المعروف « بمجنون ليلى » ، وكان اجمل فتيان قومه وأظرفهم وارواهم لأشعار العرب .

صبراً على ما قضـــاه الله فيـــك على
مرارة فى اصــــطبارى عنك أخفيهــا

ولها أيضاً :

ألا ليت شـــعرى والخطوب كثيرة
متى رحل قيس مستقل فراجع [١١٢]
بنفسى من لا يســـتقل برحـــله
ومن هو ان لم يحفظ الله ضـــائع

ولهـــا أيضـــا :

أخبرت أنك من أجـــلى جننت وقد
فارقت أهـــلك لم تعقـــل ولم تفق

ومن شـــعرها فى هـــذا الفن

كلانا مظهـــر للناس بغضـــاً
وكل عنـــد صـــــاحبه مكـــين
تبلغنـــا العيـــون بمـــا أردنا
وفى القلبين ثم هــــوى دفـــين
وأسرار اللواحـــــظ ليس تخفى
وقـــد تغرى بذى الخطـــأ الظنـــون
وكيف يفـــوت هـــذا النـــاس شىء
وما فى الناس تظهـــره العيـــون

أميمة امرأة ابن الدمينة

قال أبو الفرج عن هشام قال : هوى ابن الدمينة امرأة من قومه يقـــال لها : أميمة ، فهام بها مدة ، فلما وصلته تجنى عليها وجعل ينقطع عنها ، ثم زارها ذات يوم، فتعاتبا طويلا ، ثم أقبلت عليه فقالت :

---

(١١٢) « الشعر والشعراء » : ٤٧١ . و « مصارع العشاق » : ٣٣/١

وأنت الذى أخلفتنى ما وعـــــدتنى
وأشــمت بى من كان فيك يلوم [١١٣]

وأبرزتنى للنـــــــاس ثم تركتنى
لهم غرضـــاً أرمى وأنت ســـليم

فلو كان قول يكلم الجســـم قد بدأ
بجســمى من قول الوشــــاة كلوم

وقالت :

تجاهلت وصــــلى حين لجت عمايتى
وهلا صرمت الحبل اذ أنا مبصر [١١٤]

ولى من قوى الحبــل الذى قد قطعته
نصـــيب واذ رأيى جميع موفـــر

ولكنمـــا آذنت بالصرم بغتـــــة
ولســـت على مثل الذى جئت أقدر

(١١٣) الخبر مع الشعر فى « الأغانى » ٢/٤٨ ، ١٧/٥٣ ، و « عيون التواريخ » وفيات سنة ١٤٣ و « الحيوان للجاحظ » ٣/٥٥

(١١٤) « الأغانى » ١٧/٥٥

الفصل الرابع

الهجـــاء

ســـار الهجاء على ســـنن الجـــاهلية من حيث الذم الجســـدى وكان الهجـــاء عنـــد الشـــاعرات العربيـــات المســـلمات قليـــلا جدا وفى نطـــاق محدود لما قدمنـــا من أن هذا الفن أيضـــا تأباه طبـــاع المرأة الوادعة ، ولانه يتنافى وتعاليم الاسلام الحنيف الذى ينهى عنه وينفر منه ذوقها المرهف ، ومع هذا فقد قالته قلة قليلة من الشاعرات ، فقد هجت حميدة بنت النعمان بن بشير أزواجها ويبدو ان حميدة هذه كانت كلفة بالهجاء ، فقد هجت زوجها الأول الحارث بن خالد بن العاص ابن هشام وزوجها الثانى روح بن زنباع وزوجها الثالث الفيض بن محمد الحكم تقول فى زوجها الحارث :

نكحت المدينى اذ جـــــاءنى ... فيـــــا لك من نكحـــــة غاوية
كهول دمشـــــق وشـــــبانها ... أحب الينــــا من الحاليـــــة
صنان لهم كصنان التيوس أعيا على المسك والغالية[115] .

ومن شعر ليلى الأخيلية فى الهجاء [116] :

وكان هد هجاها النابغة الجعدى بقوله :

ألا حييا ليـــلى وقولا لها هــــلا ... فقد ركبت أمـــراً أغر محجـــلا

فقالت :

أنابـــــغ لم تنبـــــغ ولـــم تك أولا
وكنت صنيا بين صدين[117] مجهلا[119]

أنابـــغ لم تنبـــغ بلؤمـــك لا تجـــــد
للؤمك الا وســـط جعدة مجهـــلا [*]

---

(115) راجع الأغانى ١٣٢/٨ ، وسمط اللآلى ١٨٠
(116) الأغانى ١٧/٥
(117) الصنى : شعب صغير يسيل منه المـــاء .
(118) وصدان : جبلان .
(*) والمجهل : الأرض التى لا يهتدى بها .

أغراض مختلفة

وقالت المرأة الشعر فى أغراض أخرى مختلفة فأبدعت فيها وحلقت حتى بلغت السماكين وفاقت الشعراء فى بعض الأحيان ، نقرأ شعرها فكانما تنثر الدر من فيها ، والنضار من ثناياها .

ومن شعر امرأة غاب زوجها فى عهد سيدنا عمر بن الخطاب

وكان قد خرج رضى الله عنه ذات ليلة يطوف بالمدينة ، وكان يفعل ذلك كثيراً ، فمر بامرأة من نساء العرب مغلقة عليها بابها وهى تقول :

تطاول هذا الليل تسرى كواكبه	وأرقنى أن لا خليل ألاعبه[١٢٠]
ألاعبه طوراً وطوراً كأنما	بدا قمر فى ظلمة الليل حاجبه
يسر به من كان يلهو بقربه	يعاتبنى فى حبه وأعاتبه
فوالله لولا الله لا شىء غيره	لزحزح من هذا السرير جوانبه
ولكننى أخشى رقيباً موكلا	بأنفسنا لا يفتر الدهر كاتبه

ثم تنفست الصعداء وقالت : هان على عمر بن الخطاب وحشتى وغيبة زوجى عنى ، وعمر واقف يستمع قولها ، فقال لها : يرحمك الله يرحمك الله ، ثم وجه اليها بكسوة ونفقة ، وكتب فى أن يقدم عليها زوجها .

ومن شعر ميسون بنت بحدل

هى ميسون بنت حميد بن بحدل بن أنيف ، من بنى حارثة بن جناب الكلبى . وكانت بدوية تزوجها معاوية بن أبى سفيان ، ونقلها من البادية الى ريف الشام ، وأسكنها قصراً من قصور الخلافة ، فكانت تكثر الحنين والتذكير لمسقط رأسها بعد أن ثقلت عليها الغربة . فأنصت لها معاوية يوماً ، فسمعها تنشد الأبيات التالية [١٢١] :

لبيت تخفق الأرواح فيه	أحب الى من قصر منيف

---

(١٢٠) الخبر والشعر فى « مصارع العشاق » : ٢/١٤٦ ، و « الحماسة البصرية » : ١٤٧

(١٢١) الأبيات فى « خزانة الادب » : ٥٩٣

وبكر يتبع الأظعـــان ســـقباً ... أحب الى من بغــل زفوف (١٢٢)
وكلب ينبح الطـــراق عنى ... أحب الى مـــن قط أليف
ولبس عبـــاءة وتقـر عينى ... أحب الى من لبس الشفوف (١٢٣)
وأكل كســيرة فى كسر بيتى ... أحب الى من أكـل الرغيف (١٢٤)
وأصـــوات الرياح بكل فج ... أحب الى من نقــر الدفوف
وخـــرق من بنى عمى نحيف ... أحب الى من عــلج عليف (١٢٥)
خشونة عيشتى فى البدو أشـهى ... الى نفسى من العيش الطـريف
فما أبغى ســوى وطنى بديلاً ... فحســبى ذاك من وطن شريف

فقال لها معاوية : ما رضيت يا ابنة بحدل حتى جعلتنى علجاً عليفاً ، فالحقى بأهلك ، وطلقها ، فمضـت الى بادية كلب ، وابنهـا يزيد معها ، ويقال انها كانت حاملا به، فوضعته فى البرية ، فنشأ فصيحاً .

وقالت زوجة أبى الأســود

وكان لاحاها زوجها(١٢٦) عند معاوية فى أمر ولدها (وكانت مطلقة) وقال لها شعرا ، فأجابته :

ليس من قال بالصــواب وبالحق ... كمن جـار عن منار الســبيل
كان ثديى ســقاءه حين يضحى ... ثم حجرى فنـــاؤه بالأصـيل
لست أبغى بواحدى يا ابن حرب ... بدلا ما عامتـــه والجليـــل

(١٢٢) البكر : الفتى من الابل . والسقب : الذكر من ولد الناقة وزفوف : مسرع .
(١٢٣) الشفوف : جمع شف ، بكسر الشين وفتحها ، وهو الثوب الرقيق ، سمى بذلك لأنه يستشف ما وراءه .
(١٢٤) الكسيرة : القطعة من الخبز ، والكسر : طرف الخباء من الارض .
(١٢٥) الخرق : الكريم . والعلج : الصلب الشديد ، وبه سمى حمار الوحش ، تقصد بذلك زوجها معاوية .
(١٢٦) هو ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل الدؤلى ، كان معدودا من الفقهاء والأعيان والأمراء والشعراء والفرسان والحاضرى الجواب ، وهو واضع علم النحو ، سكن البصرة فى خلافة عمر ، وولى امارتها فى أيام على ، وشهد معه صفين ، مات سنة ٦٩هـ بالبصرة .

فقضى لها معاوية بالولد •

وقالت بنت اسلم البكرى وكان قد قبض الحجاج على أبيها ورام قتله فقال أيها الأمير انى أعول أربعا وعشرين امرأة وأحضرهن وكان فى آخرهن جارية قاربت عشر سنين فقال لها من أنت منه قالت ابنته ثم انشأت تقول : —

أحجاج لم تشـــهد مقام بناته وعمــاته يندبنه الليــل أجمعــا

أحجــاج قد تقتــل به ان قتلته ثمــانا وعشرا واثنتين وأربعــا

أحجــاج اما أن تجــود بنعمة علينــا واما أن تقتلنــا معا

فرق لها الحجاج وبكى وكتب الى عبد الملك يخبره بأمرهم فكتب اليه ان يحسن معاملتهم وصلتهم ويعفو عن الرجل •

وقالت أم البراء بنت صفوان

وكانت شاعرة ذات لســان فصيح ومنطق مبين ، وهى ممن دخلن على معاوية ، فاستأذنت عليه ، فأذن لها ، فدخلت عليه ، فقال لها معاوية : كيف أنت يا بنت صــفوان ؟ قالت : بخير يا أمير المؤمنين ، قال : فكيف حالك ؟ قالت : ضعفت بعد جلد ، وكسلت بعد نشاط • قال : سيان بينك اليوم ، وحين تقولين :

يا عمرو دونك صــارماً ذا رونق عضب المهــزة ليس بالخـــوار

أسرج جوادك مسرعاً ومشــمراً للحــرب غير معرد لفــرار

أجب الامــــام ودب تحت لوائه وافر العدو بصـــارم بتـــار

يا ليتنى أصــــبحت ليس بعورة فأذب عنه عســـاكر الفجـــار

قالت : قد كان ذاك يا أمير المؤمنين ومثلك عفا ، والله تعالى يقول : (عفا الله عما ســلف) • قال : هيهات أما انه لو عاد لعدت ، ولكن اخترم دونك ، فكيف قولك حين قتل ؟ قالت :

ياللرجــال لعظــم هــول مصيبة فدحت فليس مصـــابها بالهازل

الشمس كاســفة لفقد امامنـــا خير الخـــلائق والامام العادل

يا خير من ركب المطى ومن مشى فوق التراب لمحتف أو ناعـــل

حاشـــا النبى لقد هددت قواءنا فالحق أصبح خاضـــعاً للباطل

فقال معاوية ، قاتلك الله يا ابنة صفوان ما تركت لقائل مقالا ، اذكرى حاجتك ، قالت هيهات بعد هذا والله لاسألتك شيئا ثم قامت فعثرت فقالت تعس شانىء على فقال يا بنت صفوان زعمت أن لا ٠٠!! قالت هو ما علمت، فلما كان الغد بعث اليها بكسوة فاخرة ودراهم كثيرة وقال : « اذا أنا ضيعت الحلم فمن يحفظه » (١٢٧) .

ومن شعر بكارة الهلالية

وكانت من نساء العرب الموصوفات بالشجاعة والاقدام والفصاحة والشعر والنثر والخطابة ، استأذنت على معاوية ، فأذن لها وهو يومئذ بالمدينة ، فدخلت عليه ، وكانت امرأة قد أسنت وعشى بصرها ، وضعفت قوتها ، ترعش بين خادمين لها فسلمت وجلست ، فرد عليها معاوية السلام ، وقال : كيف أنت يا خالة ؟ قالت : بخير يا أمير المؤمنين . قال : غيرك الدهر . قالت : كذلك هو ذو غير من عاش كبر ، ومن مات قبر ، قال عمرو بن العاص هى والله القائلة يا أمير المؤمنين :

يا زيد دونك فاستثر من دارنا ... سيفاً حساماً فى التراب دفينا
قد كنت أذخره لكل عظيمة ... فاليوم أبرزه الزمان مصونا

قال مروان : وهى القائلة يا أمير المؤمنين :

أترى ابن هند للخلافة مالكا ... هيهات ذاك وان أراد بعيد
منتك نفسك فى الخلاء ضلالة ... أغراك عمرو للشقا وسعيد
فارجع بأنكد طائر بنحوسها ... لاقت علياً أسعد وسعود

وقال سعيد بن العاصى : هى والله القائلة :

قد كنت أطمع أن أموت ولا أرى ... فوق المنابر من أمية خاطباً
فالله أخر مدتى فتطاولت ... حتى رأيت من الزمان عجائبا
فى كل يوم لا يزال خطيبهم ... بين الجموع لآل أحمد عائبا

ثم سكتوا فقالت يا معاوية كلامك أعشى بصرى وقصر حجتى فقالت : أنا والله قائلة ما قالوا ، وما خفى عليك منى أكثر فضحك وقال ، ليس يمنعنا ذلك من برك اذكرى حاجتك قالت الآن فلا (١٢٨) .

---

(١٢٧) بلاغات النساء : ٧٨ : ٧٩ ، وشاعرات العرب .
(١٢٨) العقد الفريد ١٠٥/٢ وانظر شاعرات العرب ٣٦

الباب الثالث

شـــعر الشـــاعرات المولدات

ويشمل العصر العباسى والاندلسى

الفصل الأول

الرثاء

وكما أجادت المرأة الرثاء فى العصرين السابقين (الجاهلى وصدر الاســلام) أجادته كذلك فى عصر (المحدثين والمولدين) لأن الرثاء كما قدمنا وثيق الصلة بنفوسهن لرقة شعورهن ، وضعف قدرتهن على احتمال الخطوب والكوارث والرثاء والنواح فن النساء الشعرى الذى نبغن فيه فالمرأة اكثر مطاوعة للاحزان من الرجل وأشد استجابة لتأثير الوجدانات والعواطف منه ولازالت النساء حتى عصرنا الحاضر يرون الندب والنواح من المظاهر الدالة على تكريم الميت والوفاء له ، جرى على ذلك الشاعرات المتقدمات وقلدهن فى ذلك المتأخرات : ـــ

قالت لبـــانة بنت ريطـــة

وكانت من أجمل النساء ، تزوجها محمد الأمين ، ولم يبن بها ، وقتل فقالت ترثيه :

أبكيـــك لا للنعيـــم والأنس	بل للمعالى والرمح والفرس (١٢٩)
أبكى على ســـيد فجعت به	أرملنى قبـــل ليـــلة العرس
يا فارساً بالعـــراء مطرحـــاً	خانتـــه قـــواده مع الحرس
من للحروب التى تكـون بهـــا	ان أضرمت نارهـــا بلا قبس
من لليتامى اذا هم ســـغبوا	وكل عـــان وكل محتبس
أم من لبر أم من لعـــائذة	أم من لذكـــر الاله فى الغلس

وقالت زبيـــدة بنت جعفـــر

وهى أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن المنصور الهاشمية العباســية زوجة هارون الرشيد ، وبنت عمه ، من فضليات النساء وشهيراتهن وأعظم

(١٢٩) الأبيات فى « العقد الفريد » : ٢٧٧/٣ ، و « الكامل » : ٩٥/٤

نساء عصرها ديناً وأصلا وصيانة ومعروفاً • وهى أم الأمين العباسى • اسمها « أمة العزيز » وغلب عليها لقبها ، واليها تنسب « عين زبيدة » فى مكة ، جلبت اليها الماء من أقصى وادى نعمان شرقى مكـة ، وأقامت له الأقنية حتى أبلغته مكة • تزوج بها الرشيد سنة ١٦٥ هـ • ولما مات وقتل ابنها الأمين اضطهدها رجال المأمون ، فكتبت اليه تشكو حالها ، فعطف عليها ، وجعل لها قصرا فى دار الخلافة ، وأقام لها الوصائف والخدم :

كتبت الى المأمون بأبيات ترثى بها سوء حالها بعد فقد ولدها •

لخـير امام قام من خـير عنصر ... وأفضـل سـام فوق أعواد منبر

لوارث عـلم الأولين وفهمهم ... وللملك المأمـون من أم جعفر

كتبت وعينى مسـتهل دموعها ... اليك ابن عمى من جفون ومحجر

وقد مسـنى ضـير وذل كآبة ... وأرق عينى يا ابن عمى تفكـرى

وهمت لما لاقيت بعد مصـابه ... فأمرى عظيم منكـر عند منكـر

سأشـكو الذى لاقيته بعد فقده ... فأنت لبيتى خـير رب معمر

أتى طـاهر لا طهر الله طـاهراً ... فما طـاهر فيمـا أتى بمطهر

فأخرجنى مكشوفة الوجه حاسراً ... وأنهب أموالى وأخـرب أدورى

يعز على هـارون ما قد لقيته ... وما مر بى من ناقص الخلق أعور

فان كان ما أبدى بأمـر أمرته ... صـبرت لأمـر من قدير مقـدر

تذكـر أمير المؤمنـين قرابتى ... فديتك من ذى حرمة متذكـر

وقالت ترثى ولدها الأمين :

أودى بألفين من لم يترك الناسـا ... فامنح فؤادك عن فضولك اليأسا

لما رأيت المنايا قد قصـدن له ... أصبن منه سواد القلب والراسا

فبت متكئاً أرعى النجـوم له ... اخال سـنته بالليل قرطاسـا

والموت كان به والهـم قارنه ... حتى سقاه التى أودى بها الكاسا

رزئته حين باهيت الرجـال به ... وقد بنيت به للدهر آسـاسـا

فليس من مات مردوداً لنـا أبداً ... حتى يرد علينـا قبـله ناسـا

ومن شعر ليلى بنت طريف

وهى شاعرة من شواعر العرب فى الدولة العباسية ، كان أخوها الوليد بن طريف الشيبانى رأس الخوارج وأشدهم بأسا وصولة وأشجعهم ، فاشتدت شوكته ، وطالت أيامه ، فوجه اليه الرشيد يزيد بن مزيد الشيبانى ، فجعل يخاتله ويماكره ، وكانت البرامكة منحرفة عن يزيد بن مزيد ، فاغروا به أمير المؤمنين وقالوا : انما يتجافى عنه المرحم ، والا فشوكة الوليد يسيرة • فوجه الرشيد كتابا مغضبا الى يزيد ، وأقسم بالله لئن أخر مناجزة الوليد ليوجهن اليه من يحمل رأسه الى أمير المؤمنين ، فسار يزيد الى الوليد بن طريف ، فلحق به وقتله ، فحملت على الناس أخته ليلى بنت طريف ، وعليها الدرع والجوشن ، فلما رآها يزيد ضرب بالرمح قطاة[١٣٠] فرسها ، فانصرفت تقول :

بتل نباتى رسم قبر كأنه ... على جبل فوق الجبال منيف [١٣١]

يضم سرورا حاتميا ونائلا ... وسورة ضرغام ورأى حصيف

ألا قاتل الله الجثى كيف أضمرت ... فتى كان للمعروف غير عيوف[١٣٢]

فالا تجبنى دمنة هى دونه ... فقد طال تسليمى وطال وقوفى

وقد علمت أن لا ضعيفا تضمنت ... اذا عظم المرزى ولا ابن ضعيف

فتى لا يلوم السيف حين يهزه ... اذا ما اختلى من عاتق وصليف

فتى لا يحب الزاد الا من التقى ... ولا المال الا من قنا وسيوف

ولا الخيل الا كل جرداء شطبة ... وأجرد ضخم المنكبين عطوف

فقدناه فقدان الربيع وليتنا ... فديناه من ساداتنا بألوف

ومازال حتى أزهق الموت نفسه ... شجا لعدو أو لجا لضعيف

---

(١٣٠) القطاة : العجز وما بين الوركين ، أو مقعد الرديف من الدابة

(١٣١) القصيدة فى « حماسة البحترى » : ٤٣ ، وانظر تخريجها فى « سمط اللآلى » : ٩١٣ .

(١٣٢) الجثوة — مثلثة الجيم — : حجارة من تراب متجمع كالقبر ، وقبل هى الحجارة المجموعة ، والجثوة : القبر ، سمى بذلك ، والجمع جثى

حليف الندى ان عاش يرضى به الندى　　وان مات لا يرضى النــدى بحليف

فان يك أداه يزيـــد بن مزيــد　　فيارب خيــل فضــها وصــفوف

أيــا شــجر الخــابور مالك مورقا　　كأنك لم تجــزع على ابن طــريف

الا يالقـــومى للنــوائب والردى　　ودهــر ملــح بالكــرام عنيف

وللبــدر من بين الكواكب اذ هوى　　وللشمس همت بعـــده بكســوف

ولليث فــوق النعش اذ يحملونه　　الى حفــرة ملحــودة وســقوف

بكت تغلب الغلبــاء يوم وفـــاته　　وأبرز منهـــا كل ذات نصــيف

يقلن وقــد أبرزن بعدك للــورى　　معــاتد حلى من برى وشــنوف

كأنك لم تشــهد مصاعا ولم تقم　　مقاما على الأعداء غير خفيف(١٣٣)

ولم تشتمل يوم الوغى بكتيبــة　　ولم تبــد فى خضراء ذات رفيف

دلاص ترى فيها كدوحا من القنا　　ومن ذلق يعجمنها بحــروف(١٣٤)

وطعنـــة خلس قد طعنت مرشـــة　　على يزنى كالشــهاب رعوف(١٣٥)

ومــائدة محمودة قــد علوتهـــا　　بأوصــل بختى أحــذ عليف(١٣٦)

وقالت ترثيه أيضا :

ذكرت الوليـــد وأيامـــه　　اذ الأرض من شخصه بلقــع

فأقبلت أطلبــه فى الســماء　　كما يبتغى أنفـــه الأجــدع

أضــاعك قومــك فليطلبــوا　　افــادة مثــل الذى ضــيعوا

لو أن الســيوف التى حــدها　　أصــابك تعــلم مــا تصــنع

نبت عنــك أو جعلت هيبـــة　　وخوفـــا لصــولك لا تقطــع

---

(١٣٣) المصاع : القتال والجلاد .

(١٣٤) الدلاص : اللين البراق ، يقال : « درع دلاص » اى : ملساء لينة . الذلق : البليغ الفصيح ، والأذلق من الالسنة او الأسنة ، جمعه ذلق : الحادة .

(١٣٥) ارشت الطعنة : اتسعت فتفرق الدم . اليزن : واد وبطن من حمير .. الراعف والركوف : الفرس يتقدم الخيل .

(١٣٦) البختية : الابل الخراسانية . الأحذ : السريع ، مؤنثه حذاء .

الفصل الثانى

الهجـاء (عند المحدثات المولدات)

أشرنا فى الباب السابق الى أن الهجاء كان قليلا وفى نطاق ضيق جدا أما فى هذا العصر (عصر المحدثين والمولدين) فقد أخذ طابعا آخر ، فقد اتسع هذا الفن تأثرا بالترف والنعيم ، وضعف النخـوة القبلية ، والشهامة العربية وكان الاماء رائدات الفحش والمجون والتحلل مثل عنان ، وقمر ، وعريب[١٣٧] وأخذت الأندلس هذا الطابع ، واصطبغت بهـذه الصـبغة وبخاصـــة فى آواخر أيام الدولة الاندلسية وتفرق الاندلسيين أيدى سبأ .

ومن نماذجه فى هذا العصر قول ولادة بنت المسـتكفى تهجو ابن زيدون :

ولقبت المســدس وهــو نعت　　تفــارقك الحيــاة ولا تفــارق
فلوطى ومأبـــــون وزان　　وديوث وقــواد وســـــارق

ولما هجا الأعمى المخزومى نزهون الغرناطية بقوله :

على وجه نزهون من الحسن مسـحة
وتحت الثيـاب العـار لو كان باديا
قواصــد نزهون توارك غـــيرها
ومن قصد البحر اسـتقل السـواقيا

أجابته بقولها :

ان كان مـــا قلت حقــــا　　من نقض عهـــد كــــريم
فصـــار ذكـــرى ذميمـــا　　يعـــــزى الى كل لـــوم
وصرت أقبـــــح شىء　　فى صـــــورة المخــزومى

وكقول أم العلاء حينما خطبها رجل أشيب :

الشيب لا يخدع فيه الصـبا　　بحيـلة فاســـمع الى نصحى
فلا تكن أخـــدع من فى الورى　　تبيت فى الجهـل كما تضحى [١]

---

(١) الأغانى ١٨/٨٠.
(٢) انظر كتاب نزهة الجلساء للمؤلف .

الفصل الثالث

المـــدح

ولم تكثر الشـــاعرات من المدح فى عصر المولدين للأســباب التى ذكرناها آنفــا فى العصر السابق ، الا اذا استثنينا بعض الجوارى الشاعرات المتصلات بقصور الخلفاء ، والحرائر اللاتى كانت لهن صلة وقربى بالولاة والملوك أو كان لهن مطلب خاص أو ظـلامة فتضطرهن الظروف الى المدح والثناء وطبيعة المرأة كما قلنا تأنف المدح وتنفر منه لانه لا يتفق وطبيعتها .

تقول قمر(*) (وهى جارية ابراهيم بن حجــاج اللخمى صاحب اشبيلية) تمدح مولاها :

مــا فى المـــكارم من كريم يرتجى
الا حليف الجـــود ابراهـــيم
انى حللت عليــه منـــزل نعمـــة
كل المنــازل مــا عـــداه ذميم(١٣٨)

وقالت عائشـــة القرطبيـــة

وهى أدبية شاعرة ذات فصاحة وبلاغة ، لم يكن من يعدلها فى زمانها من حرائر الأندلس علما وفهما وأدبا وشعرا وفصاحة ، كانت تمدح ملوك الأندلس وتخاطبهم بما يعرض لها من حاجة ، وكانت حسنة الخط تكتب المصاحف . وعنيت بجمع الكتب ولم تتزوج ، ماتت عذراء عام ٤٠٠هـ ، دخلت يوما على المظفر بن المنصور وبين يديه ولد ، فأنشدت :

أراك الله فيــه مـــا تريد ولا برحت معاليـــه تزيـــد
فقــد دلت مخــايله على مــا تؤمــله وطالعــه السـعيد
تشــوقت الجيـــاد له وهـــز الحســـام له وأشرقت البنـــود
وكيف يخيب شبل قد نمتــه الى العليــا ضراغمة أســود

(*) وقمر كان لها معرفة بصوغ الالحـــان ، وجمعت أدبا وظرفا ورواية وحفظا مع فهم بارع وجمال رائع وهى شاعرة رقيقة .

(١٣٨) نفح الطيب ١٣٧/٤

فســوف تراه بدرا فى ســـماء   من العليــا كواكبه الجنــود
فــأنتم آل عــامر خــير آل   زكا الأبنــاء منكم والجــدود
وليــدكم لدى رأى كشــيخ   وشــيخكم لدى حرب وليــد

ومن شــعر مريم بنت أبى يعقــوب

وكان أرسل صاحب اشبيلية اليها دنانير فى قرطاس مــع أبيات يمدحها فيها فأجابته :

من ذا يجاريك فى قول وفى عمــل   وقد بدرت الى فضل ولم تســل
مالى بشكر الذى نظمت فى عنقى   من اللآلى ومــا أوليت من قبــل
حليتنى بحلى أصبحت زاهيـــة   بها على كل أنثى من حلى عطــل
لله أخلاقــك الغــر التى سقيت   مــاء الفرات فرقت رقــة الغزل
أشبهت مروان من غارت بدائعــه   وأنجدت وغدت من أحسن المثــل
من كان والده العضب المهنــد لم   يلد من النسل غير البيض والأسل

وقالت حين أسنت :

وما يرتجى من بنت سبعين حجة   وســبع كنسج العنكبوت المهلهل
تدب دبيب الطفل تسعى على العصا   وتمشى بهــا مشى الأسير المكبل

وقالت حسانة التميمية

وهى حسانة بنت أبى الحسين الشاعر التميمية ، من أهل قرطبة . تأدبت وتعلمت الشعر ، فلما مات أبوها كتبت الى الحكم ، وهى اذ ذاك بكر لم تتزوج :

انى اليــك أبــا العــاصى موجعة   أبا الحسين سقته الواكف الديم(١٣٩)
قــد كنت أرتع فى نعماه عاكفــة   فاليــوم آوى الى نعماك ياحكم
أنت الامام الذى انقاد الانام له   وملكتــه مقاليـــد النهى الأمم
لاشىء أخشى اذا ما كنت لى كنفا   آوى اليــه ولا يعرونى العــدم
لازلت بالعزة القعســـاء مرتديا   حتى تذل اليك العــرب والعجم

فلما وقف الحكم على شعرها استحسنه ، وأمر لها باجراء مرتب ، وكتب الى عامله على البيرة(١٤٠) فجهزها بجهاز حسن .

---

(١٣٩) هذه الأبيات والتى تليها مع خبرها فى « نفح الطيب » ٥/٣٠٠

(١٤٠) فى « معجم البلدان » : بيرة بدون الف ولام . وقال ياقوت : « بيرة بالفتح » كذا ضبطه الحميدى وقال : هى بليدة قريبة من ســاحل البحر بالأندلس .

ويحكى أنها وفدت ، بعد وفاة الحكم ، على ابنه عبد الرحمن تشكو عامله جابر بن لبيد والى البيرة ، وكان الحكم قد وقع لها بخط يده تحرير أملاكها ، فلما طالبت جـابرا بذلك لم يجبهـا ، فدخلت الى الامـام عبد الرحمن ، وانتسبت اليه ثم أنشدته :

الى ذى الندى والمجد سارت ركائبى على شحط تصلى بنـار الهواجر
ليجبر صـدعى انه خير جـابر ويمنعنى من ذى الظلامـة جـابر
فانى وأيتـامى بقبضـة كفـه كذى ريش أضحى فى مخالب كاسر
جدير لمثـلى أن يقـال مروعـة

لموت أبى العاصى الذى كان ناصرى

سـقاه الحيـا لو كان حياً لما اعتدى

على زمـان باطش بطش قـادر

أيمحـو الذى خطته يمنـاه جـابر

لقد سـام بالأملاك احدى الكبـائر

ولما فرغت ، رفعت اليه خط والده ، وحكت جميع أمرها ، فرق لها ، وأخذ خط أبيه فقبله ووضعه على عينيه ، وقال : تعدى ابن لبيد طوره ، حتى رام نقض رأى الحكم ، وحسبنا أن نسلك سبيله بعده ، ونحفظ بعد موته عهده ، انصرفى يا حسانة فقد عزلته لك ، ووقع لها بمثل توقيع أبيه الحكم ، وأمر لها بجائزة ، فانصرفت وبعثت اليه بأبيات تشكره :

ابن الهشـامين خـير الناس مأثرة

وخـير منتجع يومـاً لرواد

ان هز يوم االوغى أثنـاء صـعدته

روى أنابيبهـا من صرف فرصـاد

قل للامام أيا خـير الورى نسـباً

مقـابلا بين آباء وأجـداد

جودت طبعى ولم ترض الظـلامة لى

فهـاك فضـل ثناء رائح غـاد

فان أقمت ففى نعمـاك عاكفـة

وان رحـلت فقـد زودتنى زادى

الفصل الرابع

الغـــزل

ان استبحار عمران الدولة بعث كبراءها على الاستكثار من أسباب اللهو ، ولاسيما الخمور والجوارى والغلمـان مع ميلهم الى سـماع الأدب والشـعر فتولدت طبقـة من الشـعراء أكثروا من الغـزل المكشوف وبالغوا فى المجـون وتفننوا فيه وعرفوا بالشـعراء المجـان وقد تهتكوا فى مجونهم الى أقصى غاية وهم يمثلون الآداب الاجتماعية فى تلك الطبقة من الناس فى ذلك العصر والشـعراء عنوان آداب الأمة أو مثال يدل عليها[1] .

ومع رغبة الخلفـاء والأمراء والوزراء فى الأدب والعـلم ، فانهم سايروا الحضـارة فكانوا يعقدون مجالس الأنس والشراب يحضرها الشـعراء والمغنـون فكثر فى شـعرائهم أهـل الخـلاعة والمجـون والتهتك ونظرا لكثرة تردد الشـعراء على مجـالس الأنس والطـرب أصبح التغنى والتغزل ديدنا لهم فلم يتجـه منهم الى الغزل العذرى غير الذين ظلوا على بداوتهم بعيدين عن مفاسد المدينة ، أما المتهتكون والمتغزلون فبلغ من مجونهم أن يشترك بضعة رجـال منهم فى عشق غـلام وقد يتوسط الشـاعر فى المصالحة بين عاشقين لاصلاح ذات البين ، ويفعلون أقبح من ذلك مما يخجل القلم من ذكره . غير مجالسهم فى أماكن اللهو على موائد الشرب التى يخالطها تهتك وخـلاعة ، كمـا كانوا يفعلون فى منزل اسماعيل القراطيسى الكوفى اذ كان يجتمع عنده امامهـم أبو نواس ، وأبو التاهية ومسلم بن الوليـد وحسن الخليـع يتغزلون ويمارسون أنواع المجون[1] .

ولقد فاض غزل النساء فى العصر العباسى ، وشجع عليه ما شاع من انتشار اللهو والمجون فى هذا العصر واتخذ الغزل طابعاً جديداً مغايراً

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية جرجى زيدان ، ج ٢ ص ٤٥ .
(٢) نفس المصدر .

للغزل فى الحقب السابقة ، تأثرا بالحضـــارة والمدنية وضـــعف الاخلاق الاسلامية الأصيلة ، وانتشار معاقرة الخمر والنساء ، وكان يتولى صنع الخمر غير المسلمين فى حانات لهم سرية تقع بين الكروم فى ضواحى المدن أوفىالأديرة وكان البطالون لا يصلون الى الخمر الا بعد مشقة ودفع أثمان باهظة ، هذه العوامل وغيرها كانت سبباً فى انتشار الغناء والشعر وتظهر هذه الأسباب واضحة فى أواخر عهد الأندلسيين واسرافهم فى اللهو والمجون مما عجل بضياع دولتهم ونسوق بعض نماذج للغزل فى هذه الفترة •

من شعر ولادة بنت المستكفى

هى أول من سن للنساء سنة الانكشاف والاستخفاف ، ومن المجلين فى حلبة الحب والأدب • وكان بيتها مثابة الوزراء والادباء من الطبقة العالية ، يتساجلون أمامها الأدب والشعر والنقد ، منهم ابن زيدون وأبن عبدوس المشهوران فى تاريخ الأدب العربى • وهى عفيفة شريفة لم تنزع الى ريبـــة ولا تدنت الى مأثمة • وتوفيت سنة ٤٨٠ عن عمر طويل • قالت (فى رواية الطيب) :

ودع الصـــبر محب ودعـــك ذائع من سره ما اســـتودعك
يقـــرع الســـن على أن لم يكن زاد فى تلك الخطـــا اذ شـــيعك
يا أخا البـــدر ســـــناء وسنى حفظ الله زمـــــاناً أطـــلعك
ان يطـــل بعـــدك ليـــلى فلكم بت أشـــكو قصر الليـــل معـــك

وقالت للوزير ابن زيدون الشاعر المشهور :

ترقب اذا جن الظــــــلام زيارتى
فانى رأيت الليـــــل أكتـــم للسر
وبى منك ما لو كان بالشمس لم تلح
وبالبدر لم يطـــلع وبالنجم لم يسر

وكتبت اليه :

ألا هـــل لنـــا من بعـــد هذا التفرق
ســـبيل فيشكو كل صب بما لقى (١٤١)

(١٤١) الصب : العاشق وذو الولع الشديد .

تمر الليــــالى لا أرى البين ينقضى
ولا الصبر من رق التشــوق معتقى
وقد كنت أوقات التزاور فى الشـــتا
أبيت على جمر من الشــــوق محرق
فكيف وقد أمســيت فى حــال قطعه
لقد عجـــل المقــدور ما كنت أتقى
سقى الله أرضــا قد غدت لك منزلا
بكل ســكوب هاطـــل الوبل مغدق

ومما ينسب اليها :

لحاظكم تجرحنـــا فى الحشـــا   ولحظنـــا يجرحكم فى الخـدود
جرح بجرح فاجعـــلوا ذا بذا   فما الذى أوجب جرح الصـدود

ومرت يوماً بدار (ابن عبدوس) — وكانت تهزأ به كثيراً — وهو جالس بالباب وحوله أصحابه ، وأمامه بركة تتولد من أقذار ، فوقفت عليه وقالت : يا أبا عامر :

أنت الخصـــيب وهـــذه مصر   فتدفقـــا فكلاكمـــا بحـــر

والبيت لأبى نواس •

وقالت أم الكرام بنت المعتصم بن صمادح[١٤٢] :

يا معشر الناس ألا فاعجبـــوا   ممـــا جنته لوعـــة الحب
لولاه لم ينزل ببـــــدر الدجى   من أفقـــه العــــلوى للترب
حســـبى بمن أهـــواه لو انه   فارقنى تابعـــــــــه قلبى

---

(١٤٢) هو محمد بن معن صـــاحب المرية والبجانة والصمادية من بلاد الأندلس ولى سنة ٤٤٣هـ وسمى نفسه « بعضد الدولة » ولمـا تلقبت ملوك الأندلس بالألقــاب السلطانيــة لقب نفســـه المعتصم بالله الواثق بفضــل الله ، وكان كريما ســمحا ممدوح السيرة عالما بالأدب والأخبــار شاعرا ، وللشعراء فيه أماديح أقام ملكا ٤١ سنة هاجمه جيش يوسف ابن تاشفين وهو يعالج الموت فجعل يقول : نغص علينـــا حتى الموت .

وقـالت حمـدة بنت زيـاد الأندلسية

وهي حمدة ويقال حمدونة بنت زياد بن تقي المؤفى ، من قرية بادي من أعمال وادي آش . كان أبوها زياد مؤدبا ، وكانت أديبة نبيلة شاعرة ، ذات جمال ومال مع العفاف والصون ، الا أن حب الأدب كان يحملها على مخالطة أهله مع نزاهة موثوق بها ، وكانت تلقب بخنساء المغرب وشاعرة الأندلس .

وقد خرجت متنزهة بالرملة من نواحي وادي آش ، فرأت ذات وجه وسيم أعجبها فأنشدت (*) :

أباح الدمـــع أسراري بوادي ... له في الحســـن آثار بوادي
فمن نهــر يطــوف بكل روض ... ومن روض يرف بكـــل وادي
ومن بين الظبـــاء مهـــاة انس ... ســـبت لبي وقد ملكت فؤادي
لهـــا لحظ ترقـــده لأمــر ... وذاك الأمـــر يمنعني رقـــادي
اذا ســـدلت ذوائبهـــا عليها ... رأيت البـــدر في أفق الســـواد
كأن الصـــبح مات له شـــقيق ... فمن حـــزن تسربل بالحـــداد

وقالت سلمى بنت القراطيسي

وهي من أهل بغداد وكانت مشهورة بالجمال قالت :

عيون مها الصريم فـــداء عيني ... وأجيـــاد الظبـــاء فـــداء جيدي
أزين بالعقـــود وان نحـــري ... لأزين للعقـــود من العقـــود
ولا أشكو من الأوصـــاب ثقلا ... وتشـــكو قامتي ثقل النهـــود

وقالت أنس القلوب

وكانت غنت عند المنصور بن أبي عامر :

قدم الليـــل عند ســـير النهـــار ... وبدا البدر مثل نصـــف ســـوار
فكأن النهـــار صـــفحة خد ... وكأن الظـــلام خط عـــذار
وكأن الكؤوس جـــامد مـــاء ... وكأن المدام ذائب نـــــار
نظـــري قد جنى على ذنـــوباً ... كيف مما جنتـــه عيني اعتذاري

(*) الأبيـــات في « معجـــم الادبـــاء » : ٢٧٤/١٠ ، وفي « فـــوات الوفيات » : ٢٨٩/١ .

يا لقومى تعجبـــوا من غزال ... جائر فى محبتى وهو جـــارى
ليت لو كان لى اليه ســـبيل ... فأقضى من الهـــوى أوطـارى

وبدر اليها المنصور فأغلظ فى كلامه يسألها أن تصدقه لمن تشير بهذه المعانى ، فبكت وطلبت منه العفو وقالت :

أذنبت ذنبـــاً عظيمـــاً ... فكيف منه اعتـــذارى ؟
والله قـــدر هـــذا ... ولم يكن باختيـــارى
والعفـــو أحســن شىء ... يكـــون عند اقتـــدار

تقيـــة

أم على الصـــورى

هى تقية بنت غيث بن على السلمى الأمنازى ، وتلقب بست النعم ، فاضلة متأدبة ، لها شعر جيد ، قصائد ومقاطيع ، أصلها من صور ، وولدت فى دمشق ، وسكنت الأسكندرية ، وتوفيت بها .

عثرت يوماً ، فانجرحت ، فشقت وليدة فى الدار خرقة من خمارها ، وعصبت به جرحها ، فقالت :

لو وجدت الســبيل جدت بخدى ... عوضـــاً عن خمار تلك الوليـــدة
كيف لى أن أقبـــل اليوم رجـــلاً ... سلكتدهرها الطريق الحميدة[١٤٣]

وقالت الحجناء بنت نصيب

وكان قد خرج المهدى يتنزه بـ « عيسى باذ » ، فقدم النصيب ومعه ابنته حجناء ، فدخل على المهدى وهى معه ، فأنشدته قولها :

رب عيش ولذة ونعيـــــم ... وبهـــاء بمشرق الميـــدان[١٤٤]
بســـط الله فيه أبهى بســـاط ... من بهـــــار وزاهر الحوذان
ثم من ناضر من العشـــب الأخ ... ضر يزهـــو شـــقائق النعمـــان
مده الله بالتحاســـين حتى ... قصرت دون طـــوله العينـــان
حففت حافتـــاه حيث تنـــاهى ... بخيـــام فى العين كالظلمـــان
زينوا وســـطها بطـــارمة مث ... ـــل الثريـــا يحفهـــا النسران

---

(١٤٣) « شذرات الذهب » : ٢٦٥/٤ .
(١٤٤) الشعر فى « الأغانى » : ٤٢٠/٢٢ ، ٤٢٢ .

ثم حشـــو الخيام بيض كأمثا ل المها فى صرائم الكثبــــان
يتجـاوبن فى غنــاء شــجى « أسـعدانى يا نخلتى حلوان »
وبقصر الســلام من ســـلم الله وأبقى خليفــــة الرحمنـ
واديه الغـــزلان بل هن أبهى عنده من شـوارد الغـــزلان
يا له منظـــراً ويوم سرور شـــدت لذتيه كل حصـــان

وقالت خديجة بنت المأمون

وكانت تقلد عمتها علية بنت المهدى فى التشبيب والتلحين ، ومن قولها فى خادم من خدم أبيها :

بالله قولوا لى لمن ذا الرشـــا المثقل الردف الهضيم الحشا[١٤٥]
أظـرف ما كان اذا ما صـحا وأملح النـــاس اذا ما انتشى
وقد بنى برج حمـــــام له أرســـل فيه طائراً مرعشـــا
يا ليتنى كنت حمـــــاماً له أو باشـــقاً يفعل بى ما يشـــا
لو لبس القوهى من رقـــــة أوجعه القوهى أو خدشـــا[١٤٦]

وقالت زينب بنت فروة المرية

وهى شاعرة من شواعر العرب ولدت بالمرية من أعمال الأندلس ، كانت ذات حسن وجمال وبهاء وكمال وأدب وظرف وتهذيب ولطف ، رقيقة المعانى ، جزلة الألفاظ ، حاضرة النادرة ، ومن شعرها :

يا أيها الراكب الغـــادى لطيته عرج أنبيك عن بعض الذى أجد
ما عالج الناس من وجد تضمنهم الا ووجدى به فوق الذى وجدوا
حسبى رضـــاه وأنى فى مسرته ووده آخـــر الأيـــام أجتهد

وقالت أيضاً :

ألم تر أهلى يا مغير كأنمـــا يفيؤون باللوماء فيـك الغنـائما
ولو أن أهلى يعلمــون تميمـــة من الحب تشـفى قلدونى التمائما

وقالت عـــريب

وعريب جارية للمتوكل ، وقيل انها ابنة جعفر البرمكى من احدى جواريه .

(١٤٥) « الأغانى » : ١٥/٣٢٩ .
(١٤٦) القوهى : ضرب من الثياب بيض .

كانت تكايد الواثق فيمــا يصوغه من الألحــان ، وتصــوغ فى ذلك الشــعر بعينه لحنــا ، فيكون أجود من لحنه ، فمن ذلك قولها :

أشــكو الى الله ما ألقى من الكمد   حسبى بربى ولا أشكو الى أحد[(١٤٧)]
أين الزمان الذى قد كنت ناعمــة   فى ظله بدنوى منك يا سندى
وأســأل الله يوما منك يفــرحنى   فقد كحلت جفون العين بالسهد
شوقا اليك وما تدرى بمــا لقيت   نفسى عليك وما بالقلب من كمد

وكتبت الى محمــد بن حامد تستزيره فأجابها : « أخــاف على نفسى » ، فكتبت اليــه :

اذا كنت تحــذر مــا تحـــذر   وتزعـــم أنـــك لا تجسر[(١٤٨)]
فمــا لى أقيــم على صـــبوتى   ويــوم لقـــائك لا يقــدر

وكتبت اليــه مرة :

تبينت عـــذرى ومــا تعـــذر   وأبليت جســمى وما تشــعر[(١٤٩)]
ألفـــت الســرور وخليتـــنى   ودمعى من العـــين ما يفتر

ومن شعرها فى ابن حامد :

ويـــلى عليـــك ومنـــكا   أوقعت فى الحق شـــكا[(١٥٠)]
زعمـــت أنى خــــؤونـ   جـــورا عــلى وافـــكا
ان كان مــا قـلت حقـــــا   أو كنت أزمعـــت تـــركا
فأبـــــدل الله مــــا بىـ   من ذلــة الحـــب نســـكا

وسمعت بنانا تغنى أبياتا أولها :

جفون حشوها الأرق

فكتبت :

أجـــاب الوابـــل الغـــدق   وصــاح النرجس الغـــرق[(١٥١)]
وقـــد غنى بنـــان لنـــا   « جفون حشـــوها الأرق »
فهـــاك الـــكأس مترعـــة   كأن حبـــابها حـــدق

(١٤٧) الاغانى ٢١/٨٧ .
(١٤٨) الأغانى ٢١/٩٨ .
(١٤٩) الأغانى : ٢١/٩٨ .
(١٥٠) الأغانى : ٢١/٧٨ .
(١٥١) الأغانى : ٢١/٨٩ .

ومما قالته فى ابن حامد :

بـــــأبى كـــــــل أزرق أصهب اللـــــون أشـــعر[١٥٢]
جـــن قــــلبى بـــه وليـــس جنـــونى بمنــــكر

وقالت أم العــلاء

هى بنت يوسف الحجارية نسبة الى وادى الحجارة بالأندلس • ومن شاعرات القرن الخامس •

ومن شعرها :

كل مـا يصــــدر منــكم حسن وبعليـــاكم تحـــلى الزمن
تعطف العـــين على منظركـــم وبذكراكم تــــــلذ الأذن
من يعش دونــــكم فى عمـــره فهو فى نيـــل الأمانى يغبن

وخطبها رجــل أشيب فكتبت اليه :

الشيب لا ينجـــع فيـــه الصبى بحيـلة فاســمع الى نصحى
فـــلا تكن أجهـــل من فى الورى يبيت فى الجهــل كمـا يضحى

وقالت عليـــة بنت المهـــدى

علية بنت المهدى العبـــاسة ، أخت أمير المؤمنين هارون الرشيد ، أديبة شاعرة ، تحسن صناعة الغناء ، كانت من أحسن خلق الله وجها ، وأظرف النساء ، وأعقلهن وأكملهن ، ذات صيانة وأدب بارع ، تزوجها موسى بن عيسى العباسى ، وكان الرشيد يبالغ فى اكرامها واحترامها ، ولها ديوان شعر •

عاشت خمسين سنة ، ولدت عام ١٦٠هـ وتوفيت عام ٢١٠هـ ببغداد •

قالت :

ليس خطب الهـــوى بخطب يسير ليس ينبيك عنـــه مثل خبير[١٥٣]
ليس أمـــر الهـــوى يدبر بالـــرأ ى ولا بالقيـــاس والتفـــكير[١٥٤]

ومن شعرها :

انى كثرت عليـــــــه فى زيارته فمـــل والشىء مملول اذا كثرا
ورابنى منـــــه أنى لاأزال أرى فى طرفه قصرا عنى اذا نظرا

(١٥٢) الأغانى : ٢١/٧٠ .
(١٥٣) « الأغانى » : ١٠/١٨٥ ، و « اشعار اولاد الخلفاء » : ٦٥
(١٥٤) وفى « الأغانى » : « والتقدير » .

ومن شعر عنـــان

وكانت عنان الناطفيـة الشاعرة المستهترة ، من أذكى النسـاء وأشعرهن • كانت جارية لرجـل يدعى الناطفى من أهـل بغداد ، وهى من مولدات اليمامة ، وقيل : المدينة ، اشتهرت ببغداد ، وكان العباس ابن الأحنف يهواها ، ولها أخبـار معه ومع أبى نواس وغيرهما • ماتت بخراسان عـام ٢٢٦هـ •

قال القالى : عنان الشاعرة اليمامية كانت بارعة الأدب ، سريعة البديهة ، وكان فحول الشعراء يساجلونها فتنتصف فيهم •

قال بكر بن حماد الباهلى : لمـا انتهى الى خبر عنان ، وأنها ذكرت لهارون ، وقيل له : انها أشعر الناس ، خرجت معترضا لها ، فماراعنى الا الناطفى مولاها قد ضرب على عضدى ، فقال لى : هل لك فيما سنح من طعـام وشراب ومجالسة عنـان ؟ فقلت : ما بعد عنـان مطلب ، ومضينا حتى أتينا منزله ، فعقل دابته ، ثم دخل ، فقال : هذا بكر شاعر باهلة ، يريد مجالستك اليوم ، فقالت : لا والله انى كسلانة ، فحمـل عليها بالسوط ، ثم قال لى : ادخل ، فدخلت ودمعها يتحدر كالجمان فى خدها ، فطمعت بها فقلت :

هذى عنـان أسـبلت دمعهـا   كالدر اذ يسـتن من خيطـه[١٥٥]

ثم قلت لها : أجيزى ، فقالت :

فليت من يضربهـا ظالمـا   تجف يمنـاه على سـوطه

فقلت لها : ان لى حاجة ، فقالت : هاتها،فمن سببك أوذينا•قلت لها : بيت وجدته على ظهر كتابى لم أقرضه ولم أقدر على اجازته ، قالت : قل ، فأنشدتها :

فمازال يشكو الحب حتى حسبنه   تنفس من أحشـائه وتكلمـا

قال : فأطرقت ساعة ثم أنشدت :

ويبكى فأبكى رحمـة لبـكائه   اذا ما بكى دمعا بكيت له دما

قلت لها : فما عندك فى اجازة هذا البيت :

بديــع حسن بديـــع صـــد جعلت خـــدى له مـــلاذا

فأطرقت ساعة ثم قالت :

فعـــــاتبوه فعنفـــوه فأوعـدوه فـكان مـاذا ؟

وكان العباس بن الأحنف يميل الى عنان جارية الناطفى يقول فيها :

قال عبـــاس وقـــد أجهـــد من وجـــد شـــديد
ليس لى صـــبر على الهجـــر ولا لذع الصـــدود
لا ولا يصـــبر للهجـــر فـــؤاد من حـــديد

فقالت :

من تراه كان أغنى منـــك عن هـــذا الصـــدود
بعد وصـــل لك منى فيه ارغـــام الحســـود
فاتحـــد للهجر ان شـــئت فـــؤادا من حـــديد
ما رأينـــاك على ما كنت نجنى بجـــليد
لو تجـــودين لصـــب راح ذاهـــم شـــديد
وأخى جهـــل بمـــا قد كان يجنى بالصـــدود
ليس من احـــدث هجـــرا لصـــديق بســـديد
ليس منـــه الموت ان لـــم تصـــطليه ببعيـــد

ودخل أبو نواس على الناطفى وعنان جالســـة تبكى على رزة فى مصراع الباب وقد كان النـــاطفى ضربها فأوما الى أبى نواس أن جربهـــا بشىء فقال أبو نواس :

عنـــان لو جـــدت لى فانى من عمرى فى (آمن الرســـول بما)

أى فى آخر عمرى لأن (آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه) آخر آية فى سورة البقرة فردت عليه :

فان تمـــادى ولا تمـــاديت فى قطعـــك حبـــلى أكن كمن ختمـــا

فرد عليها :

علقت من لو أتى عـــلى أنفس الســـما حنين والغابرين ما ندما

فردت عليه :

لو نظـــرت عينه الى حجـــر ولد فيه فتورهـــا ســـقما

ولما أخذ أبو نواس من عنان جارية الناطفى خاتما فصه من ياقوت أحمر أخذه أحمد بن خالد ، فطلبته منه عنان فبعث اليها مكانه خاتما فصه أخضر واتهمته فى ذلك فكتب الى أحمد بن خالد :

فـــدتك نفسى يا أبا جعفـــر جـــارية كالقمـــر — الأنور
تعلقتنى وتعلقتهـــــــا طفلين فى المهـــد الى المكبر
كنت وكانت تتهادى الهـــوى بخاتمينـــا غـــير مســـتنكر
حنت الى الخـــاتم منى وقـــد ســـلبتنى اياه مذ أشـــهر
فأرســـلت فيـــه فغالطتهـــا بخــــاتم وجهتـــه أخضر
قالت لقـــد كان لنا خـــاتم أحمـــر أهـــداه الينـــا سرى
لكنه علـــق غـــــيرى فقـــد أهـــدى لها الخـــاتم لا أمترى
كفـــــــرت بالله وآياته ان أنا لم أهجـــره فليصـــبر
أو يظهـــر المخـــرج من تهمتى اياه فى خاتمنـــــا الأحمـــر
فاردده تردد وصــــلها انهـــا قـــرة عينى يا أبا جعفـــر
فاننى متهم عنـــــــــدها وأنت قد تعـــــلم أنى برى

فرد الخاتم ووجه اليه بألفى درهم .

ودخـــل على عنان الشـــاعرة بعض الشـــعراء فقال لها الناطفى (عابيه) أى تكلمى بكلام لا يهتدى لمثله فقالت :

ســـقيا لقاطـــول لا أرى بلدا يسكنه الســـاكنون يشـــبهها

— فقال :

كأنهـــا فضـــــة ممـــوهة أخلص تمويههـــا مموهـــــا

فقالت :

أمن وخفض وماكبهجتهــــــــا أرغد أرض عيشـــاً وأرفهها (١)

فانقطع الرجل .

وعن العباس بن رستم قال :

---

(١) المحاسن والأضداد ، ص ١١٤ .

دخلت أنا وأبان اللاحقى على جارية الناطفى فى يوم صائف وهى جالسة فى الخيش فقال لها أبان :

لذة عيش الصيف فى الخيش ... فقالت

لا فى لقاء الجيش بالجيش

فقلت لها معرضا لها ما أحسن ما قال جرير :

ظللت أراعى صاحبى تجلدا وقد علقتنى من هواك علوق (٢)

فقالت غير متوقفة :

اذا عقل الخوف اللسان تكلمت بأسراره عين عليه نطوق

قال أبو الحسن بن الأعرابى ، اجتمع أبو نواس وداود بن رزين ، وحسين بن الضحاك وفضل الرقاشى وعمرو الوراق ، وحسين بن الخياط فى منزل عنان جارية الناطفى فتحدثوا وتناشدوا أشعار الماضيين وأشعارهم فى أنفسهم حتى انتصف النهار ، فقال بعضهم عند من نحن اليوم ؟ فقال كل واحد عندى فقالت عنان قولوا فى هذا المعنى أبياتا وتضمنوا اجازة حكمى عليكم بعد ذلك فبدأ داود بن رزين فقال :

قوموا الى قصف لهو وظل بيت كنين

فيه من الورد والمرز تجوش والياسمين

وريح مسك ذكى بجيد الزرجون (١)

وقينة ذات غنج وذات دل رصين

تشدو بكل ظريف من صنعة ابن رزين

فقال ابو نواس :

لا بل الى ثقاتى قوموا بنا بحياتى

قوموا نلذ جميعا بقول هاك وهاتى

فان أردتم فتاة أتحفتكم بفتاة

وقال حسين بن الضحاك الخليع :

أنا الخليع فقوموا الى شراب الخليع

---

(٢) ديوان جرير ، ص ٣٩٧ .

(١) الزرجون : الخمر — المحاسن والأضداد .

الى شراب لذيـــــــــــذ ... من بعد جـــدى رضـــيع
وذى دلال رخيـــــــم ... بالخندريس [١] صريـــــع
فى روضـــــة جادهـــــا ... صـــوب غاديــات الربيـع
قوموا تنـــــالوا جميعـــا ... منــــال ملك رفيــــــع

وقال الرقاشى :

لله در عقـــــــــار [٢] ... حـــــلت ببيت الرقاشى
عـــذراء ذات احمـــــرار ... (انى بهـــــا) لا أحــاشى
قومـــــوا نداماى رووا ... مشــاشـــكم ومشـــاشى
وناطحـــونى بأقداحكـــم ... نطـــــاح الكبــاشى
فان نكثت فحـــــــل ... لكـــــم دمى ورياشى

وقال عمرو الوراق :

قومـــــوا الى بيت عمـــرو ... الى ســــماع وخمـــــر
وبيشـــــكار علينـــــا ... يطـــــاع فى كل أمــــر [١]
وشـــــــادن ذى دلال ... يزهو بطـــــرف ونحـــر
فذاك بروان شـــــــــ ... ئتم أتينـــا ــ ببحــــــر

وقال حسين الخياط :

قضـــت عنـــان عليكـــم ... بأن تزوروا حســـــــينا
وأن تقـــــــروا لديـــه ... بالقصـــف والـلهـــو عينـــا
فمـــا رينـــا كظـــرف ... الحسين فيما رأينـــــــا
قـــوموا وقـــولوا أجـــزنا ... ما قد قضـــيت علينـــــا

وقالت عنان :

مهـــلا فديتك مهـــــلا ... عنـــــان أحـــرى وأولى
بأن تنـــــالوا لديهـــــا ... أشـــهى الطعـــام وأحـلى

---

(١) الخندريس : الخمر .
(٢) والعقار أيضـا : الخمر .
(٣) المشاس : النفس والطبيعة والعظـام .
(١) البيشكار : المـاهر فى العمل .

فان عنـــدى حـــرا ما | من الشراب وحـــلا
لا تطعمـــوا فى ســـوى ذا | من البريـــة كـــلا

فقالوا جميعاً قد جاز حكمك فاحتبستهم ثلاثا يقصفون عندها .

ولما غاب أبو نواس فى مصر تشـوقه الناس وذكروه ، واتصـل تفاوضهم بذكره حتى بلغ وصفه عنان فتشـوقته ثم قدم بعد ذلك من مصر ، فلماكان بعد قدومه بأيام جاء الى النطاف فقال له أبو نواس فاستأذن لى على عنان فقال له أما والله لقد أهديت اليها من زيارتك هدية كانت اليها مشتاقة ودخل فأعلمها ، وأذن له فدخل عليها فقامت وتلقته الى باب الدار فسلمت عليه ووصفت له شوقها اليه ، واحتبسته عندها يومه وليلته واتصل اجتماعهما فوجهت اليه يوما وصيفة لها تدعوه الى الصبوح معها وكتبت اليه تقول :

زرنا لتـــأكل معنـــا | ولا تغيبن عنـــا
فقـــد عزمنـــا على | الشرب صـــبحة واجتمعنـــا

فجاءته الوصيفة بالرقعة فرأها واحتال على الوصيفة حتى طاوعته على ما أراده وقال فى ذلك :

أتى رســـول عنـــان | والرأى فيمـــا فعلنـــا [١]
فكـــان خبزا بمـــلح | قبـــل الشـــواء أكلنـــا
جاذبتهـــا فتجـــافت | كالغصـــن لمـــا تثنى
فقلت ليس عـــلى ذا | الفعـــال كنـــا اتفقنـــا
قالت فكـــم تتجنى | طـــولت أقصر ودعنـــا

فبلغ عنان ذلك فكان سبب التباعد بينهما والمهاجاة مدة .

ومن شعر غصن جارية ابن الأحدب النخاس يقول الحسين بن دعبل قال حدثنى أبى قال كنت جالسا بباب الكرخ فمرت بى « غصن » جارية ابن الأحدب وكانت شاعرة يبلغنى خبرها فرأيت وجها جميلا وقواماً حسنا ، وهى تخطر فى مشيها وتنظر فى أعطافها فقلت لها [١] :

---

(١) معاهد التنصيص ، ١/٩٥ .
(١) العقد الفريد : ٦/٣٩٧ — ٣٩٨ ، والأغانى : ١٩/٤٧ : ٤٩ .

دمـــــوع عينى لها انبســــاط ونـــــوم عينى به انقبـــاض

فقالت على الفور تعارضه :

ذاك قليــــل لمن دهتـــــــه بلحظهـــــــا الأعــين المراض

فقلت :

فهـــــــل لمولاى عطف قلب أم للذى فى الحشـــا انقراض

فأجابت :

ان كنت تهـوى الوداد حقـــا فالود فى ديننـــــــا قــراض

فما دخل فى أذنى كلام أحلى من كلامها ، ولا رأت عينى أنضر وجها منها ، فعدلت بها الى غير ذلك الروى فقلت :

أترى الزمــان يسرنا بتــــلاق فيضم مشــتاقا الى مشــــتاق

ما للزمان يقــال فيه وانمــــا أنت الزمــــان فسرنا بتــلاق

ومن بديع شعر **أمل جارية قرين النخاس** يقول جعفر بن قدامه قال حدثنى محمد بن عبد الله بن مالك قال حدثنى أبو جعفر الشطرنجى قال قال لى صالح بن الرشيد : ان لقرين النخاس جارية شاعرة فاعترضها وعرفنى خبرها فدخلت الى قرين وأخبرته بالقصة فأخرج الى جارية حســـناء ، ظريفة حلوة المنطق فقلت لها ما اسمك فقالت اسمى اذا بلغته فقد بلغت المنتهى ، قلت لها فاسمك اذن (أمل) فضحكت فقلت لها يقول لك الأمير :

أســــــل المهيمن خـــــالق الخــــاق الكثير ورازقــــه

ألا أمـــوت بغصـــــــتى يوما وأنت مفــــــــــارقه

لا بـــــــــــل أراك وأنت لى ممــــــلوكة •• ومعــــــانقه

فأخذت دواة ودرجاً وكتبت اليه جوابه :

لو كنت أعـــــــــلم أن نفســـك فى المحبة صـــادقه

لدنوت منـــــــك ولو علوت على الجبال الشـــــــاهقه

ولهــان عنـدى قول ســــاع ناطـــــق او ناطقـــــــــ

هــل غير قولهـــن جميعـــاً اننى لك عاشـــــــــــــقه

وكذاك نحـــــــــن كأن ما ذا عاشـــق أو عاشــــقه

ومن شعر مثل جارية ابراهيم بن المدبر :

يقول جعفر بن قدامه حدثنى ابراهيم بن المدبر قال اشتريت جارية شاعرة مدنية يقال لها (مثل) فلما كان الليل خلوت بها فلم تنهض شهوتى فخجلت فقلت هذا البيت :

قد يدرك المتــأنى بعض حاجتــه   وقد يكون مع المســتعجل الزلل

فقالت :

وربما فات بعض القــوم أمرهم   مع التأنى وكان الحزم لو عجلوا

فخجلت يعلم الله منها وعلمت أن فيها ما فى المدنيات من الشــبق وعرفت ما عندى من العجز [1] ٠

وكانت لخزيمة بن خازم جارية مدنية شاعرة يقال لها (تيماء) وكان بها مشغوفاً وهى القائلة وقد خرج الى الشام ٠

تفديك نفسى من ســوء تحاذره   فأنت بهجتها والســمع والبصر
لئن رحلت لقد أبقيت لى حــزنا   لم يبق لى معه فى لذة ٠ وطــر
فهل تذكرت عهدى فى المغيب كما   قد شــفنى الهم والأحزان والذكر

ويحكى أنه عرضت على خزيمة بن خازم جارية مليحة بكر حلوة القد فمال اليها وجاء معتذرا الى تيماء يقول :

قالوا عشقت صــغيرة فأجبتهم   أشهى المطى الى ما لم يركب
كــم بين حبـــة لؤلؤ مثقــوبة   بذلت وحبـــــة لؤلؤ لم تثقب

فأجابته على الفور :

ان المطيـــة لا يلذ ركوبهـــا   ما لم تذلــل بالزمـــام وتركب
والدر ليس بنـــــــافع أربابه   حتى يؤلف فى النظام بمثقب [1]

ومن شعر فنون جارية يحيى بن معاذ يقول جعفر بن قدامة حدثنى ابن زكريا بن يحيى بن معاذ قال كانت لبعض عماتى جارية حسنة الوجه شاعرة وكان عمى يهواها ويكتب اليها فيما بينه وبينها فتجيبه وتحرق

---

(١) اشعار اولاد الخلفاء : ٨٦ — ٨٧ ، وجمهرة انساب العرب ، ٣٣ ووفيات الأعيان : ٣٨٨/١ ٠
(١) العقد الفريد : ٣٦٠/٢ ، ١١٤/٣ ، ويبدو ان البيت للقطامى ٠
(١) انظر الأعــلام ، ٣٥١/٢ ٠

كتبه ، ويحتفظ هو بجواباتها وكتب اليها يعاتبها على تحريقها رقاعه وينسب ذلك الى سوء العهد وكتبت اليه :

يا ذا الذى لام فى تحريق قرطاسى — كم مر مثلك فى الدنيا على راسى
الحزم تحريقه ان كنت ذا أدب — وانما الحزم سوء الظن بالناس
اذا أتـاك وقـد أدى أمانتـه — فاحفظ أساطيره من سائر الناس
واشقق كتابى الذى تهواه مجتهدا — فرب مفتضح فى ثوب قرطاس

فعلم أن الذى تفعله أدخل فى الحزم من فعله فأمر بكتبها المتجمعة عنده فحرقت وأحرقت •

ومن شـعر مراد جارية على بن هشـام وكانت قد غضبت عليه وهجرته فكتب اليها يعاتبها :

فان كان هذا منك حقـا فاننى — مداوى الذى بينى وبينك بالهجر
ومنصرف عنك انصراف ابن حرة — طوى وده والطى أبقى من النشر

فكتبت اليه :

اذا كنت فى رقى هـوى وتمـلك — فلابد من صـبر على مفض الصبر
واغفاء أجفـان طوين على قذى — واذعـان مملوك على الذل والنشر
وذلك خـير من معـاداة مـالك — صبورعلى الاعراض والصدوالهجر

وخرجت اليه وهى القائلة ترثى مواليها :

هـل مسـعد لبكـاء — بعبـرة ودمـاء
وذاك منى قليـل — للسـادة النجبـاء
أبكيهـم فى صـباحى — بلوعـة ومسـائى [١]

وكتبت (متيم) و (بذل) كتابا الى على بن هشام وهو فى الجبل يتشوقانه فقالت لهما مراد اتركا لى فى آخره موضعا فتركاه فكتبت له فيه :

نفسى الفداء وقلبى للذى رحـلا — عنا وفارقنا واسـتوطن الجبلا
نادى السرور وولى يوم ودعنـا — وخلف الهم فينـا بعده بعـلا

---

(١) الأول فى الأغانى : ٣٠٣/٧ ، والثانى فى ٣٠٤ .

فغنت فيه (متيم) لحنا خفيفـــا من الرمـــل وقالت لمراد قولى أشعارا ترثين فيها مولاى حتى الحنها الحان النوح وأندبه بها فقالت عدة أشعار فى مراثيه وناحت بها (متيم) منها :

للرزيات لا لعـــاف الطـلول لعـــلى وأحمـد وحســين
عين جــودى بعبرة وعـــويل ثم نصر وبعـــده للخليـــل

وصنعت فيها (متيم) ألحانا لم تزل جواريها ونساء آل هشام ينحى بها عليهم . (كما قالوا) .

تقول بعض عجائز أهلها انى لأذكر وقد توفى بعض آل هشام فجاء أهله بنوائح فنحن عليه لم يبلغن ما أراد وقام جــوارى (متيم) فنحــن بشعر (مراد) وألحان (متيم) فى النوح فاشتعل المأتم ، وارتفع البكاء والصراخ وكانت (ريق) جارية ابراهيم بن المهدى قد جاءتنا قاضية للحق للحق ويذكر من جيد قولها :

لعـــلى وأحمـــد وحســين ثم نصر وقبـــله للخليـــل

فبكت (ريق بكاء شديدا) ، ثم قالت رضى الله عنك يا (متيم) فقد كنت علما فى السرور وأنت الآن علم فى المصائب ! !

ومن شعر (اليمامية جارية أبى عباد) .

يقول جعفر بن قدامة قال حدثنى (محيرة) قال : اشترى جدى أبو عباد جاريته سلمى اليمامية من نخاس مكى قدم بها عليه ، فلما جاءه بها أراد أن يمتحنها فأنشد لفضل الشاعرة :

من لمحب أحب فى صــــغره صــــار أحــدوثة على كبره
من نظــر شـــفه وأرقه فكان مبـدا هواه من نظـــره

وقال لها أخبرينى ما سمعت فقالت غير متوقفة :

ما ان له مســعداً فيســعده باللّيـــل فى طــوله وفى قصره
لو لا التمنى لمـــات من كمــد والزوج ــ فيما أرى ــ على أثره

قال مخبرة وأنشدنى أبى فى يحيى بن عباد لها :

يكفى الزمان فعـــاله يكفى أبقـــى البغيض وبزنى الفى

يا نازحا شـــط المزار به ... شـــوقى اليك يجل عن وصفى
أســـهرت عينى فى تفرقنـــا ... ما التذ بعـــدك بالكرى طرفى
أغض لكى القـــاك فى حلمى ... ومن الكبـــائر ناكـــل يخفى

وكانت (متيم) الهشامية شاعرة بارعة موفقة فى معارضة الشعر • قال المأمون يوما لها أجيزى هذين البيتين :

تعـــالى تكن للكتب بينى وبينكم ... ملاحظة نومى بها ونشـــير
فعندى من الكتب المشوقة خبرة ... وعندى من شؤم الرســول أمور

فقالت :

جعلت كتـــابى عبرة مســـتهله ... على الخد من ماء الجفون سطور
ورســـلى بحـــاجاتى وهن كثيرة ... اليك اشـــارات بها وزفير

قال هبة الله بن ابراهيم المهدى حدثنى أبى قال كانت (متيم) جارية على بن هشام شاعرة فلما حبس المأمون مولاها على بن هشام كتبت اليه هذه الأبيات :

قـــل لمـــأمون ذنب مولا ... ك على ان كان فـــوق الذنوب
فأرى فوقه ارتفـــاعك بالعفـــو ... لفضـــل المـــالك المحجـــوب
فتجشـــم كظما لغيظك تســـعد ... بثـــواب من الجـــواد المنيب
وتغنـــم دعاء معـــولة حـــر ... ى تقـــربك من دعـــاء مجيب

ومرت (متيم) على باب مولاها فرأته وعليه المزابل وهو مسود ، فوقعت مغشيا عليها ثم أفاقت وقالت :

يا منزلا لم تبـــل أطـــلاله ... حاشـــا لأطلالك أن تبـــلى
والعيش أولى ما بكـــاه الفتى ... لابد للمحزون أن يســـــلى

وكانت حسناء جارية البرمكى شاعرة مغنية يدخل اليها الشعراء فيقارضونها الشعر فتأتى بكل مستحسن من الجواب فدخل اليها سعد بن وهب وجلس يحدثها فأطال ثم قال لها :

أحاجيـــك أيا حســـناء ... فى بيت من الشـــــعر
وفيما طـــوله شـــــبر ... وقد يوفى على الشـــــبر
له فى رأســـه شـــــق ... تطـــوف بالندى يجـــرى

اذا ما جف لـــم يجـــر لدى بر ولا بحـــر
وان بـــل أتى بالعجب المعجب والســـحر
وانى لم أرد فحشـــا ورب الشـــفع — والوتر
ولكن صـــغت أبيـــاتا لهـــا خط من الزجـــر

فأجابته :

أيا عثمـــان حاجيتـــك ما قلت من الشـــعر
فتـــاة حـــلل الشـــعر لهـــا صـــافية الفكـــر
وفى ظـــاهره فحش وليس الفحش فى الســـر
أردت الخطف المرهـــف اذ يبـــريه من يبـــرى
يؤدى وهـــو ذو صـــمت عن النـــاطق اذ يجـــرى
وذاك القـــلم الجـــارى بمـــا شـــئت من الأمـــر
من الخـــير او الشر أو النفـــع أو الضر [1]

وما أحسن شعر (قاسم) جارية ابن طرخان فقد دخل العباس بن الأحنف عليها فقال لها اجيزى هذا البيت :

أهدى له أحبـــابه أترجـــة فبكى واشـــفق من عيافة زاجر

فقالت :

متطـــيرا لـــا أتته لأنهـــا لونان باطنها خلاف الظـــاهر

وتشبهها فى رقتها وحسن ظرفها (صاحب) جارية ابن طرخان النخاس ، وكان ابن ابى أمية الشاعر يهواها فكتب اليها :

انى رأيتك فى المنام كأنمـــا عاطيتنى من ريق فيـــك البـــارد
وكأن كفـــك فى يدى كأنمـــا بتنـــا جميعا فى فراش واحد
ثم انتبهت ومعصـــماك كلاهما بيدى اليمين وفى يمينك ســـاعدى

فأجابته :

خـــيرا رأيت وكل ما أبصرته ســـتناله منى برغم الحاســـد
انى لأرجـــو أن تكـــون معانقى وتظل منى فوق صـــدر ناهد
وبنيت أنعم عاشـــقين تفاوضـــا طرف الحديث بلا مخافة راصـــد

(*) الأغانى : ٢/٣٤٣ .

وقالت حفصة بنت الحاج

وهى شاعرة انفردت فى عصرها بالتفوق فى الأدب والظرف والحسن وسرعة الخاطر بالشعر ، وهى من أهـل غرناطة ، ووفاتها فى مراكش سنة ٥٨٦هـ ، نعتها ابن بشكوال بأستاذة وقتها .

وكانت تعلم النساء فى دار المنصور أمير المؤمنين عبد المؤمن بن على ، ولهـا معـه أخبـار .

ومن شعرها ما كتبته الى فتى اشتهرت به[١٥٦] :

أزورك أم تزور فان قـــلبى — الى ما تشتهى أبـدا يميـل
فثغرى مـــورد عـــذب زلال — وفرع ذؤابتى ظـل ظليـل
وهـل تخشى بأن تظمـا وتضحى — اذا وافى اليـك بى المقيـل
فعجـل بالجـواب فما جميـــل — اباؤك عن بثينـــة يا جميـل

ومن شعرها[١٥٧] ، وقد أرسلته الى الأمير أبى جعفر أحمـد بن عبد الملك بن سعيد المنسى فى مجلسه ، كأنها تستأذنه للدخول :

زائـر قـد أتى بجيد غـــزال — طامـع من محبـه بالوصـال
بلحـاظ من سـحر بابل صيغت — ورضاب يفـوق بنت الدوالى
يفضـح الورد ما حوى منه خـد — وكذا الثغـر فاضـح للآلى
أتراكـم باذنكـــكم مسـعفيه — أم لـكم شاغل من الأشغال

ومن شعرها :

سلام يفتـح زهـــر الكمـام — وينطق بالشـدو ورق الغصون
على نازح قد ثوى فى الحشـــا — وان كان تحرم منـه الجفون
فـلا تحسبوا العبـد ينسـاكم — فـذلك والله مـا لا يـكون

وينسب اليهـا :

أغـار عليك من عينى وقـــلبى — ومنك ومن زمانك والمـــكان

---

(١٥٦) الأبيات فى « معجم الأدباء » ١٠/٢٢٥ .
(٧٥٦) الأبيات فى « معجم الأدباء » ١٠/٦٦٥ .

ولو أنى جـعلتك فى عيـــونى   الى يـوم القيـامة ما كفانى

وسألتها امرأة من الشريفات تذكارا تكتبه بخطها ، فكتبت اليها :

يأربة الحسن بـل يأربة الكـرم   غضى جفونك عمـا خطه قلمى
تصفحيه بلحظ الـود منعمـــة   لاتحفلى برديء الخط والكلم[١٥٨]

ومن شعر محبـــوبة

كان للمتوكل جارية اسمها (قبيحـة) ، كتبت بالمسك على خدها (جعفر) ، وهو اسم المتوكل ، قال المتوكل : انى دخلت على قبيحـة فوجدتها قد كتبت اسمى على خدها بغالية ، فما رأيت شيئا أحسن من سواد تلك الغالية على بياض ذلك الخد • وطلب المتوكل من على بن الجهم أن يقول فى ذلك شعرا ، فبادرت محبوبة من فورها تقول :

وكاتبـة بالمسك فى الخـد جعفرا   بنفسى مخط المسك من حيث أثرا[١٥٩]
لئن كتبت فى الخـد سطرا بكفها   لقد أودعت قلبى من الحب أسطرا
فيـامن لمـــلوك لملك يمينـــه   مطيـع له فيما أسر وأظهرا
ويامن منـاها فى السريرة جعفر   سعى الله من سقيا ثناياك جعفرا

ودفع المتوكل تفـاحة مغلفـة الى محبوبة فقبلتها وانصرفت الى مكانها • ثم أرسلت اليه مع جارية لها رقعة كتبت فيها :

يا طيب تفاحة خلوت بهـــــا   تشعل نار الهوى على كبدى[١٦٠]
أبـكى اليهـــا وأشـتكى دنفى   وما ألاقى من شـدة الكـمد
لو أن تفــاحة بكت لبـــكت   من رحمتى هـذه التى بيدى
ان كنت لا ترحمـــين ما لقيـت   نفسى من الجهد فارحمى جسدى

وهجرها المتوكل مرة،ثم أنصت الى حجرتها،فسمعها تغنى بقولها :

أدور فى القصر لا أرى أحـــدا   أشـــكو اليــه ولا يكلمنى[١٦١]

---

(١٥٨) هذان البيتان منسوبان فى « أعـلام النساء » الى حفصة بنت حمدون .
(١٥٩) « الأغانى » : ٢٠٢/٢٢ .
(١٦٠) « الأغانى » : ٢٠٣/٢٢ .
(١٦١) « الأغانى » : ٢٠٥/٢٢ .

حـتى كأنى ركبت معصـــية   ليست لهـــا توبة تخلصنى
فهـل لنـــا شـــافع الى ملك   قد زارنى فى الكرى فصالحنى
حتى اذا ما الصباح لاح لنـــا   عـــاد الى هجرة فصـــارمنى

فطرب المتوكل ، وأحست هى بمكانه فخرجت اليه وذكرت له أنها رأته فى المنام وقد صالحها ، فانتبهت وقالت هذه الأبيات وغنت بها ، وكان صلح وسلام .

ولمـــا قتل المتوكل تفرقت جواريه ، وصارت الى وصـــيفات عـــدة منهن ، بينهن محبوبة ، وجلس مرة للشراب فغنى الجوارى جميعا ، وقال لها وصيف غنى يا محبوبة ، فأخذت العود وغنت :

ومن شعر نزهون الغرناطيـــة

وهى بنت القلاعى المروانية ، من أهل المئة الخامسة ، من شواعر الأندلس الصادحات ، ومن أعذبهن نفسا وطبعا ، وكانت لها فى مجالس الوزراء منزلة عالية . وكانت تقرأ على أبى بكر المخزومى الأعمى ، فدخـل عليهما رجل ، فقال يخـاطب المخزومى :

لو كنت تبصر من تجـالسه   . . . .

وأفحم فلم يستطع اتمامه فقالت نزهون مكملة :

لغدوت أخرس من خلاخله

البـــدر يطـــلع من أزرتـــه   والغصــــن يمرح فى غلائـــله

وقالت :

لله در الليـــــــالى ما أحيسنها   وما أحيسن منها ليلة الأحـــد
لو كنت حاضرنا فيها وقـــد غفلت   عين الرقيب فلم تنظر الى أحد
أبصرت شمس ضحى فى ساعدى قمر   بل ريم خازمة فى ساعدى أسد(١٦٢)

---

(١٦٢) الريم : الظبى الخالص البياض .

أغـــراض أخـــرى

وكمـا نبغت المـرأة فى هـذه الفترة فى الأغـراض السابقـة ، نبغت كذلك فى فنون أخرى مختلفة ، وهذا يدل على طدل باع المرأة فى الشعر ، وبلوغها المنزلة السامية ، التى اعتـلاها الرجل ولكن الأقدار جـارت عليهـا فأخفت تراثها الشـعرى الهائل ، وربمـا تسـعدها الظروف فتنكشف هـذه الكنـوز الثمينة بفضـل الباحثين والشادين بالأدب ، ونستميح القـارىء لسوق نماذج أخرى فى أغراضها المختلفة .

امـرأة تتنصف المـأمون

قال قحطبـة بن حميد : انى لواقف على رأس المأمون يوما وقد جلس للمظالم ، فكان آخر من تقـدم اليـه — وقد هم بالقيـام — امرأة عليها هيئة السفر وعليها ثياب رثة ، فوقفت بين يديه فقـالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فنظر المـأمون الى يحيى بن أكثم ، فقـال لها يحيى : وعليك السـلام يا أمة الله ! تكلمى بحـاجتك ، فقـالت :

يا خير منتصف يهدى له الرشد ... ويا اماما به قـد أشرق البلد
تشـكو اليك عميـد القوم أرملة ... عدا عليها فلم يترك لها سـبد
وابتز منى ضياعى بعـد منعتها ... ظلمـا وفرق منى الأهل والولد

فأطرق المأمون حينا ثم رفع رأسه اليها وهو يقول :

فى دون ما قلت زال الصبر والجلد ... عنى وأقـرح منى القلب والكبـد
هذا أذان صلاة العصر فانصرفى ... وأحضرى الخصم فى اليوم الذى أعد
فالمجلس السبت ان يقض الجلوس لنا ... ننصـفك منه والا المجلس الأحد

قال : فلمـا كان يوم الأحد جلس فكان أول ما قدم اليـه تلك المرأة ، فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فقال : وعليك السلام ، ثم قال : أين الخصم ؟ فقـالت : الواقف على رأسك يا أمير المؤمنين ، أو مأت الى العباس ابنه ، فقال : يا أحمد بن أبى خالد ! خذ بيدى فأجلس معها مجلس الخصوم ، فجعـل كلامها يعلو كـلام العباس ، فقال لها أحمـد بن أبى خالد : يا أمة الله ! انك بين يدى أمير

المؤمنين وانك تكلمين الأمير فاخفضى من صوتك ، فقـال المـأمون : دعها يا أحمـد فان الحق أنطقها والباطل أخرسه ، ثم قضى لهـا برد ضيعتها اليها وظلم العباس بظلمه لها وأمر بالكتاب لها الى العامل الذى ببلدها أن يوغر لها ضيعتها ويحسن معاونتها وأمر لها بنفقة .

وقال الحجـاج يوما : لليلى الأخيلية أنشدينا بعض ما قاله فيك توبة ، فأنشدته حتى اذا سمع هـذا البيت :

وكنت اذا ما جئت ليلى تبرقعت فقد رابنى منها الغداة سفورها

فقال الحجـاج : يا ليلى ! ما الذى رابه من سفورك ؟ فقالت : ما رآنى قط الا متبرقعة ، فأرسل رسولا أنه ملم بى ، فنظر أهل الحى رسوله فاعدوا له وكمنوا ، ففطنت لذلك من أمرهم ، فلمـا جاء ألقيت برقعى وسفرت ، فأنكر ذلك ، فما زاد على التسليم وانصرف راجعا . فقال لها : لله درك ، فهل كانت بينكما ريبة قط ؟ فقالت : لا والذى أسأله صلاحك ، الا أنى رأيت أنه قال قولا فظننت أنه خضـع لبعض الأمر ، فقلت :

وذى حاجة قلنا له لا تبح بهـا فليس اليها ما حييت سبيل[١٦٣]
لنـا صاحب لا ينبغى أن نخونه وأنت لأخرى صاحب وخليل[١٦٤]

فما كلمنى بعدها بشىء من ذلك حتى فرق بينى وبينه الموت .

وقـالت بثينـة بنت المعتمـد

وكانت شاعرة من شواعر الأندلس . كانت ذات جمالٍ بارع ، وحسن باهر ، حاضرة الجواب ، سريعة الخاطر ، حلوة النادرة . وكانت من جملة من سبى لمـا أحيط بأبيها ووقع النهب فى قصره . فاشتراها أحد تجـار اشبيلية على أنها جارية ووهبها لابنـه . فلمـا أراد الدخول ، امتنعت وأظهرت نسبها وقالت : لا أحلّ لكَ الا بعقد النكاح ان رضى أبى بذلك . وأشارت عليهم بتوجيه كتاب من قبلها لأبيها وانتظار جوابه . فكتبت اليه هذه الأبيات تستشيره :

---

(١٦٣) البيتان فى « الامالى » : ٨٧/١ . و « الاغانى » : ٢٠٧/١١

(١٦٤) فى « الاغانى » : وانت لأخرى فارغ وحليل . وحليل المرأة : زوجها ، وهى حليلته ، لأن كليهما يحال الآخر ، أى يكون معه فى محل واحد

اسمع كـلامى واستمع لمقـالتى فهى السلوك بدت من الأجياد
لا تنــكروا أنى سبيت وأننى بنت لملك من بنى عبــــــاد
ملك عظيم قـــد تولى عصره وكذا الزمان يؤول للأفســاد
لمــا أراد الله فرقــة شملنـا وأذاقنا طعم الأسى من زاد
قام النفـاق على أبى فى ملـكه فدنا الفراق ولم يكن بمرادى
فخرجت هاربة فأعجلنى امـرؤ لـم يأت فى اعجـاله بسداد
اذ باعنى بيـع العبيـد فضمنى من صاننى الا من الأنـكاد
وأرادنى لنـكاح نجـل طـاهر حسن الخلائق من بنى الأنجاد
ومضى اليك يسوم رأيك فى الرضى ولأنت تنظر فى طريق رشادى
فعســاك يا أبتى تعـرفنى به ان كان ممن يـــرتجى لوداد
وعسى رميكية الملوك بفضــلها تدعو لنـا باليمن والاســعاد

فلمـا وصل شعرها لأبيها وهو بأغمات (بالمغرب قرب مراكش) واقع هو وأمها الرميكية فى شراك الكروب والأزمات سرا بحياتها ، ورأيا أن ذلك للنفس من أحسن امنياتها اذ علمـا ما آل اليـه أمـرها وجبر كسرها اذ ذاك أخف الضررين فأشهد على نفسه بعقـد نكاحها من ابن التـاجر وكتب اليها ما يدل على حسن صبره المشكور .

بنيتى كونى بـــه بــــرة فقـــد قضى الدهـــر باسعافه

وقالت حفصة الركونية ارتجالا بين يدى أمير المؤمنين عبد المؤمن ابن على[١٦٥] :

يا ســيد النـــاس يـا من يؤمـــل النـــاس رفـده
امنن عــــلى بطــــــرس يكـــون للدهر عـــده[١٦٦]
تخط يمنــــاك فيـــــــه « الحمــد لله وحــده»[١٦٧]

ومن شعرها[١٦٨] :

ثنـائى على تلك الثنـــايا لأننى أقول على علم وأنطق عن خبر

---

(١٦٥) « معجم الأدباء » ١٠/٢٢٠ .
(١٦٦) فى « الاحاطة » : « بصك » بدل « بطرس » .
(١٦٧) أشارت بذلك الى العلامة السلطانية ، فان السلطان كان يكتب بيده فى رأس المنشور بخط غليظ : « الحمد لله وحده » .
(١٦٨) البيتان فى : « نفح الطيب » ٥/٣٠٥

وأنصـفها لا أكـذب الله اننى رشفت بها ريقا أرق من الخمر

وقد ولع بها أبو سعيد بن عبد المؤمن ملك غرناطة ، مزاحما لأبى جعفر ابن سعيد ، فطلب أبو جعفر الاجتماع بها ، فماطلته مدة شهرين ، فكتب اليها شعرا فأجابته :

يـا مـدع فى هـوى الحسن والغـرام الامـامة
أتى قريضـك لـكن لم أرض منـه نظـامه
أمـدعى الحـب يثنى يأس الحبيب زمامـه
ضللت كل ضـلال ولم تفـدك الزعـامة
مازلت تصـحب مـذ كنت فى السباق السلامة
حتى عثرت وأخجلـ ـت بافتضـاح السـآمه
بالله فى كـل وقـت يبـدى السـحاب انسـجامه
والزهـر فى كـل حـين يشق عنـه كمـامه
لو كنت تعـرف عـذرى كففت غـرب الملامه

ومن شعرها :

ولو لم يكن نجما لما كان ناظرى وقد غبت عنه مظلما بعد نوره
سلام على تلك المحاسن من شبح تناءت بنعمـاه وطيب سروره

وقالت(١٦٩) :

سلو البارق الخفاق والليل ساكن أظل بأحبابى يذكرنى وهنـا
لعمرى لقد أهـدى لقلبى خفوقه وأمطر كالمنهل من مزنه الجفنا

وكتبت الى الأمير أبى جعفر(١٧٠) :

رأست فما زال العـداة بظلمهـم وعلمهم النامى يقولون لم رأس
وهل منـكر أن ساد أهل زمانه جموح الى العليا نقى من الدنس

ومن قولها فى السيد أبى سعيد ملك غرناطة (فى يوم عيد) :

يـا ذا العـلا وابن الخليفـة والامـام المرتضى

(١٦٩) « معجم الادباء » : ١٠/٢٢٣
(١٧٠) « معجم الادباء » : ١٠/٢٢١

يهنيك عيـــد قـــد جـــرى فيــه بمــا تهوى العضـــا
وأتاك من تهـــــــــــــواه فى قيــد الانابــــة والــرضى
ليعيـــــــــــد من لذاتـــــه مــــا قـــد تصرم وانقضى

باتت مرة مع أبى جعفر فى بستان ، فلما حان فراقهما أنشدت(١٧١) :

لعمرك ماسر الرياض يوصـــلنا ولكنه أبدى لنا الغل والحسد
ولا صفق النهر ارتبــاحا لقربنـــا ولا غرد القمرى الا لمــا وجد
فلا تحسن الظن الذى أنت أهله فما هو فى كل المواطن بالرشد
فما خلت هذا الأفق أبدى نجومه لأمر سوى كيما يكون لنا رصد

وبلغها أن أبا جعفر علق بجارية سوداء فأقام معها أياما ، فكتبت اليه(١٧٢):

يا أظرف النــاس قبــل حـــال أوقعـــه وســـطه القــدر
عشقت ســـوداء مثل ليـــــل بدائــع الحســن قد ســـتر
لا يظهـــر البشر فى دجـــاها كـــلا ولا يبصر الخفـــر
بالله قـــــل لى وأنت أدرى بكل من هــام فى الصـــور
من الذى حب قبـــل روضـــا لا نـــور فيـــه ولا زهـــر

وقالت دنانـــــــير

وهى جارية محمد بن كناســـــة • وكانت عفيفة شريفة • قال بعض جاسائها فى وصف منظر جميل :

الآن حين تزين القطـــــــر انجـــاده ووهـــاده العفر

فقالت :

برية فى البحـــــر نابتـــــــة يجبى اليهــــا البر والبحـــر
وسرى الفــــرات على مياسرها وجرى على أيمانهــــا النهـــر
وبدا الخـورنق فى مطالعهـــا فـــرداً يلوح كأنه الفجـــر
كانت منـــازل للمـــلوك ولم يعمـــل بهـــا لمـــنك قبر

وكان أبو الشعثاء يدخل الى ابن كناســة يسمع غناءها ، ويعرض لها بأنه يهواها ، فقالت فيه :

(١٧١) « معجم الادباء » : ٢٢٢/١٠
(١٧٢) نفس المصدر : ٢٢٣/١٠

لأبى الشـــــعثاء حب كامن	ليس فيه نهضـــــة للمتهم
يا فؤادى فازدجـــر عنه ويا	عبث الحب به فاقعـــد وقـــم
زارنى منه كلام صـــــائب	ووســـيلات المحبين الـــكلم
صـــــائد تأمنــــه غزلانه	مثـــل ما تأمن غزلان الحـــرم

وقالت رابعـــة العـــدوية

هى أم الخير رابعة بنت اسماعيل العدوية مولاة آل عتيك البصرية ، صالحة مشهورة من أهل البصرة ، ومولدها بها ، كانت تصلى أكثر الليل ، وتنـــام أقله فاذا وثبت من مرقدها خاطبت نفســها بقولها : يا نفس كم تنامين والى كم تنامين ؟ يوشك أن تنامى نومة لا تقومين منها الا لصرخة يوم النشور ، وكان هذا دأبها دهرها حتى ماتت ، ومن وصاياها :

اكتموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتكم • ولما حضرتها الوفاة دعت خادمتها عبدة وقالت لها : يا عبدة لا تؤذنى بموتى وكفنينى فى جبتى هذه ، وهى جبة من شعر كانت تقوم فيها اذا هدأت العيون ، فكفنتها عبدة فى تلك الجبة وفى خمـــار صـــوف كانت تلبســــه ، ثم دفنت فى بيت المقدس سنة ١٣٥ هـ[١٧٣] •

من شعرها قولها فى الذات الالهية :

يا سرورى ومنيتى وعمـــــادى	وأنيسى وعدتى ومـــــــرادى
أنت روح الفؤاد أنت رجـــائى	أنت لى مؤنس وشـــوقك زادى
أنت لولاك يا حيـــــاتى وأنسى	ما تشتت فى فســيح البـــلاد
كم بدت منة وكـــم لك عنـــدى	من عطـــــاء ونعمـــة وأياد
حبـــــك الآن بغيتى ونعيمى	وجلاء لعين قلبى الصـــــادى
ليس لى عنـــك يا حبيب براح	أنت منى مكمن فى الفـــؤاد
ان تكن راضيـــــاً على فانى	يا منى القلب قد بدا اســـعادى

---

(١٧٣) وفى « النجوم الزاهرة » انها توفيت ســنة ١٨٠هـ • وفى رواية انها توفيت سنة ١٨٥هـ •

وقالت :

انى جعلتك فى الــــفؤاد محدثى　　وأبحت جسمى من أراد جلوسى
فالجســــم منى لجيس مؤانس　　وحبيب قلبى فى الفــؤاد أنيسى

وقالت :

حبيب ليس يعـــــــدله حبيب　　وما لســـواه فى قلبى نصـــــيب
حبيب غاب عن بصرى وشـــخصى　　ولكن عن فـــــــؤادى ما يغيب

وقالت :

وزادى قليـــــــــل ما أراه مبلغى　　أللزاد أبكى أم لطــول مســافتى
أتحرقنى بالنــــار يا غاية المنى　　فاين رجـــائى فيكَ أين مخافتى

وخطبها الحسن البصرى ، فردته وقالت :

راحتى يا اخـــوتى فى خـلوتى　　وحبيبى دائمــــاً فى حضرتى
لم أجــد لى عن هواه عوضــاً　　وهــــــواه فى البرايا محنتى
حيثمـــا كنت أوافى حســـنه　　فهــو محـــرابى اليــه قبلتى

وقالت الشلبية الأندلسية

وكانت أديبة فاضلة شاعرة ناثرة ، اشتهر أمرها بالأندلس ونواحيها حتى انها كانت تجالس الملوك ، وتناظر الشعراء ، ومن شعرها ما كتبت به الى السلطان يعقوب المنصور تتظلم من ولاة بلادها وصاحب خراجها فقالت :

قد آن أن تبكى العيـــون الآبيـــة　　ولقد أرى أن الحجارة باكية [١٧٤]
يا قاصـــــد المصر الذى يرجى به　　ان قدر الرحمــن رفع كراهيـــة
ناد الأمـــير اذا وقفت ببــــابه　　يا داعيــــاً ان الرعيـــة فانيـــة
أرســـلتها هملا ولا مرعى لهـــا　　وتركتها نهب الســـباع العادية
شلب كلا شــــلب وكانت جنة　　فاعادها الطاغون ناراً حامية [١٧٥]

(١٧٤) « الدر المنشور » : ٢٥٦

(١٧٥) شلب ، بكسر اوله وسكون ثانيه : مدينة بقرب الأندلس بينها وبين باجة ثلاثة أيام ، وهى فى غربى قرطبة ، قال ياقوت : وسمعت ممن لا أحصى انه قال : قل ان ترى من أهلها من لا يقول شعرا ، ولا يعانى الادب .

عاثوا وما خـــافوا عقوبة ربهم   والله لا تخفى عليـــه خافيـــه

وقالت **حمدة بنت زياد الأندلسية** تصف وادى آش والأندلس :

وقانا لفحـــة الرمضـــاء واد   سقاه مضاعف الغيث العميم [١٧٦]
حللنا دوحـه فحنـــا علينـــا   حنو المرضعات على الفطيم [١٧٧]
وأرشـــفنا على ظمـــأ زلالا   ألذ من المدامـة للنـــديم [١٧٨]
يصـد الشـــمس أنى واجهتنا   فيحجبها ويأذن للنســـيم [١٧٩]
يروع حصـــاه حالية العذارى   فتلمس جانب العقد النظيم [١٨٠]

ومما ينسب الى فضـــل الشـــاعرة

وهى شاعرة من الشواعر المجيدات فى العصر العباسى ، كانت حسنة الوجه أديبة فصيحة سريعـة البديهة مطبوعة فى قول الشعر ، ولم يكن فى نساء زمانها أشعر منها .

وقال ابن المعتز : كانت « فضل » تهاجى الشـــعراء ويجتمع عندها الأدباء ، ولها فى الخلفاء والملوك مدائح كثيرة .

وكانت مولدة من مولدات البصرة ، ولدت ونشأت فى دار رجل من عبد القيس ، ثم باعها بعد أن أدبها وخرجها ، فاشتراها محمد بن الفرج الزجاجى ، وأهداها الى المتوكل . توفيت سنة ٢٦٠ هجرية .

(*) الأبيات فى « معجم الأدباء » ، وذكر ياقوت ان اهل المغرب ينسبونها لحمدة وهى فى « السمط » : ٢٢٧ لأبى نصر المنازى ، قال ياقوت: واجمع ادباء المشرق على نسبة الأبيات لأحمد بن يوسف المنازى المتوفى سنة سبع وثلاثين واربعمائة ، وانظر « ابى العلاء وما اليه » تأليف الميمنى ص ١٤٠ .

(١٧٦) فى « السمط » : « وقانا وقدة » و « وقاه مضاعف الظل » .

(١٧٧) البيت فى السمط كما يلى :

قصدنا نحوه فحنا علينا   حنـــو الوالدات على اليتيم

(١٧٨) فى « السمط » : وسقانا .. الذ من المدام مع الكريم . كمـــا اتى هذا البيت بعد الذى يليه .

(١٧٩) فى « السمط » : « يراعى الشمس أنى قابلتنا » .

(١٨٠) فى « السمط » : تروع .

وكانت فضل تهوى سعيد بن حميد أحد كتاب الدولة العباسية ، فعزم مرة على سفر فقالت له :

كذبتنى الود أن صافحت مرتحلا
كف الفراق بكف الصبر والجلد
لا تذكرن الهوى والشوق لو فجعت
بالشوق نفسك لم تصبر على البعد

وألقى على بن الجهم بحضرة المتوكل هذا البيت عليها لتجيزه :

لاذ بها يشتكى اليها فلم يجد عندها ملاذا (١٨١)

فأجابته :

ولم يزل ضارعاً اليها تهطل أجفانه رذاذا
فعاتبوه فزاد عشقاً فمات وجداً فكان ماذا

ومن قولها :

ان من يملك رقى مالك رق الرقاب
لم يكن يا أحسن العالم هذا فى حسابى

وقالت :

لأكتمن الذى بالقلب من حرق
حتى أموت ولم يعلم به الناس (١٨٢)
ولا يقال شكا من كان يعشقه
ان الشكاة لمن تهوى هى الياس
ولا أبوح بشىء كنت أكتمه
عند الجلوس اذا ما دارت الكاس

وسألها المتوكل : أشاعرة أنت ؟ فقالت : كذا يزعم من باعنى واشترانى ، فقال : أنشدينا ، فقالت :

استقبل الملك امام الهدى عام ثلاث وثلاثينا (١٨٣)

---

(١٨١) « الأغانى » : ٢٧١/١٩
(١٨٢) نفس المصدر : ٢٢٧/١٠
(١٨٣) نفس المصدر : ٢٥٨/١٩

خـــلافة أفضـــت الى جعفر   وهو ابن ســـبع بعد عشرينـــا
انا لنرجـــو يا امام الهـــدى   ان تمـــلك الناس ثمانينـــا

ومن شـعر لطيفـة الحدابنـة

قال الأصمعي : مررت أنا وصاحب لي بجارية عند قبر ، لم أر أحسن ولا أجمل منها ، وعليها ثياب نظيفة ، وحلى كثير ، وهى تبكى على القبر ، فلم نزل نتعجب من جمالها وزينتها وحزنها ، فقلت : يا هذه ! علام هذا الحزن الشديد ؟ فبكت ثم أنشأت تقول :

فلا تســـألاني فيم حزني فانني   رهينـــة هذا القبر يا فتيان [١٨٥]
وان تســـألاني عن هواي فانه   مقيم بحـــوضى أيها الرجـــلان
واني لأســـتحييه والترب بيننـــا   كما كنت أســـتحييه وهو يراني
أهابك اجلالاً وان كنت في الثرى   وأكره حقاً أن يســـؤك مكاني

فعجبنا منها ومن ظرفها وجمالها ، واستحيينا منها ، فتقدمنا قليلا ، ثم جلسنا نسمع ما تقول ، ولا ترانا ، ولا تعلم بنا ، فسمعناها تقول :

أشم الأنف أصـيد عبشـــمياً   أعـــان على مروءته لبيـــدا
بأمثال الهضـــاب كأن ركبـــاً   عليها من بني حـــام قعـــودا
أبا وهب جـــزاك الله خـــيراً   نحـــرناها وأطعمنـــا الثريدا
فعد ان الكـــريم له معـــاد   فظني يا ابن أروى أن تعودا [١٨٤]

---

(١٨٥) الأبيات في « معجم البلدان » : ٣٢١/٢ ، والأول والثالث في « مصارع العشاق »: ٨٨/٢

(١٨٤) الخبر والأبيـات في « الشـعر والشعراء » : ١٩٦/١ ، و « الكامل » :٦٢/٣ ، و « الأغاني » : ٣٧٠/١٥

مـــوازنة
بين شواعر هذه الفترة وبين غيرهن
(من شواعر العصر الجاهلى والاسلامى والاموى)

غلب على شواعر هذه الفترة (العباسى والأندلسى) طابع الغزل واشتهرن بقرض الشعر فيه دون غيره من بقية الاغراض وذلك يرجع الى طبيعة هذا العصر عصر الترف والدعة والرفاه الذى شاع الغزل والتشبيب والنسيب فيه وان الشعر كان مرتبطا ارتباطا وثيقا بما هيأته ظروف العصر بالغناء والقينات ، وأن بعض الشاعرات بل الكثير منهن لم يكن لهن حجاب ولا تصون من ترك الحجاب ، ومقابلة الناس وجهاً لوجه ، ويغشى دارها الشعراء والادباء ، واضطرحن أساليب الغزل القديم وسخرن منه ، وعشن بين الورد والزهر والشراب والخمر ، والقصر والبركة ، والدير والبستان ، وسرت روح هذا الجو فى تلافيف غزلهن وشعرهن ، فقد حل عقال الحشمة ، وتدفقت الخمرة ، ونامت الانفة فى كثير من النفوس ، وتمردت المرأة الشاعرة على خدرها المعطر وخرجت الى ميـــادين جددة مخزية ، فبرز شــــعرهن فى الغزل جريئا فى حرية •

وأصبح للمشاهد أن يرى بعضهن فى الاســـواق ســـافرات وأن يجتمع اليهن ، وأن يطرب بأصواتهن ، وأن يسكر برقصــــــهن ، فهن محســـنات للشعر والغناء ، وهن عازفات على آلات الطرب وأدواته

فرأى منهن ما لم ير الجـــاهلى والاموى من المرأة ، وأصـــبحن ينبذن ـــ كما قدمنا ـــ أسلوب الشعر القديم والغزل العتيق ويوردن فيه ضربا من التفكه ، حين يقرءون أن العاشق هام فى الصحارى ، وجن فى حب المرأة أو مات عشقا دون الوصول اليها •

وكانت الشاعرة فى هذه الفترة تستطيع ان تلهو وأن تعبث متى

أرادت وحيث شاءت ولا مانع أن تدعى الى منزل أو حانة أو بستان كما حكى لنا السيوطى فى كتابه : (نزهة الجلساء) هذا فى شأن حفصة بنت الحاج الركونى • فقد أتفق أن بات أبو جعفر عبد الملك بن سعيد هو واياها فى بستان وفيها يقول :

رعى الله ليلا لم يرح بمذمم عشية
وأرانا جـــــود مؤمـــل

وقد خفقت من نحـو نجـد روائح
اذا نفحت هبت بريا القرنفـــل

وغـرد قمرى على الدوح وانثنى
قضيب من الريحان من فوق جدول

فقالت حفصة الركونية معللة سر هذا السرور :

لعمرك ما سر الرياض بوصـــلنا
ولكنه أبدى لنا الغل والحســد

ولاصـفق النهر ارتيـاحا لقربنـا
ولا غـرد القمرى الا بما وجـد

فلا تحسن الظـن الذى أنت أهـله
فما هو فى كل المواطن بالرشـــد

الى أخر القصة انتى ذكرها السيوطى وأصبح من الطبعى أن يجتمع الشـعراء حول قينة تسـقى وتشرب ، أو جارية ترقص وتسكر أو شاعرة تتحدث فى الشعر والادب فقد كانت مدن العراق مثل الكوفة وبغداد والبصرة تكتظ بحوانيت الخمر ودور اللهو وما يلم بها من جوار وقيان وغلمان •

وكثدت الحدائق والبساتين ، يزورها اللاهون العابثون ، يسعون الى النور والزهو والنرجس والياسمين ، تهب الرياح الزكية فتنعشهم ، ويطربون للغناء والشعر ترسلهما الفتيات الشاعرات ، فى مجالس تحيط بها المناظر الجميلة وتفوح منها الرائحة العطرة •

وكما قدمنا — فقد استبدت القينة الشاعرة بعقول كثير من الرجال

فتحكمت بألبابهم على سبيل اللسان والمنطق والرصانة ، وأصبح الامراء والخلفاء يتنافسون فى الاستماع اليهن والتمتع بمجالسهن الادبية والثقافية ، ونسج المؤلفون من ذلك قصصا تقع عليها فى كتابى الاغانى ، ونهاية الارب ، كأنها من الخيال أو أن الخيال منها ، أو كأن بغداد وقرطبه صالونات باريس ومنتدياتها تتصدر المرأة فيها المجالس والرجال يسمعون [1] .

هذه هى الحياة الجديدة التى أتيحت لشاعرات هذه الفترة ، فطرقوا بابا جديدا فى الغزل يتسم بالحرية وانتطرف فأصبح من المألوف أن تتغزل المرأة فى الرجل ، بل ونكثر من زيارته :

انى كثرت عليه فى زيارته فمل والشىء مملول اذا كثرا

ولا ترى فى ذلك اثما ولا حرجا كقول طيف البغدادية :

وظبية من بنات الروم قلت لها
لما التقينا وقلبى عندها علق
هل فى زيارة صب عاشق دنف
أجر فقالت ودمع العين يستبق
لولا الوشاة وأن الخوف يقلقنى
لهان ذاك وعنى الامر يتفق

ولا تتصون المرأة فى هذا العصر فى حبها وتكتمه كما فى العصر الجاهلى والاسلامى والاموى — بل تعلنه فى صراحة وفى غير حشمة وعفاف ، تقول عاحئشة بنت الخليفة المعتصم ممد بن هارون الرشيد :

كتبت اليك ولم أحتشم
وشوق المحبين لا ينكتم

بل وتغريه بفتنتها ومثيرات جمال محياها البديع كقول صفية البغدادية :

---

(١) الغزل جـ ٢ : ٩ د. محمد سامى الدهان .

أنا فتنة الدنيا التى فتنت حجـــا
كل القـــلوب فكلهـــا بى مغـــرم
أترى محيـــاى البـــديع جمـــاله
وتظـــن يا هذا بأنك تســـلم

بل وتفرط فى الصبابة وشرح أوجاع الغرام كقول شـــهدة بنت الابرى :

حتام أفرط فى الصـــبابة أضلعى
وتلج فى غيرانهـــا أجفـــانى

ولا تكتفى بذلك بل تفديه بنفسها مختارة حكمه ورضاه ولو أدى ذلك الى ذلها وهوانها كقول خديجة بنت أحمد :

فاذا رضيت لى الهوان رضـــيته
وجعلت ثوب الذل خـــير لبوس

وتبكى عليه بعبرة من دماء ما حدث له حادث أو ادلهمت به ليل الخطوب كقول لبابة بنت المهدى :

هـــل مســـعد لبكـــائى بعبـــرة من دمـــاء
وذاك من قليـــل للســـادة النجبـــاء

وفى العصر الجاهلى والاسلامى والاموى ، فان السمات تختلف وتتغاير عما قدمنا ، فقد رأينا المرأة الشاعرة فى الجاهلية تحب ولكنها تسر عاطفتها وتجن مشاعرها وتحبس حبها فى صدرها فحبها محجب صامت ، وقليلا ما يغلبها الحب فتبوح لان الرجل أغراها بوعوده ، وسحرها بنشيده وفك عقدة لســانها ببلاغته ، أو لانها ضـــاقت بما تجد فتبســـمت بكلمة أو تخففت من ثقل الحب بأبيات من الشعر ولكن هذا نادر ونزر [٢] .

وكما يقول الجاحظ :

« فان المرأة تحب أربعين سنة وتقوى على كتمان ذلك ، وتبغض

---

(٢) المرأة العربية فى الشعر الجاهلى : ٦٥٥ .

يوما واحدا فيظهر ذلك بوجهها ولســانها ، والرجل يبغض أربعين ســنة فيقوى على كتمان ذلك وان أحب يوما واحدا شهدت جوارحه [٣] .

والمحبوبة فى شعر الجاهليين تختلف عن المحبوبة عند العباسيين والاندلســيين ، ففى الاول مخبوءة فى خــدرها المعطر منعمة ، لا يرام خباؤها اذ الحراس الشداد يقظون من حولها ومن الذين اطالوا فى وصف الحراس الاعشى ، وعلقمــة ويرجــع ذلك الى الحياة المنعزلة التى كانوا يعيشونها .. ولا ريب فى ان حياة العزلة ، وهى من مميزات البدو ، جعلت كلا من الرجل والمرأة يعتمد على صاحبه تحت تأثير الاخطار المحيطة بهم ، وأعز شىء يصونونه ويحفظونه هو هؤلاء المقصورات فى الخيام حفاظا على شرف القبيلة والعمل على صون سمعتها بين القبائل ، خوفا من الذل والعار وبعدا عن العيب والشنار ، فكان كل بيت يقطنونه فى ذلك القفر ترتفع أطنابه منفردا فى الوديان المتباعدة والسهول الواسعة ، وكان على ساكنيه أن يحموه ويحرسوه ومن فيه من الحور القاصرات الطرف اللاتى يخلبن القلوب ، ويســلبن العقول بفتنتهن وجمالهن ، وكان للاشراف فى الحواضر حراس ممتهنون يحرسون نساءهم وأموالهم [٤] .

وكان النساء يرين التكشف عارا ، والاتصال بمحادثة الحبيب سبة وشنارا ، لذلك كانت مية على حق فى قولها وقد سئلت بعد موت قابوس ، ما كان يضرك لو أمتعته بوجهك قبل موته ؟ فقالت منعنى من ذلك خوف العار ، وشماتة الجار ، ولقد كان بقلبى أكثر مما بقلبه غير أنى وجدت ستره أبقى لما فى الصدور من المودة ، وأحمد للعاقبة .

ومثل هذا الحال كان مع عفراء يروى لنا ابن القيم فى كتابة أخبار النساء :

« أن عفراء هالها ما نزل بعروة فكادت تبوح بسرها ، فقيل لها ،

---

(٣) المحاسن والاضداد للجاحظ . وراجع الدكتور الحوفى .

(٤) الدكتور : على الهاشمى : ١٠٥ .

أما عندك له حيلة تخفف ما به فقالت والله لأنا أسر بذلك وأشوق اليه منه ولكن لا سبيل الى احتمال العار [٥].

واذا كانت مية وعفراء تجنان حبهما مخافة الالسنة ، فان عفراء بنت أحمر كانت تكتم حبهـا عزة وتجلدا وترفعا عن أن تتهم بما لا يليق بالانثى » .

وقد قيـل لها ما كان يضرك لو روحت عن قلب الحارث بن الشريد وأجبته بزورة فقالت منعنى من ذلك قولكن عفراء قد صبت الى الحارث .

لذلك أقل الشعراء الجاهليون والاسلاميون من تصوير الحبيبات يبادلنهم حبا بحب فى صراحة وجلاء وأعتقد أن الذوق العربى كان ينفر من التصريح بذلك لطبيعة العصرين (العصر الجـاهلى والاسـلامى) بالاضافة الى أن العرب حراص على أظهار المرأة بمظهر البخيلة المتمنعة البعيدة المنال ، (بخلاف ما بيناه عند المحدثين) .

قال محمد بن يحيى المدنى سمعت عطاء يقول :

كان الرجل يحب الفتاة فيطوف بدارها حولا كاملا ، يفرح أن رأى مرآها ، وان ظفر منها بمجلس تشاكيا وتناشدا الاشعار ، يشير اليها وتشير اليه فى حياء وعفة وتصون ومحافظة وحبها بطبيعته يكون صامتا مكتوما فى حين أن حب الرجل علنى صارخ ، وحب المرأة فى هذه الفترة هادىء رقيق وحب الرجل عنيف ثائر ، ويضاف الى هذا تمسك الجاهليين بقواعد الحشمة وحرصهم على صيانة المرأة والابتعاد بها عن الاسفاف والابتذال .

وبهذا كانت سمات غزل المرأة بالعفاف والتصون ، وعدم التبذل وقلة الاطالة فى وصف الوجد وشرح الصبابة ، ومن الغزل النسوى قول ضاحية الهلانية وقد أحبت رجلا اسمه حبيب وفيها تتضح التقاليد الجاهلية وأنها لا تستطيع الوصول الى الحبيب :

---

(٥) اخبار النساء لابن القيم ٥٧ .

وما وجد مسجون بصـــــنعاء موثق
بســــــاقيه من حبس الامير كبــول

وما ليــل مولى مســــلم بجــريرة
له بعــد ما نام العيـــون عويـــل

بأكثر منى لوعـــــــــة يوم راعنى
فراق حبيب ما اليـــه وصــــــول

وفيها تبدو طبيعة الجاهلية وما فيها من تصون ومحافظة ٠

ومثل هذا الاتزان نجده فى قول الخنساء بنت التيجان تصف شوقها الى جحوش الخزاعى وهى فى شعرها وحبه تشبه عفراء فى كتمانها لحبها وعدم بوحها بهواها :

ألا ان وجدى بالخفـــاجى جحوش
يرى الجسم منى فهو نضو سقام

وأقســـم انى قد وجدت بجحوش
كما وجـــدت عفــــراء بابن حزام

وما أنا الا مثلهـــــا غــير أننى
مؤجـــلة نفسى لوقت حمـــام

وتخاف الشاعرة أن يرى أهلها الخفاجى فهى لا تسمح له بولوج المنزل الا اذا كانوا نائمين :

وان ولوج البيت حـــــل لجحوش
اذا جــــاء والمســـتأذنون نيـــام

واذا ما بالغت الشاعرة منهن فى وصف شدة الشـــوق لم تتعد عادة قول سعدى الاسدية فى ابن عم لها أحبها فمنعه أبوه من الزواج بها وزوجها أبوها من رجل آخر فاشتد وجد ابن عمها فارسل لها بيتين يشـــكو فيهما حبه فأجابته :

حبيبى لا تعجـــل لتفهـــم حجتى
كفـــانى ما بى من بلاء ومن جهـد

ومن عبـــرات تعترينى وزفـــرة
تكاد لها نفسى تســـيل من الوجـد

غلبت على نفسى جهـــارا ولـم أطق
خـــلافا على أهلى بهزل ولا جـد

ولن يمنعـــونى أن أمـوت بزعمهم
غدا خوف هذا العار فى جدث وحدى

فلا تنس أن تأتى هنـــاك فتلتمس
مكانى فتشـــكو ما تحملت من جهـد

فجاءها فى الموعد فوجدها ميتة ، فاحتملها الى شـعب بذرى جبل وضـــمها ملتزما لها فمـات ، ثم ان بعضـــهم وجدهما فأخبر عنهما فدفنوهما ا هـ [٨] .

وهذا الخبر يدل على مدى محـــافظة الجاهلين على بنـــاتهم خوف الفضيحة وتجنبا للعار .

كما أن الجاهلين يحبـــون المرأة المتمنعة الحيية . ويكـرهون المرأة المتهالكة .. يؤيد ذلك قول سليك بن السلكة فى مدحه من توجد فيها مثل هذه الصفات :

من الخفرات لم تفضـــح أخـــاها ولم ترفع لوالدها شـــــنارا
يعاف وصـــــال ذات البذل قلبى وأتبــــع المنعة النـــوارا [٩]

وقد صور رجل من بنى أســد تصـــون محبوبته بأنها تبخـل حتى بما لا يطلب ولا يحتفظ به ولا يمس عفتها فى شىء :

وانى لارجو الوصـــل منك كما رجـــا
صـــدى الجوف مرتادا كداه صـــلود

---

(٨) شاعرات العرب : بشير يموت ص ٩١ .
وانظر الدكتور الحوفى : ٦٥٥ .
(٩) النوار : النفور من الريبة . انظر الأغانى ٦/١٣ .

وكيف طلابى وصل من لو سألته
قذى العين لم يطلب وذاك زهيد
ومن لو رأى نفسى تسيل لقال لى
أراك صحيحا والفؤاد جنيد

وأخيرا فان الشاعرة الجاهلية تغزلت ولكن فى اطار تقاليد العائلة فهى لا تتبذل ولا تتهتك فى شعرها كالمرأة المولدة المحدثة ولكنها تتغزل فى طهر وعفاف ، وتصون وشرف عند أغلبهن وهى صفات مصطنعة ومتكلفة عند بعضهن حتى اذا ما وجدت الفرصة تمردت عليها ونبذتها كقول امرأة من لخم اسمها سعدى كما روى ذلك أبو بكر بن دريد (١) .

خليلى ان أصعدتما أو هبطتما
بلادا هوى نفسى بها فاذكرانيا
فقد شف جسمى بعد طول تجلدى
أحاديث من عيسى تشيب النواصيا
سأرعى لعيشى الود ما هبت الصبا
وان قطعوا فى ذاك عمدا لسانيا

وكقول أخرى :

فان تضربوا ظهرى وبطنى كليهما
فليس لقلب بين جنبى ضارب
يقولون عزى النفس فيمن تحبه
وكيف عزاء النفس والشوق غالب (١١)

والمرأة العربية الجاهلية أن باحت بحبها وشوقها فانها تعبر عن ذلك فى اتزان وصدق ، ولا تجنح الى أساليب الاستهتار كما تفعل الشاعرات المولدات :

يا خليلى نابنى سهدى ... لم تنم عينى ولم تكد
فشرابى ما أسيغ وما ... اشتكى ما بى الى أحد

(١٠) اخبار النساء ص ٧٢ طبعة بيروت .
(١١) أشعار النساء للمرزبانى .

كيف تلحونى على رجـــل آنس تلتـــذه كبـــــدى
مثـــل ضوء البدر صورته ليس بالزميـــلة النكــد
من بنى آل المغـــــيرة لا خـــامل نكس ولا جحـــد
نظرت يوما فما نظـــرت بعـــده عينى الى أحـــــد

واذا أنعمنا النظر فيما سقناه من أمثلة غزلية للشواعر وجدناها على درجة كبيرة من القيمة الفنية فمعانيها فطرية على وجه العموم ، وهى قريبة من الواقع بعيدة عن المبالغة ويسيطر على غزلهن روح التعقل والاتزان ، وهو دليل ثابت على نضج المرأة الجاهلية عقلا وثقافة وهن وان كن يثرن على التقاليد فى بعض شعرهن • فانما ليعبرن عما يجيش فى صدورهن من وجد وصبابة ، وهذا هوحق المرأة فى التعبيروفى اعلان رأيها بصراحة كلذلك فى اطار من العقلانية والمحافظة والاتزان ، ولا نجد فى شعرهن كما رأينا فى الشاعرات المولدات شذوذا فى التفكير أو جنوحا الى المجون •

وفى صدر الاسلام وبنى أمية شاع الغزل وذاع فى هذه الفترة ولكنه فى القرن الاول من الهجرة اصـــطبغ بصـــبغة متزنة لا تختلف عن الفترة الجاهلية وكان المشرع الاسلامى هو الذى هذب هذه الغرائز وجعلها تسير فى مسار معتدل فقد أباح لنشاعر أن يتغزل بل وأن يفتتح قصائده بالغزل بل ويثيب عليها كما حدث مع كعب بن زهير فى قصيدته (بانت سعاد) التى اهتز لها قلب الرسول وبلغ من أعجابه بها أن خلع على كعب بن زهير بردته الشريفة •

ولكنه كان اباحة فى اطار العقيدة الاسلامية وفى ظل العفاف والطهر والشرف ، وأن أى شـــاعر يخالف ذلك يكـــون معرضـــا لتوقيع العقوبة الشرعية •

ومن أمثلته أن أبا بكر رضى الله عنه مر فى خلافته بطريق من طرق المدينة فسمع جارية تطحن وتنشد :

وعشـــقته من قبـــل قطع تمائمى متمايســـا مثل القضـــيب الناعم
وكأن نور البدر ســـــنة وجهــه ينمى ويصـــعد فى ذؤابة هاشـــم

وأنا انتى لعب الغــرام بحبهـــا فبكت بحب محمد بن القاسم [١٢]

فدق عليها الباب فخرجت اليه فقــال : ويلك : أحرة أم مملوكة ، قالت مملوكة • يا خليفة رسول الله ، فسار الى المسجد وبعث الى مولاها فاشتراها منه ، وبعث بها الى محمد بن القاسم بن جعفر بن أبى طالب وقال هؤلاء فتن الرجال [١٣] •

ولم يخرج على هذا الطابع الا عمر بن أبى ربيعة ومن يســير على شاكلته كقوله :

قالت لترب لها تحــدثها لتفسـدن الطــواف فى عمر
قومى تصــدى له ليعرفنى ثم اغمزيه يا أخت فى خفر
قالت لهــا : قد غمـــزته فأبى ثم اسبطرت تسعى على أثرى [١٤]

وكقوله :

أومت بعينيهــا من الهـــودح لولاك فى ذا العـــام لم أحجج

وفى العصر الاموى تغزل الامويون فى بادية الحجــاز وحاضرتهــا فلحقوا بالمرأة ووصفوا ما كان بينهم وبينها ، فاختص بعضهم بواحدة عاش لها وقضى وهو يحبها حبا عذريا وسماهم النقاد وعلماء الشـــعر بالغزلين العذريين ، وعاش بعضهم يتصيد الجمال فى كل مكان ، ويتبع الحسن الى كل صــقع للعبث واللذة فســماهم علمــاء الادب بالغزلين الماجنين ، ونشأت طبقة ثالثة ، قلدت وتصنعت وجعلت تتغنى فى تسيب جميل ، فكانت المدرسة الصناعية •

وكان غزل الشعراء المتحضرين يميل الى المادية ، أما شعراء الحضر فكانوا أصفى نفوســا ، وأعف قولا ، وأصـــدق عاطفة وفيهم كان الحب العفيف الذى عرف بالعذرى ومن هذا النوع شـــعر ليلى الاخيلية ، قال الهيثم بن عدى دخلت ليلى بنت عبد الله الاخيلية على الحجاج وعنده وجوه

(١٢) اخبار النساء : ١١٥ .
(١٣) نفس المصدر والصفحة .
(١٤) الأغـــانى : ٩٢/١ .

الناس وأشرافهم فاستأذنته فى الانشاد ، فأذن لها فأنشدته قصيدة مدحته بها فلما فرغت من انشـــادها ، قال الحجاج لجلســـائه : أتدرون من هذه الجارية ؟ قالوا : لا نعلم ، أصلح الله الامير ، ولكن لم نر امرأة أكمل منها كمالا ولا أعف منها عفة ، ولا أجمل منها جمالا ولا أطلق لسانا ، ولا أبين بيـــانا فمن هى ؟ قال هذه ليلى الاخيلية صـــاحبة توبة بن الحمير الذى يقول فيها :

نأتك بليـــلى دارهـــا لا تزورها   فقد رابنى منها الغداة ســـفورها

قالت : أصلح الله الامير ، لم يرنى الا متبرقعة وكان أرسل رسولا أن يلم بنا ففطن الحى لرسوله ، فأعدوا له وكمنوا ، وفطنت لذلك ، فلم يلبث أن جاء ، فألقيت برقعى وســـفرت له فلما رأى ذلك أنكره وعرف الشر فى وجهه فلم يزد على أن سلم على وسأل عن حالى وانصرف راجعا ، فقال الحجاج لها ، لله درك فهل كان بينكما ريبة ؟ قالت : لا والذى أسأله أن يصلحك الا أنه قال مرة قولا ظننت أنه خضع لبعض الامر فقلت له مسرعة هذا الشعر وأنشأت وهى تقول :

وذى حاجة قلنا له لا تبح بهـــا   فليس اليهـــا ما حييت ســـــبيل
لنا صـــــاحب لا ينبغى أن نخونه   وأنت لاخرى صـــاحب وخليـــل

فلا ، والذى أسأله ، ما كلمنى بعدها بشىء استربته حتى فرق الدهر بينى وبينه [١٥] .

ونلاحظ فى شعرها أنه جاء صادق التعبير عن نفس قائله . كما جاء طاهر المعانى عفيفا مع فصاحة فى الالفاظ وســـهولة فى التركيب وحلاوة ورقة فى التعبير ، وعنف فى العاطفة عادة ، والنفس البدوى يغلب عليها بطبيعة الحال ، ولا نجد فى شعرهن انحرافا أو مجانة ، وحتى أن الاحلام وطيف الخيال معدومين عندهن ، وليس فى شعرهن أفكار نابية أو آراء فجة اللهم الا اذا استثنينا عمر بن أبى ربيعة ومن يسير فى فلكه الذين ساروا وراء الغزل الصريح والشاعر من هؤلاء لا تستأثر بلبه امرأة معينة كما

---

(١٥) اخبار النساء : ٤٥ طبعة بيروت .

رأينا عند العذريين بل يهتم اهتماما عارضا بكل امرأة بدت له وهذا اللون الفنى ظهر عند الشعراء مثل عمر بن أبى ربيعة أما الشواعر فظل أدبهن ملتزما تسوده روح الاتزان والعقل والاعتدال .

هذا ما أردنا أن نســوقه فى الموازنة بين شــــواعر هذه الفترة من (الاندلسيات والعباسيات) وبين الشواعر الجاهليات والاسلاميات ، وقد قصرنا المقارنة على باب (الغزل) .

لأنه شـــاع وذاع فى هذه الفترة الأخـــيرة (عند العباســـيين والأندلسيين) وكان محببا ومقبولا لدى الشواعر لطبيعة هذا العصر عصر الترف والدعة الذى اتخذ الغزل فيه طابعاً مميزا دون غيره من الأغراض مما دعانى الى المقارنة والموازنة .

الخـــاتمة

وفى الخاتمة ، فانى أسعد بتقديم هذا البحث الى المكتبة العربية والاسلامية راجيا من الله ان يحقق الأمل الذى يراودنى منذ أن تشرفت بتـدريس الفتيـــات فى كليـــات البنـــات ا وكنت على كثب منهنـ

وهنـــا ما دفعنى الى الاهتمـــام بأدب المرأة والبحث عن كنوزها وذخائرها فليس من المعقول أن نترك تراث نصـــف الأمة هملا ضـــائعاً لا يهتم به الباحثون والكاتبون •

ولعلى بهذا الكتاب (أشعار النساء) فى الجاهلية والاسلام من العصر الجاهلى الى العباسى والاندلسى أكون قد وضعت اللبنة الأولى فى صرح كتاب أدب المرأة •

وانى انتهز هذه الفرصة لأشكر كل من قاموا معنا بمجهود طيب فى سبيل انجاز هذا البحث • والله من وراء القصد ؟

د/ محمـــد بدر معبدى

أهم المصـــادر والمراجـع

١ ـ القــرآن الكريم
٢ ـ أخبار النساء ـ ابن القيم ـ بيروت
٣ ـ أنيس الجلساء ـ شرح ديوان الخنساء ـ الاب لويس شيخو بوت •
٤ ـ الادب فى الاندلس ـ د • عبد الحسيب طه ـ الرياض
٥ ـ الاندية العباسية ـ د • على محمد هاشم ـ بيروت
٦ ـ الاغانى ـ للاصفهانى ـ « ساسى » القاهرة
٧ ـ أشعار أولاد الخلفاء ـ بيروت ، الأشربة لابن قتيبة مخطوط
٨ ـ أشعار النساء ـ المرزبانى ـ (مخطوط) دار الكتب المصرية
٩ ـ آمالى المرتضى ـ المرتضى الشريف ـ لجنة التأليف والترجمة ـ القاهرة
١٠ ـ الاحاطة فى أخبار غرناطة ، لسان الدين الخطيب ـ بيروت
١١ ـ الاعلام ـ للزركلى ـ بيروت
١٢ ـ الاصابة ـ لابن حجر ـ بيروت
١٣ ـ أعلام النساء ـ عمر رضا كحالة ـ بيروت
١٤ ـ الادب الاندلسى ـ د • محمد كامل الفقى ـ الرياض
١٥ ـ أدب الغرباء ـ الاصبهانى ـ دار الكتاب الجديد ـ بيروت
١٦ ـ بغية الملتمس ـ للضبى ـ بيروت
١٧ ـ بلاغات النساء ـ لابن طيفور ـ بيروت
١٨ ـ تاريخ ابن الاثير ـ ابن الاثـير ـ بيروت ـ تاريخ الطبرى ـ القاهرة
١٩ ـ تاج العروسى ـ الزبيدى ـ بيروت
٢٠ ـ تحفة القادم ـ لابن الابار ـ بيروت
٢١ ـ التكملة لكتاب الصلة ـ ابن الابار ـ بيروت
٢٢ ـ ثمرات الاورق ـ لابن حجة الحموى ـ بيروت
٢٣ ـ جذوة المقتبس ـ للحميدى ـ بيروت ـ جمهرة الأمثال لأبى هلال العسكرى
٢٤ ـ حسن المحاضرة ـ للسيوطى ـ بيروت

٢٥ — حضارة العرب — لوبون جوستاف — عيسى الحلبى — مصر
٢٦ — حماسة البحترى — البحترى — بيروت
٢٧ — الحيوان — للجاحظ — بيروت
٢٨ — الحماسة البصرية — للبصرى — بيروت
٢٩ — الدر المنثور — زينب فواز — بيروت — ديوان الهذليين طبعة مصر
٣٠ — الدرر الكامنة — لابن حجر — بيروت
٣١ — ديوان ابن زيدون — تحقيق محمد سيد كيلانى — مصطفى الحلبى — القاهرة
٣٢ — دائرة (مجلة المعرفة) — مؤسسة الاهرام — القاهرة
٣٣ — دائرة المعارف الاسلامية — بيروت
٣٤ — الذخيرة — لابن بسام — بيروت
٣٥ — الذيل والتكملة — لابن عبد الملك المراكشى — بيروت
٣٦ — الذهب المسبوك — للاربلى — بيروت
٣٧ — الرثاء — شوقى ضيف — دار المعارف — بمصر
٣٨ — رياض الادب — لويس شيخو — بيروت
٣٩ — زهرب الآداب — للحصرى — بيروت
٤٠ — سيرة ابن هشام — مصر
٤١ — سرح العيون — ابن نباته — بيروت
٤٢ — شرح ديوان الحماسة — مصر
٤٣ — شاعرات العرب — بشير يموت — بيروت
٤٤ — شاعرات العرب — عبد البديع صقر — دمشق
٤٥ — شرح قصيدة الوزير بن عبدون — طبعة ليدن ، تحقيق دورى
٤٦ — شرح ديوان الحماسة — للمرزوقى — لجنة التأليف — القاهرة
٤٧ — الصناعتان — لابى هلال العسكرى — بيروت
٤٨ — الصلة — ابن بشكوال — بيروت
٤٩ — طبقات النحويين والنحويين — الزبيدى — بيروت
٥٠ — طبقات الشافعية — السبكى — القاهرة
٥١ — طبقات ابن سلام — مصر
٥٢ — العيون والحدائق — بيروت

٥٣ — عيون التواريخ — لابن شاكر — مخطوط بدار الكتب المصرية
٥٤ — عيون الاخبار — لابن قتيبة — بيروت
٥٥ — الغزل — د • محمد سامى الدهان — دار المعارف — مصر
٥٦ — فهرس الفهارس — للكتانى — بيروت
٥٧ — الفوائد المستحبة — للخطيب البغدادى — مصر
٥٨ — قلائد العقيان — الفتح بن خاقان — بيروت
٥٩ — الكامل — للمبرد — بيروت
٦٠ — مجمع الأمثال للميدانى — طبعة القاهرة
٦١ — مصارع العشاق — دار صادر — بيروت
٦٢ — المرأة فى الشعر الجاهلى — د • على الهاشمى — بيروت
٦٣ — المرأة فى الشعر الجاهلى — د • الحوفى — نهضة مصر
٦٤ — المرأة العربية — عبد الله عفيفى — المكتبة التجارية — مصر
٦٥ — المغرب — لابن سعيد — بيروت
٦٦ — المطرب — لابن دحية — بيروت
٦٧ — المستطرف من أخبار الجوارى — السيوطى — بيروت
٦٨ — المحاسن والاضداد — للجاحظ — بيروت
٦٩ — مختارات د • عبد السلام سرحان — مصر
٧٠ — مروج الذهب — للمسعودى — بيروت
٧١ — معجم ستاينجاس — (معجم فارسى)
٧٢ — معجم البلدان ، معجم الادباء — لياقوت الحموى — بيروت
٧٣ — مرآة الزمان — لليافعى — بيروت
٧٤ — المشتبه — للذهبى — بيروت
٧٥ — مرآة الجنان — لليافعى — بيروت
٧٦ — نفح الطيب — المقرى — بيروت
٧٠ — نهاية الارب — النويرى — هيئة الكتاب
٧٨ — وفيات الاعيان — لابن خلكان — هيئة الكتاب
٧٩ — الوافى بالوفيات — للصفدى — هيئة الكتاب
٨٠ — الوسيط — أحمد الاسكندرى وآخرون — مصر
٨١ — الوساطة بين المتنبى وخصومه — طه حسين — مصر
٨٢ — الوزراء والكتاب — للجهشيارى — دمشق

المحتوى

رقم الايداع بدار الكتب ٤٧٠٣ لسنة ١٩٨٦

